سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية

أولاً: المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" (آل عمران:١٠٢).

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً" (النساء:١).

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً" (الأحزاب:٧٠، ٧١).

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وبهذين الأصلين اهتدت الأمة قديما، وهما سبيل نجاتها في سائر الأزمان والأحوال. من تمسك بهما رشد واستقام، ومن ضل عنهما غوى وهوى.

ويزداد يقيني يوما بعد يوم أنه لا خلاص لهذه الأمة من هذا الواقع الذي تعيشه، والبؤس الذي تحياه، لتعود كما كانت خير أمة أخرجت للناس، إلا بأن تجعل القرآن الكريم سبيل نجاتها، وحبل خلاصها، وهاديها من حيرتها، ومنقذها من رقدتها، به تحيا، وفي ضوئه تسير، وعلى منهاجه تموت، (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر: من الآية٧).

وانسجاما مع هذه القناعة، وتفاعلا مع هذا اليقين طفقت أعيش مع كتاب الله، أفسر آياته، وأبين دلالاته، وأشير إلى هداياته.

ومن ذلك أنني وقفت منذ زمن بعيد مع سورة الحجرات، أتأملها عندما أقرؤها، وأبحث في تفسيرها ومقاصدها، ثم تحول هذا التأمل إلى دروس ألقيها عند كل آية من آياتها، وأخيرا رأيت أن أخرج هذه

التأملات والدروس والمباحث في كتاب يستفيد منه العامة والخاصة، لينهلوا مما نهلت منه، ويشربوا مما منه شربت.

ذلك أن سورة الحجرات مدرسة متكاملة، تربى في ضوئها أصحاب محمد ﷺ فإنها مع قصرها، وقلة عدد آياتها جاءت شاملة لأحكام وآداب وأوامر ونواه لا تجدها مجتمعة في سورة سواها.

إن سورة الحجرات مدرسة متكاملة، جاءت لتربي الأمة على سمو الأخلاق، وفضائل الأعمال وعلو الهمم.

إنها مدرسة عقدية وتشريعية وتربوية، ولذلك فلا عجب أن نرى أخلاق الجيل الأول هي أخلاق القرآن، التي هي أخلاق إمامنا وإمام ذلك الجيل محمد، ﷺ الذي كان خلقه القرآن. ولذلك قادوا الدنيا بأسرها. لا بسيوفهم ولا بأموالهم، ولكن بأخلاقهم المستمدة من دينهم، ومثلهم المأخوذة من كتاب ربهم وسنة نبيهم، ﷺ. وأمتنا اليوم أحوج ما تكون إلى منقذ لها مما هي فيه جائعة والزاد بين يديها، عطشى والماء فوق ظهورها محمول.

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وما صلح أولها إلا بالكتاب والسنة، "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا، كتاب الله وسنتي".

وهذه السورة – سورة الحجرات – تعالج قضايا وأمورا تسهم في حل كثير من المعضلات التي تواجهها الأمة اليوم. ولكن ما سبق عزمت على المضي قدما في إخراج بعض كنوز هذه السورة، حيث لم أرـــ حسب اطلاعي – تفسيرا شاملا لهذه السورة، يقف مع آياتها محللا ومفسرا، ومع موضوعاتها دارسا ومبينا ومحققا.

فجاءت دراستي لهذه السورة في قسمين:

القسم الأول: تناولت فيه دراسة الآيات وتفسيرها تفسيرا تحليليا.

والقسم الثاني: تناولت فيه دراسة السورة، دراسة موضوعية شاملة.

ولا أدعي أنني أتيت فيها يتعلق بالتفسير التحليلي بما لم تأت به الأوائل من العلماء والمفسرين، وإنما هو الجمع والانتقاء والاختصار والتعليق والترجيح حسب ما يقتضيه المقام، وأنا عالة عليهم – رحمهم الله وأحسن مثوبتهم.

أما القسم الثاني: فقد كان الجهد فيه أوضح، والعمل أشمل، وبخاصة أنني تطرقت إلى موضوعات اقتضت مني مزيدا من البحث والاستقصاء، والسهر والعناء، التفكير في ضوء ما كتبه الأئمة والعلماء، مستهديا بالكتاب والسنة، وفقه سلف الأمة.

فجاء هذا الكتاب مشتملا على نوعي التفسير – التحليلي والموضوعي –: وقد تناولت في القسم الأولي ما يلي:

١- أسباب نـــزول آياتها، وقد ذكرت أهم أسباب النـــزول، ورجحت ما أراه عند كل آية إذا تعددت أسباب نـــزولها.

٢- القراءات الواردة في السورة، واقتصرت على القراءات المتواترة، سوى مواضع قليلة، مع بيان حجة القراءة عند الحاجة.

٣- بعض أحكام التجويد، وبخاصة التي اختلفت بعض القراء في نطقها، وهي أخص من القراءة، ولذلك أفردتها.

٤- الوقف والابتداء، وهذا المبحث ينسجم مع الشمول الذي التزمته في دراستي لهذه السورة، وبخاصة أن هناك من يخطئ كثيرا في هذا الباب، فيقف في موضع حقه الوصل، ويصل في موضع حقه الوقف.

٥- اللغة والإعراب، وقد تناولت فيه ما يتعلق بمعاني الآيات وتفسيرها، مع الوقوف عند إعراب بعض الآيات مما يستدعيه المقام، ويحتاج إليه طالب العلم.

٦- وقفات بلاغية، وقد اقتصرت فيه على ثمان وقفات وبلاغية، تسهم في فهم المعنى وبيان المراد.

٧- ما ورد في السورة من أحكام.

وهناك من يتصور أن الأحكام التشريعية في هذه السورة قليلة، وهذا غير صحيح، بل فيها جملة من الأحكام والأوامر والنواهي، بيّنتها في هذا المبحث.

هذه هي المباحث التي تناولتها في القسم الأول، وهو الدراسة التحليلية، وقد ركزت في هذا القسم على أن تكون منطلقا للدراسة الموضوعية، حيث إنه يصعب فهم القسم الثاني دون استيعاب القسم الأول، بل إنهما أشبه بالقاعدة والمثال، يصعب فصل أحدهما عن الآخر.

أما القسم الثاني وهو الدراسة الموضوعية، فقد استغرق أغلب الدراسة وأكثر ما ورد في الكتاب، تطرقت في هذا القسم إلى موضوعات استمددتها من آيات هذه السورة وهداياتها.

وقد بذلت فيها وسعي وأفرغت طاقتي في ضوء ما يعيشه المرء من ظروف وأوضاع، في عالم مضطرب هائج، لا يستطيع المرء أن ينــزع نفسه منه، قد تكون هذه الأوضاع مما ساهم في شمول هذه الدراسة، المعالجة الواقعية عند تناول هذه الموضوعات، دون غلو أو جفاء.

وفي هذا القسم بينت أن السورة قد اشتملت على عدة موضوعات ووقفات، كل موضوع منها يحتاج إلى دراسة مستقلة، فمنها الموضوعات العقيدية، ومنها التشريعية، وأخرى في السلوك والأخلاق.

والموضوعات والوقفات التي تناولتها في هذه السورة هي:

أولا: الوحدة الموضوعية للسورة.

ثانيا: وقفات مع سورة الحجرات، وفي هذا المبحث وقفت ثلاث وقفات:

١- منهج للدعاة.

٢- مع أسماء الله وصفاته.

٣- اللسان في ضوء سورة الحجرات.

ثالثا: موضوعات سورة الحجرات، وهذا أهم مباحث السورة، بل هو صلب البحث وجوهره، وما عداه مكمل له ومتمم، وقد تناولت فيه ستة موضوعات:

١- التقدم بين يدي الله ورسوله.

٢- الأدب مع العلماء.

٣- التقوى وامتحان القلوب.

٤- التثبت في الأخبار.

٥- الأخوة.

٦- الإسلام والإيمان.

ثم ختمت بخاتمة مختصرة مناسبة، مع ذكر ثبت للمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

هذا وأسأل الله – جل وعلا – أن يجعل هذه الدراسة نافعة، ومحققة للأهداف التي كتبت من أجلها، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

وهذا جهد المقل، فما في هذا الكتاب من خير وصواب فمن الله وحده (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ) (النساء: من الآية١١٣)، (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) (البقرة: من الآية٢٥٥).

وما فيه من خطأ وتقصير فمن نفسي والشيطان (قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) (آل عمران: من الآية١٦٥).

ولا يسعني إلا أتقدم بالشكر – بعد شكر الله – لكل من ساهم في إنجاز هذه الدراسة واستكمالها، سواء أكانت مساهمة حسية أو معنوية، وأخص بالشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، حيث كان تفريغها لي سنة كاملة مساعدا في إنجاز هذا البحث.

وكذلك أخص أساتذتي ومشايخي وزملائي، الذين ساهموا بعلمهم وآرائهم وكتبهم، فلهم جميعا جزيل الشكر وجميل العرفان. رب اغفر لي ولوالدي، ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما، صلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

الرياض: ٢٩-٧-١٤١٣هـ

الدراسة التحليلية

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم السورة: سورة الحجرات.

مكان نــزولها: المدينة، وقد ذكر ابن كثير أنها في السنة التاسعة من الهجرة، فهي مدنية [1].

عدد آياتها: ثمانية عشر آية.

ثانياً: أسباب نــزول آياتها

هناك عدة أسباب لنــزول هذه السورة، حيث إن بعض الآيات ورد فيها أكثر من سبب من أسباب النــزول.

أسباب النــزول:

وجمعا بين الاختصار والشمول، وتحاشيا للسرد والتطويل، فسأذكر مجمل الأسباب التي وردت في كل آية إن كان لها سبب نــزول [2] ومتعدد، ثم أذكر أرجحها كاملا حسب ما يظهر لي، مع التنبيه إلى ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال: قولهم: نــزلت الآية في كذا، يراد به تارة سبب النــزول ويُراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب كما تقول: عني بهذه الآية كذا.

وقال القاسمي تعقيبا على كلام شيخ الإسلام: وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النــزول، فاحفظه فإنه من المضنون به على غير أهله. والله أعلم.

وقال أيضا: قولهم: نــزلت الآية في كذا، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية، لا أنه سبب نــزولها [3]

وعندما أرجح أن هذا هو سبب النــزول فإني أعني به السبب المباشر لنــزولها، لا ما تشمله الآية، وكذلك عندما أضعف بعض الأقوال فإني أقصد أنه ليس هو السبب المباشر، لا أن الآية لا تشمله، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

١ - انظر: تفسير ابن كثير ٤-٢٠٧.

٢ - كل آية في القرآن لها سبب نــزول، ولكن السبب إما أن يكون عاما أو خاصا، والمراد هنا السبب الخاص.

٣ - انظر:تفسير القاسمي ١٥-١١٤.

قوله – تعالى–: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) (الحجرات: من الآية١).

ورد في سبب نــزولها أربعة أقوال:

١– أنها نــزلت في أبي بكر وعمر عند قدوم وفد بني تميم [١]

وهذا القول فيه نظر؛ لأن الذي نــزل في أبي بكر وعمر الآية التي بعدها.

ولكن يمكن حمل هذا القول على أن هذه الآيات نــزلت جميعا، فكان من أسباب نــزولها جملة قصة أبي بكر وعمر، وهو ما يفهم من حديث البخاري في الصحيح كما سيأتي.

٢– أن قوما ذبحوا قبل أن يصلى رسول الله ﷺ يوم النحر، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يعيدوا الذبح، فنــزلت هذه الآية، قاله الحسن [٢]

٣– أنها نــزلت في قوم كانوا يقولون: لو أنــزل الله في كذا وكذا، فكره الله ذلك،وقدم فيه،قاله قتادة [٣]

٤– أنها نــزلت في عمرو بن أمية الضمري، وكان قد قتل رجلين من بني سليم قبل أن يستأذن رسول الله ﷺ قاله ابن السائب [٤].

ويصعب الجزم بأحد الأقوال، إلا أن قول قتادة قوي، وكذلك القول الأول حسب التوجيه الذي ذكرت، مع أنني ألمس ضعفا في القولين الثاني والرابع.

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) (الحجرات: من الآية٢).

ورد في سبب نــزولها قولان:

١– أنها نــزلت في أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – في قصة بني تميم [٥].

---

١ – انظر: زاد المسير ٧–٤٥٤، وذكر فيه أثرا عن ابن الزبير، وهو من رواية ابن مردويه عنه.

٢ – انظر: تفسير الطبري ٢٦–١١٧، وزاد المسير ٧–٤٥٤.

٣ – انظر: تفسير الطبري ٢٦–١١٧، وزاد المسير ٧–٤٥٤، وتفسير ابن كثير ٤–٢٠٥.

٤ – انظر: زاد المسير ٧–٤٥٥.

٥ – انظر: تفسير الطبري ٢٦–١١٩، وزاد المسير ٧–٤٥٦، وتفسير ابن كثير٤–٢٠٦.

٢- أنها نـــزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان جهوري الصوت، فخشي أن الرسول ﷺ كان يتأذى بصوته، فأنـــزل الله الآية. قاله مقاتل وغيره [1]. والقول الثاني ضعيف، لأن ثابت بن قيس ظن أن الآية فيه، فاستدعاه رسول الله ﷺ وأزال عنه هذا الظن، بل بشره بالجنة، وفي بعض الروايات بشره بالشهادة، ولذا فإن ثابتا - رضي الله عنه - وإن خاف أن الآية نـــزلت فيه، فإنه أيقن بعد ذلك أنه ليس هو المراد وأيضا جهورية صوته خلقة لا تعمدا.

والقول الصحيح أنها نـــزلت في أبي بكر وعمر، للآثار الصحيحة الواردة في ذلك.

قال البخاري: حدثنا بسرة بن صفوان اللخمي، حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال: "كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر،قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما -: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنـــزل الله - تعالى -: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) (الحجرات: من الآية٢)"

قال ابن الزبير ــ رضي الله عنه -: "فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ولم يذكر ذلك عن أبيه - يعني أبا بكر رضي الله عنه — " قال ابن كثير: انفرد به البخاري [2].

وفي رواية أخرى للبخاري قال: حدثنا حسن بن محمد، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير ــ رضي الله عنهما ــ أخبره أنه "قدم ركب من بني تميم على النبي - صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر ــ رضي الله عنه -: أمّر القعقاع بن معبد، وقال عمر رضي الله عنه بل أمّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر رضي الله عنه ما أردت إلا خلافي، فقال عمر رضي الله عنه ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنـــزلت في ذلك: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ

١ - انظر: تفسير الطبري ٢٦-١١٨، وتفسير ابن كثير ٤-٢٠٦.

٢ - أخرجه البخاري(٦-٤٦)كتاب التفسير.وانظر: تفسير ابن كثير (٤-٢٠٦).

يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) (الحجرات: من الآية١).حتى انقضت الآية: (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ) (الحجرات: من الآية٥)" قال ابن كثير: وهكذا رواه منفردا به أيضا [1].

وبهذين الحديثين يتضح أن سبب النـــزول قصة أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما –.

٣- قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى) (الحجرات: من الآية٣) قال ابن عباس – رضي الله عنهما –:لما نـــزل قوله: (لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ)(الحجرات: من الآية٢) تألّي [2] أبو بكر ألا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار،فأنـــزل الله في أبي بكر: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ)(الحجرات: من الآية٣)[3].

قوله – تعالى –: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ)(الحجرات: من الآية٤) في سبب نـــزولها ثلاثة أقوال:

الأول: "أن بني تميم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فنادوا على الباب: يا محمد اخرج إلينا، فإن مدحنا زين، وإن ذمنا شين، فخرج وهو يقول: إنما ذلكم الله فقالوا: نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك. فقال: ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت، ولكن هاتوا. فقال الزبرقان بن بدر لشاب منهم: قم فاذكر فضللك وفضل قومك فقام فذكر ذلك، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس فأجابه، وقام شاعرهم،فأجابه حسان، فقال الأقرع بن حابس: والله ما أدري ما هذا الأمر، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولا، وتكلم شاعرنا، فكان شاعرهم أشعر، ثم دنا فأسلم، فأعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم، وارتفعت الأصوات، وكثر اللغط عند رسول الله ﷺ فنـــزلت الآية."

---

١ – صحيح البخاري (٦-٤٧)كتاب التفسير،وانظر: تفسير ابن كثير (٤-٢٠٦).

٢ – أي: آلى على نفسه،أي: حلف عليها.

٣ – انظر:زاد المسير ٧-٤٥٧، وقد ذكره الواحدي في أسباب النـــزول ٢١٩ بغير سنده،وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف:وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر قال:لما نـــزل (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم). الآية قلت: يا رسول الله !آليت ألا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله، قال: وأخرجه الحاكم والبيهقي في المدخل من حديث أبي هريرة قال: لما نـــزلت: (الذين يغضون).الآية، قال أبو بكر: والذين أنـــزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله عز وجل، وقال صحيح على شرط مسلم. انظر: تخريج أحاديث الكشاف، تفسير سورة الحجرات (٤-٣٥٢)، والمستدرك (٢-٤٦٢)، ومجمع الزوائد (٧-١١١)،قال الهيثمي عن إسناد البزار: وفيه حصين بن عمر الأحمسي وهو متروك، وقد وثقة العجلي،وبقية رجاله رجال الصحيح.اهـ.

هذا قول جابر بن عبد الله وآخرين [١].

وقال ابن إسحاق: نــزلت في جفاة بني تميم، وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم المنقري وغيرهم [٢].

وقال ابن كثير: ذكر أنها نــزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه فيما أورده غير واحد، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن الأقرع بن حابس "أنه نادى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية يا رسول الله فلم يجبه، فقال: يا رسول الله إن حمدي لزين وإن ذمي لشين، فقال ذاك الله ﷻ"[٣].

الثاني: "أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى بني العنبر، وأمر عليهم عيينة بن حصن الفزاري، فلما علموا بذلك هربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عيينة، فجاء رجالهم يفدون الذراري، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله ﷺ قائل، فجعلوا ينادون: يا محمد اخرج إلينا، حتى أيقظوه، فنــزلت هذه الآية" قاله ابن عباس [٤].

الثالث: "أن ناسا من العرب قال بعضهم لِبَعْضٍ:انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، إن يكن نبيا نكن أسعد الناس به، وإن يكن ملكا نعش في جناحه، فجاءوا فجعلوا ينادون: يا محمد، يا محمد، فنــزلت هذه الآية." قاله زيد بن أرقم [٥].

والذي يترجح لديّ أن السبب الأول هو الصحيح، أي أنها نــزلت في وفد بني تميم، ومناداتهم للرسول ﷺ من وراء الحجرات.

---

١ – رواه الواحدي في أسباب النــزول ص ٢٢٠ مطولا، من رواية معلى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن جعفر عن عمر بن الحكم عن جابر، وفي سنده معلى الواسطي ضعفه الدارقطني وغيره، وانظر: زاد المسير ٧–٤٥٨. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦–٩٠)وعزاه لابن إسحاق، وابن مردويه عن ابن عباس.

٢ – انظر:زاد المسير ٧–٤٥٨وأسباب النــزول ٢١٩ فقد ذكره عن ابن إسحاق بدون سند.

٣ – انظر:تفسير ابن كثير (٤–٢٠٧)ومسند الإمام أحمد (٣–٤٨٨). قال الهيثمي في المجمع (٧–١١١):رواه أحمد والطبراني، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع، وإلا فهو مرسل كإسناد أحمد الآخر. قال السيوطي في الدر المنثور(٦–٨٩):أخرجه أحمد وابن جرير،وأبو القاسم البغوي وابن مردويه والطبراني بسند صحيح.

٤ – انظر زاد المسير (٧–٤٥٩). قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (٤–٣٥٨):أخرجه ابن مردويه من رواية ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس اهـ.وهذا إسناد تالف والكلبي متهم.

٥ – انظر:تفسير الطبري (٢٦–١٢١)، وذكره السيوطي في الدر (٦–٨٩)وحسنه وزاد نسبته لابن راهويه ومسدد وأبي يعلى والطبراني وابن أبي حاتم عن زيد بن أرقم ــ رضي الله عنه ــ وانظر زاد المسير٧–٤٥٩.

أما القول الثاني فهو ضعيف.

أما الثالث:فلعله يمكن حمله على بني تميم، فتتحد القصة مع تعدد الروايات.

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)(الحجرات: من الآية٦).

هذه الآية نـــزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط كما قال جمهور المفسرين.

وقد ورد في ذلك عدة آثار من طرق مختلفة من أحسنها – كما قال ابن كثيرـــ: ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق، وهو الحارث بن ضرار بن أبي ضرار، والد ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين – رضي الله عنها – قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي سابق، حدثنا عيسى بن دينار،حدثني أبي أنه سمع الحارث ضرار الخزاعي رضي الله عنه يقول: "قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، فقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي دفعت زكاته، وترسل إلي يا رسول الله إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول، و لم يأته،وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله – تعالى – ورسوله، فدعا بسروات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده، مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق – أي خاف – فرجع حتى أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فقال: يا رسول الله !إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي، فغضب رسوله الله ﷺ وبعث إلى الحارث رضي الله عنه وأقبل الحارث بأصحابه، حتى إذا استقبل البعث، وفصل عن المدينة لقيهم الحارث،فقالوا هذا الحارث، فلما غشيهم قال: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: و لم ؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال رضي الله عنه لا والذي بعث محمدا ﷺ قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، ما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله، ﷺ قال: فنـــزلت الحجرات: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)(الحجرات: من الآية٦) إلى قوله: (حَكِيمٌ)(الحجرات: من الآية٨)"[١].

قال ابن كثير بعد أن ساق هذا الحديث: وذكر بعده عدة روايات.

وكذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبي ليلى ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل بن حيان وغيرها في هذه الآية أنها نـــزلت في الوليد بن عقبة،والله أعلم [٢].

قوله – تعالى –: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)(الحجرات: من الآية٩).

في سبب نـــزول هذه الآية قولان:

الأول: في قصة ذهاب رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "قيل لرسول الله ﷺ لو أتيت عبد الله بن أبي، فركب حمارا وانطلق معه المسلمون يمشون، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني،فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله، لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها نـــزلت فيهم: (وإن طائقتان)" [٣]. [سورة الحجرات،الآية:٩].

وقد وردت رواية أخرى عن أسامة بن زيد وهي قريبة من هذه [٤].

القول الثاني: أنها نـــزلت في رجلين من الأنصار كان بَيْنَهُمَا مماراة في حق بَيْنَهُمَا، فقال أحدهما: لآخذن حقي عنوة، وذلك لكثرة عشيرته، ودعاه الآخر ليحاكمه إلى رسول الله ﷺ فلم يزل الأمر بَيْنَهُمَا حتى تناول بعضهم بعضا بالأيدي والنعال.

١ – المسند (٤–٢٧٩).وانظر تفسير ابن كثير (٤–٢٠٨)قال السيوطي في الدر المنثور (٦–٩١): أخرجه أحمد وابن حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد. وقال الهيثمي في المجمع (٧–١١٢):ورجال أحمد ثقات.

٢ – انظر:تفسير ابن كثير(٤–٢١٠)،وتفسير الطبري (٢٦–١٢٣)، وأسباب النـــزول (٢٢٢)،وزاد المسير (٧–٤٦٠).

٣ – رواه البخاري (٣–١٦٦)كتاب الصلح،ومسلم (٣–١٤٢٤) كتاب الجهاد رقم (١٧٩٩)، وأحمد في المسند (٣–١٥٧،٢١٩)وابن جرير الطبري في تفسيره ٢٦–١٢٨ وانظر زاد المسير ٧–٤٦٢،والدر المنثور٦–٩٠ نسبه السيوطي لابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس ــ رضي الله عنه ــ.

٤ – وهي عند البخاري (٧–١٢٠)كتاب الأدب ومسلم (٣–١٤٢٢)كتاب الجهاد، رقم (١٧٩٨).

وهذا القول لقتادة [1].

والقول الأول هو الأظهر والأرجح لثبوته في الصحيحين وغيرهما.

أما الثاني فقد قال قتادة: ذكر لنا، ثم ساقة كما هو في الدر المنثور.

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ)(الحجرات: من الآية١١) وقد ذكر العلماء لنـــزولها سببين:

الأول: "أن ثابت بن قيس بن شماس جاء يوما يريد الدنو من رسول الله ﷺ وكان به صمم، فقال لرجل بين يديه: أفسح، فقال له الرجل: قد أصبت مجلسا، فجلس مغضبا، ثم قال للرجل: من أنت، قال: أنا فلان، فقال ثابت: أنت ابن فلانة، فذكر أما له كان يعير بها في الجاهلية، فأغضى الرجل ونكس رأسه، ونـــزل قوله – تعالى –: (لا يسخر قوم من قوم).[سورة الحجرات،الآية:١١]." قاله صالح عن ابن عباس [2].

والثاني: "أن وفد تميم استهزءوا بفقراء أصحاب رسول الله ﷺ لما رأوا رثاثة حالهم، فنـــزلت هذه الآية" قاله الضحاك ومقاتل [3]

وهذان السببان ضعيفان، وسأرجح ما أراه في آخر هذه الآية.

قوله – تعالى –: (وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ)(الحجرات: من الآية١١) ذكر بعض المفسرين ثلاثة أقوال في سبب نـــزولها:

الأول: "أن نساء رسول الله ﷺ عيرن أم سلمة بالقصر، فنـــزلت هذه الآية" قاله أنس بن مالك [4].

الثاني: وهو قريب من الأول وفي معناه [5]

---

١ – انظر: زاد المسير ٧-٤٦٣ وذكره السيوطي في الدر ٦-٩٥ من رواية عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة.

٢ – انظر زاد المسير ٧-٤٦٥ وقد ذكره الواحدي في أسباب النـــزول (٢٢٣)بغير سند ولم يعزه لأحد، وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: ذكره الثعلبي ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند. انظر:تخريج أحاديث الكشاف،سورة الحجرات (٤-٣٧٠).

٣ – ذكرها البغوي والخازن عن الضحاك بغير سند، وأورده السيوطي في الدر٦-٩٧من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل،وانظر: زاد المسير ٧-٤٦٦.

٤ – ذكره البغوي والواحدي والخازن بغير إسناد، وانظر: زاد المسير ٧-٤٦٦.

٥ – انظر: زاد المسير ٧-٤٦٦وقد ذكره بعض المفسرين بلا إسناد.

الثالث: "أن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يعيرنني ويقلن: يا يهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله ﷺ هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد، فنـــزلت هذه الآية" رواه عكرمة عن ابن عكرمة عن ابن عباس [1].

وهذه الأسباب ضعيفة، لضعف أسانيدها.

قوله – تعالى –: (وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)(الحجرات: من الآية١١).

في نـــزولها ثلاثة أقوال:

الأول: "أن رسول الله ﷺ قدم المدينة ولهم ألقاب يدعون بها، فجعل الرجل يدعو الرجل بلقبه،فقيل له يا رسول الله: إنهم يكرهون هذا فنـــزل قوله – تعالى –: (وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ).[سورة الحجرات،الآية:١١]" قاله أبو جبيرة بن الضحاك[2].

الثاني: أن أبا ذر كان بينه وبين رجل منازعة، فقال له الرجل: يا ابن اليهودية فنـــزلت، قاله الحسن[3]

الثالث: أن كعب بن مالك الأنصاري كان بينه وبين أبي عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي كلام، فقال له: يا أعرابي، فقال له عبد الله يا يهودي، فنـــزلت فيهما الآية، قاله مقاتل [4].

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)(الحجرات: من الآية١٣) في نـــزولها ثلاثة أقوال:

الأول:أنها نـــزلت في ثابت بن قيس وفي الرجل الذي لم يفسح له، حيث قال ثابت:أنت ابن فلانة [5].

---

١ – ذكره الواحدي في أسباب النـــزول والبغوي في تفسيره عن عكرمة عن ابن عباس بلا إسناد، وانظر: زاد المسير ٧-٤٦٦.

٢ – أخرجه أحمد (٤-٦٩)،(٥-٣٨٠). وأبو دواد (٤-٢٩٠، ٢٩١)كتاب الأدب رقم (٤٩٦٢). وابن ماجه (٢-١٢٣١)كتاب الأدب رقم (٣٧٤١).والترمذي (٥-٣٦٢)كتاب التفسير، رقم (٣٢٦٨)، قال الترمذي: حسن صحيح.والحاكم (٢-٤٦٣)،وقال:صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وانظر: تفسير الطبري (٢٦-١٣٢)، والدر المنثور(٦-٩٧)،وزاد المسير (٧-٤٦٧)، وتفسير ابن كثير (٤-٢١٢).

٣ – انظر: زاد المسير (٧-٤٦٧).

٤ – نظر: زاد المسير (٧-٤٦٧).

٥ – قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (٤-٣٧٠):"ذكره الثعلبي من تبعه عن ابن عباس بدون إسناد"وكذلك ذكره غير واحد بدون إسناد، وانظر: زاد المسير ٧-٤٧٣.

الثاني: أنها نـــزلت في قوم تكلموا في بلال، وعيروه عندما أذن يوم الفتح فوق ظهر الكعبة. قاله مقاتل وابن أبي مليكة [1].

الثالث: "أن عبدا أسود مرض فعاده رسول الله ﷺ ثم قبض فتولي غسله وتكفينه ودفنه، فأثر ذلك عند الصحابة، فنـــزلت هذه الآية" قاله يزيد بن شجرة [2].

وكل هذه الآثار ضعيفة،فلا يجزم بأي واحد منها.

قوله – تعالى –: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)(الحجرات: من الآية١٤) جمهور المفسرين على أن هذه الآية نـــزلت في أعراب بني أسد، حين قدموا المدينة، وامتنوا بإسلامهم وقالوا آمنا. وكانوا يمنون على رسول الله – ﷺ – ويقولون: أتيناك بالأنفال والعيال ولم نقاتلك، فنـــزلت الآية كما قال مجاهد وغيره [3].

وقال السدي: نـــزلت في أعراب مزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، حيث كانوا يدعون الإيمان ولما استنفرها رسول الله، ﷺ في الحديبية تخلفوا فنـــزلت [4].

والراجح هو الأول.قال ابن كثير: والصحيح الأول [5].

١ – ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦-١٠٧)وعزاه:لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة.انظر:دلائل النبوة للبيهقي (٤-٣٢٨)،وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٧-٤٧٣)، والواحدي في أسباب النـــزول (٢٢٤)عن مقاتل.

٢ – قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (٤-٣٧٥):ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند.وانظر:زاد المسير(٧-٤٧٣).

٣ – أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد.انظر:تفسير الطبري ٢٦-١٤١،وزاد المسير ٧-٤٧٦، وتفسير ابن كثير ٤-٢١٩،والدر المنثور(٦-١١١).

٤ – انظر:زاد المسير ٧-٤٧٦،وذكره البغوي والخازن عن السدي بغير إسناد.انظر: معالم التنـــزيل للبغوي(٤-٢١٨).

٥ – تفسير ابن كثير ٤-٢١٩.

ثالثاً: القراءات

وردت عدة قراءات سبعية في بعض آيات سورة الحجرات، ولأهمية بيانها ولعلاقتها بالتفسير مما يساعد على فهم المعنى فسأذكر هذه القراءات ومن قرأ بها، مع بيان علة القراءة عند الحاجة، وقد أشير إلى بعض القراءات غير السبعية وهو قليل.

١- قوله – تعالى -: (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)(الحجرات: من الآية٦).

قرأ حمزة والكسائي "فتثبتوا" بثاء مثلثة بعدها باء موحدة، وبعدها تاء مثناة فوقية، من التثبت.

وقرأ الباقون "فتبينوا" بباء موحدة وياء مثناة تحتية بعدها نون، من التبين [١].

٢- قوله – تعالى -: (حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)(الحجرات: من الآية٩).

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمر بتسهيل الهمزة الثانية، بين بين، وقرأ الباقون بتحقيقها [٢].

٣- قوله – تعالى -: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)(الحجرات: من الآية١٠).

قرأ ابن عامر وحده: "بين إخوتكم" على تاء الجماعة [٣].

وقرأ الباقون: (بين أخويكم) على اثنين.

فالحجة لمن قرأه بالياء أنه رده على اللفظ لا على المعنى، والحجة لمن قرأه بالتاء أنه رده على المعنى لا على اللفظ، وحجته أن الطائفة جمع وإن كان واحدا في اللفظ، كما قال: (خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا)(الحج: من الآية١٩) وقال ههنا قبلها: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)(الحجرات: من الآية٩) على المعنى لا على اللفظ.

أما قراءة التثنية – بالياء – تثنية أخ، لأن كل طائفة جنس واحد فردوه على اللفظ دون المعنى [٤].

٤- قوله – تعالى -: (وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)(الحجرات: من الآية١١).

قرأ البزي وصلا بتشديد التاء، مع المد المشبع للساكن، وقرأ الباقون بالتخفيف مع القصر [١].

---

١ – انظر:التبصرة لمكي ص ٦٨١، والإشارات الجلية لمحمد سالم محيسن ص ٤٣٩.

٢ – انظر:الإرشادات الجلية لمحيسن ص ٤٣٩.

٣ – قال ابن مجاهد: وروى هشام بن عمار عن سويد عن أيوب عن يحيى عن ابن عامر: (بين أخويكم) مثل الناس.انظر:كتاب السبعة في القراءات ص ٦٠٦.

٤ – انظر:كتاب السبعة ص٦٠٦وحجة القراءات لابن زنجلة ص ٦٧٥، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٣٣٠.

٥- قوله – تعالى –: (بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ)(الحجرات: من الآية١١).

قرأ ورش والسوسي بإبدال همزة بئس في الحالين. وكذا حمزة عند الوقف، ولو ابتدأت بـــ "الاسم" فلجميع القراء وجهان:

الأول:الابتداء بهمزة الوصل مفتوحة.

الثاني:الابتداء باللام مكسورة [٢]

٦- قوله – تعالى –: (وَلا تَجَسَّسُوا)(الحجرات: من الآية١٢).

قرأ البزي وصلا بتشديد التاء، مع المد المشبع للساكن، وقرأ الباقون بالتخفيف مع القصر [٣].

٧- قوله – تعالى –: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ)(الحجرات: من الآية١٢).

قرأ نافع وحده:"ميِّتا" بالتشديد.

وقرأ الباقون:"ميْتا"ساكنة الياء.

وهما لغتان، الأصل التشديد، ومن خفف استثقل التشديد فحذف الياء، قال الشاعر:

**ليس من مات فاستراح بميت	إنما الميت ميت الأحياء**

فجمع بين اللغتين [٤].

٨- قوله – تعالى –: (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)(الحجرات: من الآية١٣).

قرأ البزي بتشديد التاء وصلا، وقرأ الباقون بتخفيفها [٥].

٩- قوله – تعالى –: (وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً)(الحجرات: من الآية١٤).

---

١ – نظر:الإرشادات الجلية ص ٤٣٩،والكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ٢–٢٨٤).

٢ – انظر: الإرشادات الجلية ص ٤٣٩.

٣ – انظر الإرشادات الجلية ص ٤٣٩، والكشف عن وجوه القراءات السبع ٢–٢٨٤.

٤ – انظر: كتاب السبعة ص ٦٠٦وحجة القراءات لابن زنجلة ص ٦٧٧، والحجة في القراءات السبع ص ٣٣١.

٥ – انظر:الإرشادات الجلية ص ٤٣٩،والكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ٢–٢٨٤.

قرأ أبو عمرو: "لا يألتكم" بهمزة ساكنة بين الياء واللام، ويبدل منها ألفا إذا سهل كل همزة ساكنة.

قرأ الباقون: "لا يلتكم" بغير همز، وبعد الياء لام مكسورة.

وهما لغتان، يقال لات يليت، ككال يكيل. وألت يألت، فمن همز أخذه من ألت يألت، ومن ترك الهمز أخذه من لات يليت، ومعناهما لا ينقصكم [1].

وقال ابن زنجلة: وحجته - أي أبي عمرو- إجماع الجميع على قوله: (وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ)(الطور: من الآية٢١) فرد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه أولي.

وحجة الباقين: اتباع مرسوم المصاحف،وذلك أنها مكتوبة بغير الألف [2].

١٠- قوله - تعالى -: (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)(الحجرات: من الآية١٨).

قرأ ورش بترقيق الراء في "بصير" وقرأ الباقون بتفخيمها [3].

وقرأ ابن كثير وأبان عن عاصم: "بما يعلمون "بالياء.

وقرأ الباقون: (بِمَا تَعْمَلُونَ)(الحجرات: من الآية١٨)[4] بالتاء.

وحجة ابن كثير قوله قبلها: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا)(الحجرات: من الآية١٥) أي:والله بصير بما يعمل الْمُؤْمِنُونَ.

وحجة الباقين: قوله قبلها: (لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ)(الحجرات: من الآية١٧) فخاطبهم ثم قال: (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)(الحجرات: من الآية١٨)[5].

---

١ - انظر: كتاب السبعة ص ٦٠٦، والحجة لابن خالويه ص ٣١،والكشف عن وجوه القراءات السبع ٢-٢٨٤،والإقناع في القراءات السبع ٢-٧٧٠.

٢ - انظر:حجة القراءات لابن زنجلة ص ٦٧٦.

٣ - انظر:الإرشادات الجلية ص ٤٤٠.

٤ - انظر:الإرشادات الجلية ص ٤٤٠.

٥ - انظر:كتاب السبعة ص ٦٠٦، وحجة القراءات لابن زنجلة ص ٦٧٧، والتبصرة لمكي ص ٦٨١.

رابعاً: بعض أحكام التجويد

ورد في هذه السورة بعض أحكام التجويد المهمة التي اختلف القراء في نطق بعض آياتها،ولأهميتها،وللمنهج الذي التزمته في تفسير هذه السورة،وهو الشمول مع الإيجاز فسأذكر أهم ما ورد في ذلك موجزا:

أولا:المقلل والممال [1].

قوله – تعالى –: (لِلتَّقْوَى)(الحجرات: من الآية٣)[2]، (إِحْدَاهُمَا)(الحجرات: من الآية٩)[3] ، (وَأُنْثَى)(الحجرات: من الآية١٣)[4].

قرأ حمزة والكسائي بالإمالة.

وقرأ ورش بالفتح والتقليل.

وقرأ أبو عمرو بالتقليل.

قوله – تعالى –: (الْأُخْرَى)(الحجرات: من الآية٩)[5] قرأ أبو عمرو بالإمالة وكذلك حمزة والكسائي.

وقرأ ورش بالتقليل.

قوله – تعالى –: (جَاءَكُمْ)(الحجرات: من الآية٦)[6] قرأ حمزة وابن ذكوان بالإمالة.

وقوله – تعالى –: (عَسَى)(الحجرات: من الآية١١)[7].

(أَتْقَاكُمْ)(الحجرات: من الآية١٣)[8]، (هَدَاكُمْ)(الحجرات: من الآية١٧)[1].

---

١ – انظر:الإرشادات الجليةص٤٣٩_٤٤٠.

٢ – انظر:الإرشادات الجليةص٤٣٩_٤٤٠.

٣ – انظر:الإرشادات الجليةص٤٣٩_٤٤٠.

٤ – انظر:الإرشادات الجليةص٤٣٩_٤٤٠.

٥ – انظر:الإرشادات الجليةص٤٣٩_٤٤٠.

٦ – انظر:الإرشادات الجليةص٤٣٩_٤٤٠.

٧ – انظر:الإرشادات الجليةص٤٣٩_٤٤٠.

٨ – انظر:الإرشادات الجليةص٤٣٩_٤٤٠.

قرأ حمزة والكسائي بالإمالة.

وقرأ ورش بالفتح والتقليل.

ثانيا:المدغم: [٢].

الصغير: قوله – تعالى –:) يَتُبْ فَأُولَئِكَ)(الحجرات: من الآية١١)[٣] بالإدغام لأبي عمر والكسائي.

وبالإظهار والإدغام لخلاد.

وبالإظهار للباقين.

الكبير: قوله – تعالى –: (الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ)(الحجرات: من الآية٧)[٤] وقوله: (بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ)(الحجرات: من الآية١١)[٥] وقوله: (يَأْكُلَ لَحْمَ)(الحجرات: من الآية١٢)[٦] وقوله: (وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)(الحجرات: من الآية١٣) بالإدغام للسوسي، وله الاختلاس في قوله: (الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ)(الحجرات: من الآية٧).

الوقف والابتداء

لأهمية الوقف والابتداء، ولأثره على فهم المعنى المراد، فكم وقف على غير مكان الوقف، أو ابتدئ فيما لا يبتدأ به، فقلب المعنى إلى ضده.

ولأن أكثر كتب التفسير لا تذكر الوقف والابتداء، من أجل ذلك كله بحثت عن كتاب جامع مختصر، مع الأصالة والدقة، فوقفت على كتاب الأشموني: " منار الهدى في بيان الوقف والابتداء".

وسأذكر ما في كتاب الأشموني مقارنا بما ذكره أبو يحيى: زكريا الأنصاري في كتابه: "المقتصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء".

وحسبك بهذين العلمين كفاية وعلما.

---

١ – انظر:الإرشادات الجليةص٤٣٩ــ٤٤٠.

٢ – الإرشادات الجلية ص ٤٣٩.

٣ – الإرشادات الجلية ص ٤٣٩.

٤ – الإرشادات الجلية ص ٤٣٩.

٥ – الإرشادات الجلية ص ٤٣٩.

٦ – الإرشادات الجلية ص ٤٣٩.

وسأجعل كلام الأشموني أصلا، والأنصاري سأذكر ما خالف فيه الأشموني، وما لم أذكره فإنه دليل الاتفاق بَيْنَهُمَا.

ولعل من المناسب أن أبين بعض أنواع الوقف، حتى يتضح المراد عند ذكر الوقوف في سورة الحجرات.

فالوقف ينقسم إلى اضطراري، واختباري، واختياري:

فالاضطراري: هو الذي يعرض للقارئ ضرورة لسبب من الأسباب كالعطاس، والنوم، والنسيان، وضيق النفس ونحو ذلك من الأسباب، فيقف مضطرا على الكلمة التي كان يتلوها حال حدوث السبب.

ثم يبتدئ القراءة عند زوال السبب من الكلمة التي وقف قبلها، إن كان يصلح الابتداء بها، أو من قبلها مما يصلح الابتداء به.

والاختباري: هو الذي يؤمر القارئ بالوقوف عليه، لبيان المقطوع، والموصول، والمجرور، والمربوط، والمحذوف، والثابت للاختبار.

أما الاختياري – وهو المعني هنا – فينقسم إلى:

تام، وكاف، وحسن، وقبيح.

فالوقف التام: هو الذي لم يتعلق ما بعده به لا معنى ولا لفظا، كالوقف على قوله – تعالى – في سورة البقرة: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(البقرة: من الآية٥) فالآية التي بعدها في وصف الكافرين، وغالبا ما يكون في رؤوس الآيات ونهاية القصص.

والوقف الكافي: هو ما يتعلق ما بعده به معنى لا لفظا، كالوقف على قوله – تعالى –: (أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)(يّـس: من الآية١٠) لأن الآية التي بعدها في وصف الكافرين، وهي متعلقة بها معنى لا لفظا، فيوقف عليها ويبتدأ بما بعدها.

الوقف الحسن: هو ما تعلق ما بعده به معنى ولفظا، فيحسن الوقف عليه، ولا يبتدأ بما بعده، لارتباط ما بعده به من ناحية المعنى والإعراب، كأن يكون في الجملة الثانية صفة لموصوف، أو مستثنى لمستثنى

منه، أو جواب لشرط أو لطلب، مثل قوله – تعالى –: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً)(النساء: من الآية٩٣) وكقوله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ)(الفاتحة: من الآية٢).

والوقف القبيح: هو أن يقف القارئ على كلمة مرتبطة ارتباطا وثيقا بما بعدها، بحيث لو ابتدأت بما بعده أفاد معنى فاسدا وغير مقصود كالوقف على قوله: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا)(المائدة: من الآية١٧).

وأقبح منه الابتداء بما بعده كأن يبتدأ بقوله: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)(المائدة: من الآية١٧) و(الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ)(التوبة: من الآية٣١) ونحوهما.

والآن نأتي إلى ما ورد في السورة من وقف وابتداء.

(وَرَسُولِهِ)(الحجرات: من الآية١) وعند الأنصاري كاف.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)(الحجرات: من الآية١) أحسن منه.

(عَلِيمٌ)(الحجرات: من الآية١) تام.

(فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)(الحجرات: من الآية٢) ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله، ومثله لعدم الوقف (لِبَعْضٍ)(الحجرات: من الآية٢) لأن قوله: (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)(الحجرات: من الآية٢) موضعه نصب مفعول به،أي لخشية حبوطها.

(لا تَشْعُرُونَ)(الحجرات: من الآية٢) تام.

(عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ)(الحجرات: من الآية٣) ليس بوقف؛ لأن خبر إن، لم يأت بعد.

(لِلتَّقْوَى)(الحجرات: من الآية٣) كاف.

(عَظِيمٌ)(الحجرات: من الآية٣) تام.

(لا يَعْقِلُونَ)(الحجرات: من الآية٤) كاف، قال الأنصاري: وكذا (خَيْراً لَهُمْ)(الحجرات: من الآية٥).

(حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ)(الحجرات: من الآية٥) ليس بوقف؛ لأن جواب لو، لم يأت بعد، وهو (لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ)(الحجرات: من الآية٥) وهو كاف.

(رَحِيمٌ)(الحجرات: من الآية٥) تام.

(فَتَبَيَّنُوا)(الحجرات: من الآية٦) ليس بوقف، لأن قوله: (أَنْ تُصِيبُوا)(الحجرات: من الآية٦) موضعه نصب بما قبله، ومثله في عدم الوقف (بِجَهَالَةٍ)(الحجرات: من الآية٦).

لأن (فَتُصْبِحُوا)(الحجرات: من الآية٦) موضعه نصب بالعطف على (أَنْ تُصِيبُوا)(الحجرات: من الآية٦).

(نَادِمِينَ)(الحجرات: من الآية٦) حسن.

(لَعَنِتُّمْ)(الحجرات: من الآية٧) وصله أولي لأداة الاستدراك بعده، قال الأنصاري: (لَعَنِتُّمْ)(الحجرات: من الآية٧) صالح.

(فِي قُلُوبِكُمْ)(الحجرات: من الآية٧) حسن.

(وَالْعِصْيَانَ)(الحجرات: من الآية٧) كاف.

(الرَّاشِدُونَ)(الحجرات: من الآية٧) حسن، إن نصب (فَضْلاً)(الحجرات: من الآية٨) بفعل مقدر تقديره:فعل الله بكم هذا فَضْلا وَنِعْمَةً، وليس بوقف إن نصب (فَضْلاً)(الحجرات: من الآية٨) مفعولا من أجله، والعامل فيه (حَبَّبَ)(الحجرات: من الآية٧) وعليه: فلا يوقف على شيء من (حَبَّبَ)(الحجرات: من الآية٧) إلى هذا الموضع، وربما جاز مع اختلاف الفاعل، لأن فاعل الرشد غير فاعل الفضل.

(وَنِعْمَةً)(الحجرات: من الآية٨) كاف.

(حَكِيمٌ)(الحجرات: من الآية٨) تام.

(بَيْنَهُمَا)(الحجرات: من الآية٩) كاف، ومثله (إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)(الحجرات: من الآية٩) قال الأنصاري: صالح.

(بِالْعَدْلِ)(الحجرات: من الآية٩) حسن، قال الأنصاري: كاف، ولك الوقف على (وَأَقْسِطُوا)(الحجرات: من الآية٩).

(وَأَقْسِطُوا)(الحجرات: من الآية٩) أحسن مما قبله.

(الْمُقْسِطِينَ)(الحجرات: من الآية٩) تام.

(بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)(الحجرات: من الآية١٠) كاف.

(تُرْحَمُونَ)(الحجرات: من الآية١٠) تام.

(عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ)(الحجرات: من الآية١١) ليس بوقف، لأن قوله: (وَلا نِسَاءٌ)(الحجرات: من الآية١١) مرفوع بالعطف على (قَوْمٌ)(الحجرات: من الآية١١) كأنه قال: ولا يسخر نساء من نساء، وهو من باب عطف المفردات.

(خَيْراً مِنْهُنَّ)(الحجرات: من الآية١١) حسن، قال الأنصاري: كاف.

قال الأشموني: ومثله (أَنْفُسَكُمْ)(الحجرات: من الآية١١)، وكذا (بِالْأَلْقَابِ)(الحجرات: من الآية١١)، (بَعْدَ الْأِيمَانِ)(الحجرات: من الآية١١) كاف عند أبي حاتم للابتداء، وقال الأنصاري: حسن.

(الظَّالِمُونَ)(الحجرات: من الآية١١) تام.

(مِنَ الظَّنِّ)(الحجرات: من الآية١٢) حسن، قال الأنصاري: صالح.

(إِثْمٌ)(الحجرات: من الآية١٢) أحسن مما قبله، قال الأنصاري: كاف.

(وَلا تَجَسَّسُوا)(الحجرات: من الآية١٢) كاف.

(بَعْضاً)(الحجرات: من الآية١٢) تام،على استئناف الاستفهام،وليس بوقف إن جعل ما بعده متصلا بما قبله ومتعلقا به.

(فَكَرِهْتُمُوهُ)(الحجرات: من الآية١٢) حسن.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)(الحجرات: من الآية١٢) كاف، وقال الأنصاري: صالح.

(رَحِيمٌ)(الحجرات: من الآية١٢) تام.

(وَأُنْثَى)(الحجرات: من الآية١٣) جائز.

(لِتَعَارَفُوا)(الحجرات: من الآية١٣) كاف، ومثله (أَتْقَاكُمْ)(الحجرات: من الآية١٣) وقال الأنصاري: (لِتَعَارَفُوا)(الحجرات: من الآية١٣) تام، و(أَتْقَاكُمْ)(الحجرات: من الآية١٣) حسن.

(خَبِيرٌ)(الحجرات: من الآية١٣) تام.

(آمَنَّا)(الحجرات: من الآية١٤) حسن.

(أَسْلَمْنَا)(الحجرات: من الآية١٤) أحسن مما قبله.

(فِي قُلُوبِكُمْ)(الحجرات: من الآية١٤) كاف عند أبي حاتم للابتداء بالشرط، ومثله (شَيْئاً)(الحجرات: من الآية١٤).

(رَحِيمٌ)(الحجرات: من الآية١٤) تام.

(ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)(الحجرات: من الآية١٥) حسن.

(فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (الحجرات: من الآية١٥) جائز، وقال الأنصاري: صالح، والمعنى واحد.

(الصَّادِقُونَ) (الحجرات: من الآية١٥) تام، إن جعل الذين خبر (الْمُؤْمِنُونَ) (الحجرات: من الآية١٥) فإن جعل نعتا لم يوقف على شيء إلى (الصَّادِقُونَ) (الحجرات: من الآية١٥) لأن (أُولَئِكَ) (الحجرات: من الآية١٥) يكون خبر (الْمُؤْمِنُونَ) (الحجرات: من الآية١٥).

(بِدِينِكُمْ) (الحجرات: من الآية١٦) حسن.

(وَمَا فِي الْأَرْضِ) (الحجرات: من الآية١٦) كاف.

(عَلِيمٌ) (الحجرات: من الآية١٦) تام، على استئناف ما بعده، وجائز إن جعل متصلا بما قبله.

(أَنْ أَسْلَمُوا) (الحجرات: من الآية١٧) كاف، ومثله (إِسْلامَكُمْ) (الحجرات: من الآية١٧).

(لِلْإِيمَانِ) (الحجرات: من الآية١٧) ليس لوقف، لأن الشرط الذي بعده جوابه ما قبله.

(صَادِقِينَ) (الحجرات: من الآية١٧) تام.

(وَالْأَرْضِ) (الحجرات: من الآية١٨) كاف.

آخر السورة: تام [١] والله أعلم.

اللغة والإعراب

سأقف مع بعض الكلمات، التي وردت في السورة مبينا معناها، ومع بعض الجمل موضحا موقعها من الإعراب، مع الالتزام بالمنهج الذي أشرت إليه سابقا.

---

١ – انظر:منار الهدى للأشموني ص ٣٦٦ سورة الحجرات،والمقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، لزكريا الأنصاري على حاشية منار الهدى ص ٣٦٦.

قوله – تعالى –: (لا تُقَدِّمُوا) (سورة الحجرات، الآية:١) ([1]) أي: لا تتقدموا، والتقدم قد يكون حسيا، وقد يكون معنويا.

وقال أبو عبيدة: تقول العرب: فلان يقدم بين يدي الإمام وبين يدي أبيه: يعجل بالأمر والنهي دونه[2].

وقال أبو حيان: كانت عادة العرب الاشتراك في الآراء، وأن يتكلم كل بما شاء، ويفعل ما أحب فجرى من بعض من لم يتمرن على آداب الشريعة بعض ذلك.

قال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه، وتقول العرب: تقدمت في كذا وكذا، وقدمت فيه إذا قلت فيه [3].

قوله – تعالى –: (لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) (الحجرات: من الآية٢) قال الزجاج:أمرهم الله ﷻ أن يخاطبوه بالسكينة والوقار، وأن يفضلوه في المخاطبة، وذلك مما كانوا يفعلونه في تعظيم ساداهم وكبرائهم[4].

قوله – تعالى –: (كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) (الحجرات: من الآية٢) الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، تقديره: جهرا كجهر.

قوله – تعالى –: (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ) (الحجرات: من الآية٢) أن في موضع نصب على حذف الجار تقديره، لأن تحبط، مثل: (رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ) (يونس: من الآية٨٨) ومعناه: لا تفعلوا ذلك فتحبط أعمالكم، والمعنى لئلا تحبط أعمالكم،فالمعنى معنى اللام في إن، وهذه اللام لام الصيرورة، وهي كاللام في قوله: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً) (القصص: من الآية٨) والمعنى فالتقطه آل

---

١ – انظر:منار الهدى للأشموني ص ٣٦٦ سورة الحجرات،والمقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، لزكريا الأنصاري على حاشية منار الهدى ص ٣٦٦.

٢ – انظر:مجاز القرآن٢-٢١٩.

٣ – انظر:البحرالمحيط ٨-١٠٥.

٤ – نظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢-٣٢.

فرعون ليصير أمرهم إلى ذلك، لا أنهم قصدوا أن يصير إلى ذلك، وكذلك: (لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) (الحجرات: من الآية٢) فيكون ذلك سببا لأن تحبط أعمالكم [١].

وقال الطبري: (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ) (الحجرات: من الآية٢) يقول: ألا تحبط أعمالكم فتذهب باطلة لا ثواب لكم عليها، ولا جزاء برفعكم أصواتكم فوق صوت نبيكم، وجهركم له بالقول كجهر بعضكم لبعض.

وقد اختلف أهل العربية في معنى ذلك، فقال بعض نحويي الكوفة: معناه: لا تحبط أعمالكم، قال: وفيه الجزم والرفع إذا وضعت "لا" مكان "إن" قال: وهي قراءة عبد الله (فَتَحْبطْ أَعَمَالُكُمْ) ([٢]) وهو دليل على جواز الجزم.

وقال بعض نحويي البصرة: قال: (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ) (الحجرات: من الآية٢) أي مخافة أن تحبط أعمالكم، وقد يقال: أسند الحائط أن يميل [٣].

قوله – تعالى –: (وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (الحجرات: من الآية٢) ([٤]) يقول: وأنتم لا تعملون ولاتدرون.

قوله – تعالى –: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ) (الحجرات: من الآية٣) الغض هو: خفض الصوت، حيث آلى أبو بكر على نفسه أن يكلمه كأخي السرار. وخبر "إن" (أُولَئِكَ الَّذِينَ) (الحجرات: من الآية٣) وقيل هو نعت للذين، والخبر: (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) (الحجرات: من الآية٣) وهو ابتداء وخبر في موضع خبر "إن" [٥].

قوله – تعالى –: (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى) (الحجرات: من الآية٣) أي:أخلص قلوبهم، و"هم" يخرج على تفسير حقيقة اللغة، والمعنى: اختبر الله قلوبهم فوجدهم مخلصين، كما تقول:

١ – انظر:مشكل إعراب القرآن لمكي ٢–٣١٥ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢–٣٢.

٢ – سورة الحجرات آية: ٢.

٣ – نظر: تفسير الطبري ٢٦–٢٢٠.

٤ – نظر: تفسير الطبري ٢٦–٢٢٠.

٥ – انظر: مشكل إعراب القرآن ٢–٣١٥.

قد امتحنت هذا الذهب وهذه الفضة، تأويله: قد اختبرتهما بأن أذبتهما حتى خلصتُ الذهب والفضة، فعلمت حقيقة كل واحد منهما.

وقال أبو حيان: (امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى) (الحجرات: من الآية٣) أي جُرِّبت ودُرِّبت لِلتَّقْوَى، فهي مضطلعة بها [١].

أو المراد: أخلصها لِلتَّقْوَى، أي جعلها خالصة لأجل التقوى، أو أخلصها لها، فلم يبق لغير التقوى فيها حق، كأن القلوب خلصت ملكا لِلتَّقْوَى، وهذا أبلغ، وهو استعارة من امتحان الذهب وإذابته ليخلص إبريزه من خبثه فينقى [٢].

قوله - تعالى -: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ) (الحجرات: من الآية٤) خبر "إن" (أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (الحجرات: من الآية٤) وهو ابتداء وخبر في موضع خبر "إن": ويجوز في الكلام نصب "أكثرهم" على البدل من "الذين" وهو بدل الشيء من الشيء، والثاني بعضه.

قال الفراء: وجه الكلام أن تضم الحاء والجيم من "الحجرات" وبعض العرب يقول: الحجرات - بفتح الجيم - وكل جمع، كأن يقال في ثلاثة إلى عشرة غرف وحجر،فإذا جمعته بالتاء نصبت ثانية، فالرفع أجود من ذلك.

قال الزجاج: ويجوز في اللغة: الحجرات - بتسكين الجيم - ولا أعلم أحدا قرأ بالتسكين.

وواحد الحجرات حجرة، ويجوز أن تكون الحجرات جمع حجر وحجرات، والأجود أن تكون الحجرات جمع حجرة.

والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وحظيرة الإبل تسمى حجرة، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، كالغرفة والقبضة [٣].

قال الزمخشري: والمراد حجرات نساء النبي ﷺ وكانت لكل واحدة منهن حجرة.

---

١ - انظر: البحر المحيط ٨-١٠٦، ومعاني القرآن للزجاج ٢-٣٢، ومعاني القرآن للفراء ٣-٧٠.

٢ - انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦-١٣٨.

٣ - انظر: معاني القرآن للزجاج ٢-٣٣ معاني القرآن للفراء ٣-٧٠، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢-٣١٥، والبحر المحيط ٨-١٠٨.

ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا على الحجرات، متطلبين له، فناداه بعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة، فنادوه من ورائها، أو أنهم ناده من وراء الحجرة التي كان فيها، ولكنها جمعت إجلالا لرسول الله ﷺ ولمكان حرمته.

والفعل – وإن كان مسندا إلى جميعهم – فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقون راضين، فكأنهم تولوه جميعا[1].

قوله – تعالى –: (أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (الحجرات: من الآية٤) ([2] قال أبو حيان: انتفاء العقل عن أكثرهم دليل على أن فيهم عقلاء، وليس كما ذكر الزمخشري من احتمال نفي العقل عنهم جميعا، حيث قال: ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصدا إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل، فإن القلة تقع موقع النفي في كلامهم.

قال أبو حيان في رده عليه: وليس في الآية الحكم بقلة العقل منطوقا به فيحتمل النفي، وإنما هو مفهوم من قوله: (أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) ([3] والنفي المحض المستفاد إنما هو من صريح لفظ التقليل لا من المفهوم، فلا يحمل قوله: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) (البقرة: من الآية٢٤٣) النفي المحض للشكر، لأن النفي لم يستفد من صريح التقليل [4].

قوله – تعالى –: (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ) (الحجرات: من الآية٥).

قال الزمخشري: (أَنَّهُمْ صَبَرُوا) (الحجرات: من الآية٥) في موضع الرفع على الفاعلية، لأن المعنى: لو ثبت صبرهم.

قال أبو حيان معقبا على كلام الزمخشري: وهذا ليس مذهب سيبويه، لأن "أن" وما بعدها بعد "لو" في موضع مبتدأ لا في موضع فاعل، ومذهب المبرد أنها في موضع فاعل بفعل محذوف كما زعم

---

١ – انظر:الكشاف ٣–٥٥٨، وتفسير القاسمي ١٥–١١٢.

٢ – انظر:الكشاف ٣–٥٥٨، وتفسير القاسمي ١٥–١١٢.

٣ – انظر:الكشاف ٣–٥٥٨، وتفسير القاسمي ١٥–١١٢.

٤ – انظر: البحر المحيط ٨–١٠٨، والكشاف ٣–٥٥٨.

الزمخشري، واسم كان ضمير يعود على المصدر المفهوم من صبروا، أي: لكان هو، أي صبرهم خيرا لهم[1].

قوله: (لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ) (الحجرات: من الآية٥) قال الزمخشري: في كان إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد "لو" وإما ضمير مصدر "صبروا" كقولهم: من كذب كان شرا له [2].

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) (الحجرات: من الآية٦) الفسق:هو الخروج [3] عن الطاعة إلى المعصية بما لا يصل إلى الكفر، وقد يطلق الفسق ويراد به الكفر، ولكنه ليس مرادا هنا.

والتبين: طلب البيان والتعرف حتى يتضح الحال.

والتثبت: هو طلب الثبات والتأني حتى يتضح الحال.

والنبأ: الخبر، وقال الراغب: لا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة، يحصل به علم أو غلبة ظن.

وتنكير "فاسق" و"نبأ" للتعميم، لأنه نكرة في سياق الشرط، وهي كالنكرة في سياق النفي تفيد العموم، كما هو مقرر [4].

قوله: (أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً) (الحجرات: من الآية٦) أن في موضع نصب لأنه مفعول من أجله، و (فَتُصْبِحُوا) (الحجرات: من الآية٦) عطف عليه.

قوله: (فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (الحجرات: من الآية٦) الندم: ضرب من الغم، وهو أن تغتم على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام [5].

١ – انظر:البحر المحيط ٨–١٠٩، والكشاف ٣–٥٥٩.

٢ – الكشاف ٣–٥٥٩.

٣ – قال النسفي: الفسوق الخروج من الشيء، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها، ومن مقلوبه:فقست البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها، ثم استعمل في الخروج عن القصد بركوب.انظر تفسير النسفي ٤–١٦٣.

٤ – انظر روح المعاني ٢٦–١٤٥.

٥ – انظر: تفسير النسفي ٤–٢٦٣.

قوله – تعالى –: (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ) (الحجرات: من الآية٧) العنت: هو المشقة والجهد. (لَعَنِتُّمْ) (الحجرات: من الآية٧) أي: لشق عليكم، وقال مقاتل: لأثمتم.

والجملة المصدرة بلو لا تكون كلاما مستأنفا، لأدائه إلى تنافر النظم، ولكن متصلا بما قبله حالا من أحد الضميرين في (فِيكُمْ) (الحجرات: من الآية٧) المستتر المرفوع أو الجار والمجرور، وكلاهما مذهب سيبويه [١].

قوله: (وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات: من الآية٧) أي حسنه في قلوبكم فآمنتم.

قوله: (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) (الحجرات: من الآية٧) الفسوق: قال الطبري:الكذب، وَالْعِصْيَانَ قال: يعني ركوب ما نهى الله في خلاف أمر رسوله، ﷺ وتضييع ما أمر الله به.

قوله: (أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) (الحجرات: من الآية٧).

السالكون طريق الحق [٢].

قوله – تعالى –: (فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً) (الحجرات: من الآية٨) "فضلا" و"نعمة" منصوب مفعول له، المعنى: فعل الله ذلك بكم فَضْلا من الله وَنِعْمَةً، أي: للفضل والنعمة.

قول الزجاج: ولو كان في غير القرآن لجاز: فضل – بالرفع – من الله وَنِعْمَةً، المعنى: ذلك فضل من الله وَنِعْمَة [٣].

قوله – تعالى –: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) (الحجرات: من الآية٩).

الطائفة: هي الجماعة من الناس، وتطلق على غير الناس.

وقال ابن العربي: الطائفة: كلمة تطلق في اللغة على الواحد من العدد، وعلى ما لا يحصره عدد[١].

وارتفع (طَائِفَتَانِ)[٢] بإضمار فعل، والتقدير: وإن اقتتل طائفتان، أو إن كان طائفتان، لأن إن للشرط،

---

١ – انظر:البحر المحيط ٨–١١٠.

٢ – انظر:تفسير الطبري ٢٦–١٢٦.

٣ – انظر: معاني القرآن للزجاج ٢–٣٥، والبحر المحيط ٨–١١٠.

والشرط لا يكون إلا بفعل، فلم يكن بد من إضمار فعل، وهو مثل: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (التوبة: من الآية٦) ولا يجوز حذف الفعل من شيء مع حروف الشرط العاملة إلا مع " إن" وحدها، وذلك لقوتها، وأنها أصل حروف الشرط [٣].

(اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) (الحجرات: من الآية٩) العدول إلى ضمير الجمع - بدل التثنية - لرعاية المعنى، فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة، فقد روعي في الطائفتين معناهما أولا ولفظهما ثانيا، على عكس المشهور في الاستعمال.

ومما قيل في ذلك: أنهم - أولا - في حال الاقتتال مختلطون؛ فلذا جمع أولا ضميرهم، وفي حال الصلح متميزون متفارقون؛ فلذا ثني الضمير [٤] .

قوله - تعالى -: (فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ) (الحجرات: من الآية٩).

فإن بغت: تعدت وطلبت العلو بغير حق، والبغي هو الاستطالة والظلم ورفض الصلح.

تفيء: ترجع، والفيء الرجوع، وقد سمي به الظل والغنيمة لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة ما يرجع من أموال الكفار.

قوله - تعالى -: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا) (الحجرات: من الآية٩).

العدل: الإنصاف.

وأقسطوا: اعدلوا، والقسط، يستعمل في الجور وفي العدل [٥].

---

١ - انظر أحكام القرآن لابن العربي ٤-١٧١٧.

٢ - انظر أحكام القرآن لابن العربي ٤-١٧١٧.

٣ - انظر:مشكل إعراب القرآن ٢-١٤٩.

٤ - انظر: روح المعاني ٢٦-١٤٩.

٥ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٢٣.

قوله – تعالى –: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات: من الآية١٠) مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح، و"ما" كافة تكف "إن" عن العمل، ولولا ذلك لقيل: إنما المؤمنين إخوة: بنصب المؤمنين [١].

قال الشهاب: وتسمية المشاركة في الإيمان أخوة، تشبيه بليغ، أو استعارة، شبه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد، لأن كلا منهما أصل للبقاء، إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان [٢].

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) (الحجرات: من الآية١٠) وضع الظاهر موضع المضمر مضافا إلى المأمورين، للمبالغة في التقرير والتخصيص، وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع، لأن أقل ما يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل، كانت بين الأكثر ألزم [٣].

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ) (الحجرات: من الآية١١).

السخرية: الاستهزاء، وحكى أبو زيد، سخرت به، وضحكت به، وهزأت به.

وقال الأخفش: سخرت منه، وسخرت به، وضحكت منه، وضحكت به.

والاسم: السخرية والسخرى.

قال المراغي: السخرية الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه [٤].

قوله – تعالى –: (وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) (الحجرات: من الآية١١).

اللمز: العيب، ويكون بالقول وبالإشارة باليد أو العين.

قوله – تعالى –: (وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ) (الحجرات: من الآية١١).

التنابز: التعيير، أي لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب يكره أن يقال فيه [٥].

---

١ – انظر: تفسير الرازي ٢٧–١٣٠.

٢ – انظر: تفسير القاسمي١٥–١٢٣.

٣ – انظر: الكشاف ٣–٥٦٥، وتفسير القاسمي ١٥–١٢٤.

٤ – انظر: فتح القدير للشوكاني ٥–٦٤، وتفسير المراغي ٢٥–١٣٣.

٥ – انظر:تفسير السعدي ٧–١٣٦، وتفسير المراغي٢٥–١٣٣.

قال في البحر: التنابز بالألقاب: التداعي بها، تفاعل من نبزه، وبنو فلان يتنابزون، والنبز: لقب سوء، واللقب ما يدعى به الشخص من لفظ غير اسمه وغير كنيته، وهو قسمان: قبيح، وهو ما يكرهه الشخص؛ لكونه تقصيرا به وذما له. وحسن، وهو بخلاف ذلك، كالصديق لأبي بكر، والفاروق لعمر[1].

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ) (الحجرات: من الآية١٢).

الظن: هو الأمر بين الشك واليقين، يبنى لا على قرينة ولا دليل، وقد يبنى على قرينة ضعيفة، أو ما يتوهم أنه دليل وليس كذلك.

قال الشوكاني: الظن هنا: هو مجرد التهمة التي لا سبب لها[2].

قال ابن العربي: حقيقة الظن، قال علماؤنا: إن حقيقة الظن، تجويز أمرين في النفس لأحدهما ترجيح على الآخر، والشك: عبارة عن استوائهما، والعلم: هو حذف أحدهما وتعيين الآخر[3].

قوله: (وَلا تَجَسَّسُوا) (الحجرات: من الآية١٢).

التجسس: هو تتبع عورات المسلمين وإفشاؤها.

قال الأخفش: التجسس – بالجيم – البحث عما يكتم عنك، والتحسس – بالحاء –: طلب الأخبار والبحث عنها.

وقال ثعلب: بالحاء: فيما يطلبه الإنسان لنفسه، وبالجيم: أن يكون رسولا لغيره [4]. . . .

قوله – تعالى –: (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً) (الحجرات: من الآية١٢).

الغيبة: أن تذكر الرجل بما يكرهه.

قوله: (مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ) (الحجرات: من الآية١٢) انتصب مَيْتًا على الحال من لحم.

---

١ – انظر:البحر المحيط ٨–١٠٤.

٢ – فتح القدير ٥–٦٤.

٣ – انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤–١٧٢٤.

٤ – انظر:فتح القدير ٥–٦٥.

الفاء في قوله: (فَكَرِهْتُمُوهُ) (الحجرات: من الآية١٢) تقتضي وجود تعلق، فما ذلك؟ قال الرازي: نقول فيه وجوه:

أحدها: أن يكون ذلك تقدير جواب كلام، كأنه – تعالى – لما قال: (أَيُحِبُّ) (الحجرات: من الآية١٢) قيل في جوابه ذلك.

وثانيها: أن يكون الاستفهام في قوله: (أَيُحِبُّ) (الحجرات: من الآية١٢) للإنكار، كأنه قال: لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ إذاً، ولا يحتاج إلى إضمار.

وثالثها: أن يكون ذلك التعلق هو تعلق المسبب بالسبب، وترتبه عليه كما تقول: جاء فلان ماشيا فتعب، لأن المشي يورث التعب فكذا قوله (مَيْتاً) (الحجرات: من الآية١٢) لأن الموت يورث النفرة، فكيف يقربه ليأكل منه، ففيه إذاً كراهة شديدة [١].

قوله – تعالى –: (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (الحجرات: من الآية١٣).

الشعب: قال أبو حيان: الشعب: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة.

فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل.

مثال: خزيمة: شعب، وكنانة: قبيلة، وقريش: عمارة، وقصي: بطن، وهاشم: فخذ، والعباس: فصيلة.

وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها.

قال الشاعر معبرا عن هذا المعنى [٢] :

---

١ – انظر: تفسير الرازي ٢٧–١٣٥.

٢ – انظر: تفسير القاسمي ١٥–١٣٦.

اقصد الشعب فهو أكثر حي عددا في الحواء ثم القبيلة

ثم يتلوهما العمارة ثم الـــ بطن والفخذ بعدها والفصيلة

ثم بعدها العشيرة لكن هي في جنب ما ذكرنا قليلة

وقد قيل: الشعوب في العجم والقبائل في العرب، والأسباط في بني إسرائيل، وهذا القول وأمثاله تحكم لا دليل عليه.

وسموا شعوبا: لتشعبهم واجتماعهم، والشعب من أسماء الأضداد [1]

قوله – تعالى –: (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) (الحجرات: من الآية١٤) قال مكي: إنما أتت "لم" و لم تأت "لن" لأنه نفي لماض، و"لن" إنما هي نفي لمستقبل، فالقوم إنما أخبروا عن أنفسهم بإيمان قد مضى، فنفى الله – تعالى – قولهم بـــ: "لم" ولو أخبروا عن أنفسهم بإيمان سيكون لكان النفي بـــ "لن"، ألا ترى إلى قوله: (فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ) (التوبة: من الآية٨٣) فقال: (فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً) (التوبة: من الآية٨٣) لأنهم إنما قالوا: نخرج معك يا محمد، مستأذنين في خروج مؤتنف، فلذلك نفى بـــ "لن" و لم ينف بـــ "لم" [2].

قوله (لا يَلِتْكُمْ) (الحجرات: من الآية١٤) [3] أي: لا ينقصكم، يقال: لات يلت إذا نقص، ولاته يليته ويلوته إذا نقصه [4].

قوله: (ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) (الحجرات: من الآية١٥) الريب: هو الشك، وهو ضد اليقين.

قال أبو حيان: ثم تقتضي التراخي، وانتفاء الريبة يجب أن يقارن الإيمان، فقيل من ترتيب الكلام لا من ترتيب الزمان، أي: ثم أقول لم يرتابوا. وقيل: قد يخلص الإيمان ثم يعترضه ما يثلم إخلاصه فنفى ذلك فحصل التراخي [5].

---

١ – انظر: البحر المحيط ٨-١٠٤، ١٦٦، وفتح القدير ٥-٦٧، وهذا القول للزبير بن بكار كما قال الشيخ ابن بري، انظر تفسير القاسمي ١٥-١٣٦.

٢ – انظر: مشكل إعراب القرآن ٢-٣١٦.

٣ – انظر: مشكل إعراب القرآن ٢-٣١٦.

٤ – انظر: فتح القدير ٥-٦٨.

٥ – انظر: البحر المحيط ٨-١١٧.

أو أريد انتفاء الريبة في الأزمان المتراخية المتطاولة، فحاله في ذلك كحاله في الزمان الأول الذي آمن فيه [1]

قوله – تعالى –: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ) (الحجرات: من الآية١٧).

المن: هو ذكر المعروف والإحسان.

(أَنْ أَسْلَمُوا) (الحجرات: من الآية١٧) في موضع المفعول، ولذلك تعدى إليه في قوله: (قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ) (الحجرات: من الآية١٧).

ويجوز أن يكون (أَسْلَمُوا) (الحجرات: من الآية١٧) مفعول من أجله، أي: يتفضلون عليك بإسلامهم.

قوله: (أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ) (الحجرات: من الآية١٧) إعرابها مثل (أَنْ أَسْلَمُوا) (الحجرات: من الآية١٧) فإن فيها الوجهين [2].

---

١ – انظر: البحر المحيط ٨-١١٧.

٢ – انظر: البحر المحيط ٨-١١٧، وفتح القدير ٥-٦٩.

خامساً: وقفات بلاغية

ورد في هذه السورة من أنواع البلاغة ما يحسن الوقوف عند بعضه تجلية للفظ وإيضاحا للمعنى، وقد ذكرت بعض الأوجه البلاغية فيما مضى وأذكر ما لم أذكره هناك:

١- قوله – تعالى –: (لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) (الحجرات: من الآية١).

قال القاسمي: في الآية تجوزان:

أحدهما [١] في "بين اليدين" فإن حقيقته ما بين العضوين، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال، قريبا منه بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما، فهو من المجاز المرسل.

ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء، ومتابعة لمن يلزم متابعته، تصويرا لهجنته وشناعته، بصورة المحسوس كتقدم الخادم بين يدي سيده في مسيره، فنقلت العبارة الأولى بما فيها من المجاز إلى ما ذكر، على ما عرف في أمثاله [٢]

٢- قال الزمخشري: ورود الآية على النمط الذي وردت عليه، فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله:

منها: مجيئها على النظم المسجل به، بالسفه، والجهل لما أقدموا عليه.

ومنها: لفظ "الحجرات" وإيقاعها، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه.

ومنها: المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم.

ومنها: التعريف باللام دون الإضافة [٣].

٣- في قوله: (فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (الحجرات: من الآية٦) فائدتان:

إحداهما: تقرير التحذير وتأكيده، ووجهه أنه – تعالى – لما قال: (أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ) (الحجرات: من الآية٦) قال بعده، وليس ذلك مما لا يلتفت إليه، ولا يجوز للعاقل أن يقول: هب أني أصبت قوما، فماذا علي؟

---

١ – لم يذكر إلا الأول.

٢ – انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٠٦، والكشاف ٣-٥٥٢.

٣ – انظر: الكشاف ٣-٥٥٨، وتفسير القاسيم ١٥-١١٢.

بل عليكم منه الهم الدائم، والحزن المقيم، ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه.

والثانية: مدح المؤمنين، أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يتلفتون إليها، بل تصبحون نَادِمِينَ عليها [1].

٤- قال أبو السعود في قوله - تعالى -: (لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ) (الحجرات: من الآية١١) القوم مختص بالرجال لأنهم القوام على النساء، وهو في الأصل إما جمع قائم، كصوم وزور في جمع صائم وزائر، أو مصدر نعت به فشاع في الجمع.

وأما تعميمه للفريقين في مثل قوم عاد وقوم فرعون، فإما للتغليب، أو لأنهن توابع.

واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية في المجامع.

والتنكير: إما للتعميم، أو للقصد إلى نهي بعضهم عن سخرية بعض، لما أنها يجري بين بعض وبعض [2].

٥- قوله: (وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) (الحجرات: من الآية١١).

قال الشهاب:

و(أَنْفُسَكُمْ) (الحجرات: من الآية١١) على ظاهره، والتجوز في قوله: (تَلْمِزُوا) (الحجرات: من الآية١١) فهو مجاز ذكر فيه المسبب، وأريد السبب، والمراد: لا ترتكبوا أمرا تعابون به. قال القاسمي: وضعف بأنه بعيد عن السياق، وغير مناسب لقوله: (وَلا تَنَابَزُوا) (الحجرات: من الآية١١) وكونه من التجوز في الإسناد، إذا أسند فيه ما للمسبب إلى السبب، تكلف ظاهر، وكذا كونه كالتعليل للنهي السابق لا يدفع كونه مخالفا للظاهر.

وكذا كون المراد به لا تتسببوا في الطعن فيكم، بالطعن على غيركم كما في الحديث: "من الكبائر أن يشتم الرجل والديه" [3]. إذا فسر بأنه إذا شتم والدي غيره، شتم الغير والديه - أيضا - [4].

---

١ - انظر: تفسير الرازي ٢٧-١٢١، وتفسير القاسمي ١٥-١١٧.

٢ - انظر: تفسير أبي السعود ٥-١٧٧، وتفسير القاسمي ١٥-١٢٧.

٣ - أخرجه مسلم (١-٩٢) رقم (٩٠).

٤ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٢٨.

٦- قوله - تعالى -: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً) (الحجرات: من الآية١٢) [١] قال ابن الأثير في (المثل السائر) في بحث الكناية: فمن ذلك قوله - تعالى -: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ) [٢] فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله كلحم الأخ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله مَيْتًا، ثم جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة.

فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له، مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله.

فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس، وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة.

وأما جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها، آمران بتركها، والبعد عنها، ولما كانت كذلك كانت بمنــزلة لحم الأخ في كراهته.

ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر، إلا أنه لا يكون في مثل كراهة لحم أخيه، فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة.

وأما [٣] جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فلما جُبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة، والشهوة لها، مع العلم بقبحها.

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبها، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من الدلالات الأربع التي أشرنا إليها، وجدتها مناسبة لما قصدت له [٤].

قوله - تعالى -: (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: من الآية١٣).

ما الحكمة في اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر ؟

---

١ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٢٨.

٢ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٢٨.

٣ - يبدو أنه سقط من الطباعة ما يتعلق بالكناية عن لحم الميت، ولكنه واضح مما قبله وبعده.

٤ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٣٤.

و لم يذكر المال.

قال الرازي: نقول: الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة، لكن النسب أعلاها، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به - وقد يفتقر الغني فيبطل افتخاره - والحسن والسن، وذلك غير ثابت ولا دائم، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له، فاختاره الله للذكر، وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى، ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الأولى، لأنه إذا سقط اعتبار الأعلى فسقوط اعتبار الأدنى أولى وهذا فيه من البلاغة ما فيه [1].

قوله - تعالى -: (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) (الحجرات: من الآية١٤) قيل: مقتضى الظاهر أن يقول: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا، أو: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم، فعدل عنه إلى هذا النظم احترازا من النهي عن القول بالإيمان، والجزم بإسلامهم، وقد فقد شرط اعتباره شرعا.

وقيل: إنه من الاحتباك+، وأصله: لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا، ولكن أسلمتم، فقولوا: أسلمنا، فحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر.

والأول أبلغ، لأنهم ادعوا الإيمان فنفاه عنهم، ثم استدرك عليه فقال: دعوا ادعاء الإيمان، وادعوا الإسلام، فإنه الذي ينبغي أن يصدر عنكم على ما فيه، فنفى الإيمان، وأثبت لهم قول الإسلام، دون الاتصاف به [2] وهو أبلغ مما ذكر من الاحتباك، مع سلامته من الحذف بلا قرينة [3].

١ - انظر: تفسير الرازي ٢٧-١٣٧.

٢ - القول بأنهم لم يتصفوا به فيه نظر، فما دام قال لهم قولوا أسلمنا، فقد أثبته لهم، لكنه ليس هو الإيمان.

٣ - ذكره القاسمي في تفسيره ١٥-١٤٠، وقال: هذا ما في القاضي وحواشيه.

سادساً: ما ورد في السورة من أحكام

ورد في السورة بعض الأحكام الشرعية، وقد اختلف منهج المفسرين الذين تناولوا الأحكام التي وردت في هذه السورة، فمنهم من تناول الأحكام بتوسع، حتى جاء ببعض الأحكام التي لم ترد في السورة، وآخرون اقتصروا على ما ورد فيها مع الاختصار في عرضها وبيانها.

وانسجاما مع المنهج الذي ذكرته في المقدمة، فسأذكر أهم الأحكام التي وردت في السورة، أو تمت الإشارة إلى أصل موضوعها.

مع أن ما سأذكره لا يغني عن الرجوع إلى كتب الأحكام لمن أراد مزيدا من التوسع والتفصيل.

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الحجرات:١) .

١- قال ابن العربي: هذه الآية أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ وإيجاب اتباعه، والاقتداء به، ولذلك قال النبي ﷺ في مرضه: "مروا أبا بكر فليصل بالناس" فقالت عائشة لحفصة: قولي له: إن أبا بكر رجل أسيف [١] وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس من البكاء، فمر عليا – وفي مسلم فمر عمر – فليصل بالناس، فقال النبي ﷺ "إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس" [٢]. قال ابن العربي: يعني بقوله: صواحب يوسف: الفتنة، بالرد عن الجائز إلى غير الجائز [٣].

٢- وجوب تقوى الله في السر والعلن [٤] وأمر بالتقوى هنا، لأن التقدم بين يدي الله ورسوله إما حسي أو معنوي، ولا يعصم من ذلك إلا التقوى، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (الحجرات:٢).

١- حرمة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيا.

---

١ – أسيف: حزين، وقيل: سريع الحزن والبكاء.

٢ – رواه البخاري (٤-١٢٢) كتاب الأنبياء، ومسلم (١-٣١٣، ٣١٤) كتاب الصلاة رقم (٤١٨).

٣ – انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤-١٧١٣.

٤ – سيأتي الحديث عن التقوى في القسم الموضعي إن شاء الله.

٢- ذكر بعض العلماء أن كلامه المأثور - بعد وفاته - ﷺ مثل كلامه المسموع من لفظه، من حيث وجوب الإنصات، وعدم جواز رفع الصوت عند من يتلو كلامه، كما لا يجوز الإعراض عنه.

واستدل هؤلاء بهذه الآية، وبقوله - تعالى -: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا) (لأعراف: من الآية٢٠٤) وكلام الرسول ﷺ من الوحي، وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة، وبيانها كتب الفقه [1] وهذا القول فيه نظر، فإن لشخص الرسول ﷺ من الحرمة ما ليس لكلامه.

ولا يعني هذا أنه ليس لكلامه حرمة، كلا، ولكنه ليس كمنـــزلة الرسول ﷺ وحرمة شخصه.

ثم إن هناك فرقا بين حرمة القرآن وقدسيته وبين ما للسنة فمن الفروق بينهما:

أ- أن القرآن يتعبد بتلاوته، بخلاف السنة.

ب- أنه لا يجوز مس المصحف إلا طاهرا [2] بخلاف كتب الصحاح.

جـــ- أن الجنب لا يتلو القرآن بخلاف قراءة الأحاديث.

د- أنه تجوز رواية الأحاديث بالمعنى بخلاف القرآن.

إذا علم هذا علمنا أن الاستدلال بالآيتين على ما ذكر لا يسلم، مع أن للسنة مكانتها وحرمتها ووجوب العمل بها، وعدم جواز رد أي شيء منها، أو الاستهزاء بها.

٣- قال بعض العلماء: إن معنى قوله: (وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ) (الحجرات: من الآية٢) أي لا تخاطبوه: يا محمد، يا أحمد، ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله، توقيرا له وتعظيما [3] وما ذكره العلماء هو في حياة الرسول ﷺ أما بعد وفاته فلا يجوز دعاؤه - صلى الله عليه وسلم - كما يفعل المبتدعة والمشركون، وبخاصة عند قبره - ﷺ.

ولكن يستفاد مما ذكره العلماء، أنه لا يليق ذكر اسمه مجردا عن وصفه بالنبوة أو الرسالة، أو الصلاة عليه، ﷺ حيث إن ذلك من الجفاء وسوء الأدب، مما يكون له تأثيره السيئ في نفوس السامعين، أو

---

١ - ممن قال بذلك ابن العربي، وذكره القرطبي ولم يعلق عليه، انظر أحكام القرآن لابن العربي ٤-١٧١٥، وتفسير ١٥-٣٠٧.

٢ - المسألة خلافية كما هو معروف، ولكن لا يختلف في وجوب الطهارة من الحدث الأكبر بالنسبة لمس المصحف.

٣ - انظر: تفسير القرطبي ١٥-٣٠٦.

القراء، بينما يجب أن نربي الناس على حبه، وتعظيمه، وتوقيره، واحترامه مما يليق بمكانته الرفيعة – ﷺ وآله.

٤- ليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر، ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة به ﷺ لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون.

كما أن رفع الصوت بحضرته ﷺ لحاجة تدعو إلى ذلك، وليس فيه أذى لرسول الله ﷺ فإنه جائز، بل قد يكون صاحبه مأجورا، كالأذان، وأثناء الحرب لإخافة العدو، أو نداء المجاهدين من الصحابة، فقد ورد أن رسول الله ﷺ أمر العباس يوم حنين – عندما انهزم المسلمون – أمره أن ينادي في الناس، وفي بعض الروايات "اصرخ بالناس" وكان العباس أجهر الناس صوتا، فنادى بأهل الشجرة رضي الله عنه [١].

٥- كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره – صلى الله عليه وسلم – احتراما لمكانته وإجلالا له ﷺ [٢].

قال ابن كثير: قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته، لأنه محترم حيا وفي قبره ﷺ وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما ؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا[٣].

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) (الحجرات: من الآية٦).

١- قال ابن العربي: من ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعا، لأن الخبر أمانة، والفسق قرينة تبطلها [٤] فأما في الإنسان على نفسه فلا يبطل إجماعا [٥].

---

١ – انظر: تفسير القرطبي ١٥-٣٠٧، والحديث أخرجه مسلم في الصحيح (٣-١٣٩٨) كتاب الجهاد رقم (١٧٧٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٥-٣٧٩، ٣٨٠) وابن عساكر كما في كنز العمال (١٠-٥٤٥).

٢ – انظر: تفسير القرطبي (١٥-٣٠٧).

٣ – انظر: تفسير ابن كثير ٤-٢٠٧، وتفسير القاسمي (١٥-١١٣)، وهذا الأثر أخرجه البخاري في الصحيح (١-١٢١) كتاب الصلاة.

٤ – استثنى من ذلك بعض المسائل مما يتعلق بالدعوى والجحود، وإثبات حق مقصور على الغير، ونحو ذلك. انظر: تفسير القرطبي ١٥-٣١٢.

٥ – انظر: أحكام القرآن ٤-١٧١٥.

٢- اختلف العلماء في ولاية الفاسق في النكاح - وليس هذا مكان بحث ذلك - ولكن الراجح ثبوت ولايته، وأن الفسق لا يسقطها [١].

٣- إمامة الفاسق فيها تفصيل يطول، وخلاف بين العلماء، والراجح جواز إمامته، وصحة الصلاة خلفه، ولكن الأولى والأفضل عدم الصلاة خلفه إذا وجد غيره [٢].

٤- في هذه الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا لأنه إنما أمر بالتثبت عند نقل خبر الفاسق، وهذا دليل على قبول خبره - بدون تثبت - إذا كان عدلا.

ولا فرق في ذلك بين ما كان في العقائد وغيرها، وهذا منهج أهل السنة والجماعة، ولا يلتفت إلى قول غيرهم [٣].

أما الحدود والجنايات وبعض الأحكام كخروج رمضان - على الراجح - فإن النص قد حدد في كل مسألة ما تحتاج إليه من شهود.

٥- قال ابن العربي: أما أحكامه إن كان حاكما واليا فينفذ منها ما وافق الحق، ويرد ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول، من رواية تؤثر أو قول يحكى، فإن الكلام كثير والحق ظاهر [٤].

٦- وقال أيضا: لا خلاف أنه يصح أن يكون رسولا عن غيره في قول يبلغه، أو شيء يوصله، أو إذن+ يعلمه، إذا لم يخرج عن حق المرسل والمبلغ، فإن تعلق به حق لغيرهما لم يقبل قوله، وهذا جائز للضرورة [٥] الداعية إليه، فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعاني إلا العدول لم يحصل منها شيء لعدمهم [٦] في ذلك [٧].

---

١ - انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤-١٧١٥، وتفسير القرطبي ١٥-٣١٢.

٢ - انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤-١٧١٦.

٣ - انظر: تفسير القرطبي ١٥-٣١٢، وسنذكر بعض المصادر الخاصة.

٤ - انظر: أحكام القرآن ٤-١٧١٦ وتفسير القرطبي ١٥-٣١٢.

٥ - أي الضرورة العامة، لأنه قد يوجد من العدول، فلا يبطل الحكم.

٦ - الأولى: لقلتهم.

٧ - انظر: أحكام القرآن، لابن العربي ٤-١٧١٦.

٧- قال الجصاص واتفق أهل العلم على جواز قبول خبر الفاسق في أشياء، فمنها أمور المعاملات يقبل فيها خبر الفاسق، وذلك نحو الهدية، إذا قال إن فلانا أهدى إليك هذا، يجوز له قبوله وقبضه، ونحو قوله: وكلني فلان ببيع عبده هذا فيجوز شراؤه منه، ونحو الإذن في الدخول إذا قال له قائل: ادخل، لا تعتبر فيه العدالة، وكذلك جميع أخبار المعاملات [١] وهذا القول قريب مما ذكره ابن العربي في الفقرة السابقة ذكرته إيضاحا وتأكيدا، وبخاصة أن أحدهما حكى الاتفاق والآخر نفى الخلاف.

قوله – تعالى –: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي) (الحجرات: من الآية٩).

١- قال أبو بكر بن العربي: هذه الآية هي الأصل في قتال المسلمين [٢] والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عول الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عني النبي ﷺ بقوله: "يقتل عمارا الفئة الباغية" [٣].

وقد أفاض الجصاص في الاستدلال على جواز قتال الفئة الباغية وذكر الأدلة ورد الشبهة في كل دليل ذكره المخالفون، وهو كلام نفيس بجملته، ولولا طوله والتزامي بعدم التفصيل لذكرته [٤].

٢- قتال البغاة له أحكام كثيرة، ذكرها الفقهاء والمفسرون، وفصلوا فيها، كبيان متى يكون قتالهم؟ وكيف ؟ وحكم القتال مع الإمام وهل هو فرض كفاية أو عين ؟ وحكم غنائمهم، وهل يؤخذ منهم أسرى؟ إلى غير ذلك من الأحكام التي يحتاج إليها في مثل هذه الأحوال، كفانا الله شر المحيج إليها.

٣- في هذه الآية والتي بعدها: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) (الحجرات: من الآية١٠) دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله – تعالى – سماهم أخوة مؤمنين مع كونهم

---

١ – انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣-٣٩٩.

٢ – أي من البغاة ونحوهم، لأنهم مسلمون،ووجوب قتالهم لا يخرجهم من الإسلام.

٣ – أخرجه مسلم (٤-٢٢٣٦) كتاب الفتن رقم (٢٩١٦).

٤ – انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣-١٧١٧، وأحكام القرآن للجصاص ٣-٤٠٠.

باغين، قال الحارث الأعور: سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو الحجة والقدوة، سئل عن قتال أهل البغي: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فروا، [في رواية: من الكفر فروا].

فقيل: أمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا.

قيل له: فما حالهم ؟ قال: إخواننا بغوا علينا [1].

٤- لعل من المناسب أن أختم الحديث عن أحكام هذه الآية بكلام نفيس ذكره القرطبي في تفسيره فقال: لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به [2] إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه، وأرادوا الله ﷻ وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة، ولنهي النبي ﷺ عن سبهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم [3].

هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة أن طلحة شهيد، ومما يدل على ذلك ما صح وانتشر من إخبار علي بأن قاتل الزبير في النار.

وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم، وإبطال فضائلهم، وجهادهم، وعَظِيم غنائهم في الدين - رضي الله عنهم -.

وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (البقرة:١٣٤).

وسئل بعضهم عنها - أيضا - فقال: تلك دماء قد طهر الله منها يدي، فلا أخضب بها لساني، يعني من التحرز من الوقوع في خطأ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيبا فيه.

قال ابن فورك: ومن أصحابنا من قال: إن سبيل ما جرى بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين أخوة يوسف مع يوسف، ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حد الولاية والنبوة، فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة.

---

١ - انظر: تفسير القرطبي ١٥-٣٢٣.

٢ - أي لا نقطع بالخطأ في مكان الاجتهاد، أما إذا كان فعله خطأ مما ورد النص به فيجوز، لأن الصحابة ليسوا معصومين بآحادهم، وقد وقع بعضهم في أخطاء وأقيم على بعضهم الحدود.

٣ - وهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان لا جميعهم.

وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا، قال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا، ونتبع ما اجتمعوا عليه، ونقف عند ما اختلفوا فيه، ولا نبتدع رأيا منا، ونعلم أهم اجتهدوا وأرادوا الله ﷻ إذ كانوا غير متهمين في الدين، ونسأل الله التوفيق [1].

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ) (الحجرات: من الآية١١).

١– حرمة السخرية بالمسلم بل وغيره مما لا تجوز السخرية به، قال الجصاص، نهى الله بهذه الآية عن عيب من لا يستحق أن يعاب على وجه الاحتقار له، لأن ذلك هو معنى السخرية، فإن كان معيبا فاجرا فعيبه بما فيه جائز.

روي أنه لما مات الحجاج قال الحسن: اللهم أنت أمته فاقطع عنا سنته، فإنه أتانا أخيفش أعيمش، يمد بيد قصيرة البنان، والله ما عرق فيها عنان في سبيل الله، يرجل جمته، ويخطر في مشيته، ويصعد المنبر فيهذر حتى تفوته الصلاة، لا من الله يتقي، ولا من الناس يستحي، فوقه الله، وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل، ثم قال الحسن: هيهات والله [2] حال دون ذلك السيف والسوط [3].

قال القاسمي: وكل هذا يرجع إلى استحقاق الغير، والضحك عليه، والاستهانة به، والاستصغار له، وعليه نبه بقوله – تعالى –: (عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ) (الحجرات: من الآية١١) أي: لا تستحقره استصغارا، فلعله خير منك، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة، وربما فرح من أن يسخر به، كانت السخرية في حقه من جملة المزح، ومنه ما يذم [4] وما يمدح.

١ – انظر: تفسير القرطبي ١٥–٣٢١، وقد نقلت هذا الكلام لأهميته، ولأننا نسمع من يتكلم في صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويقول: هم رجال ونحن رجال، نعوذ بالله ما يفعله السفهاء منا.

٢ – أي هيهات أن يجرؤ أحد على أن يقول له ذلك، كأنه يعتذر للناس في زمان الحجاج لسكوتهم عن الإنكار.

٣ – انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣–٤٠٤.

٤ – هذه نفيسه فالزمها.

وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه، و لم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة، كالضحك على حفظه، وعلى صنعته، أو على صورته وخلقته، إذا كان قصيرا أو ناقصا، لعيب من العيوب، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها [1].

٢- حرمة التنابز بالألقاب وهو التداعي بما يكره منها، فإن الألقاب على ثلاثة أنواع:

١- قسم يكرهه الإنسان ويبغضه، وهو ما يعير به، فهذا يحرم التسمية به أو النداء. بل إن الرسول ﷺ غير ألقاب بعض أصحابه وأسماءهم، فسمى العاص: عبد الله، وشهابا: هشاما، وسمى حربا سلما.

وهذا هو المراد بالآية: (وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ) (الحجرات: من الآية١١).

٢- قسم يحبه صاحبه كأبي تراب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث لقبه الرسول ﷺ به.

قال سهل بن سعد: ما كان اسم أحب إلى علي أن يدعى به من أبي تراب. فهذا لا يكره.

٣- وقسم غلب عليه الاستعمال، كالأعرج والأحدب، و لم يكن لصاحبه فيه كسب يجد في نفسه منه عليه، قال ابن العربي: فجوزته الأمة، واتفق على قوله أهل الملة.

قلت: بشرط ألا يقصد قائله التعيير واللمز ونحوه، قال ابن العربي: والذي يضبط هذا كله ما قدمناه من الكراهة لأجل الأذية [2]. قال القرطبي: وعلى هذا المعنى ترجم البخاري - رحمه الله - في كتاب الأدب من الجامع الصحيح في (باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم: الطويل والقصير لا يراد به شين الرجل) قال: وقال النبي - صلى الله عليه وسلم: "ما يقول ذو اليدين" [3]. قال أبو عبد الله بن خويز منداد: تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره، ويجوز تلقيبه بما يحب، ألا ترى أن النبي ﷺ لقب عمر بالفاروق، وأبا بكر بالصديق، وعثمان بذي النورين، وخزيمة بذي الشهادتين، وأبا هريرة بذي الشمالين، وبذي اليدين، في أشباه ذلك.

---

١ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٢٦.

٢ - انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣-٤٠٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٤-١٧٢٣.

٣ - انظر: صحيح البخاري (٧-٨٥) كتاب الأدب.

قال الزمخشري: ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن، قال عمر رضي الله عنه أشيعوا الكنى فإنها منبهة.

ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها – من العرب والعجم – تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير.

قال الماوردي: فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره، وقد وصف رسول الله ﷺ عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب. قال القرطبي: فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير.

وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول: حميد الطويل، وسليمان الأعمش، وحميد الأعرج، ومروان الأصغر، فقال: إذا أردت صفة ولم ترد عيبة فلا بأس به.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سرجس قال: رأيت الأصلع – يعني عمر – يقبل الحجر، وفي رواية: الأصيلع [(١)].

قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً) (الحجرات: من الآية١٢).

١- الظن على أربعة أضرب: محظور، ومأمور به، ومندوب إليه، ومباح.

فأما الظن المحظور: فهو سوء الظن بالله، روى جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ﷻ" [(٢)].

---

١ – صحيح مسلم (٢-٩٢٥) كتاب الحج رقم (١٢٧٠)، وانظر: تفسير القرطبي ١٥-٣٢٩.

٢ – أخرجه مسلم (٤-٢٢٠٥) كتاب الجنة رقم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣-١٨٩) كتاب الجنائز، رقم (٣١١٣).

وكذلك من الظن المحظور: سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة، وهذا هو المراد بالآية، وكذلك ما يشمله حديث رسول الله ﷺ الثابت في الصحيحين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث" [1].

قال الجصاص: وكل ظن فيما له سبيل إلى معرفته، مما تعبد بعلمه فهو محظور، لأنه لما كان متعبدا تعبد بعلمه ونصب له الدليل عليه فلم يتبع الدليل وحصل على الظن كان تاركا للمأمور به. [2]

وأما المأمور به: هو ما لم ينصب له عليه دليل يوصله إلى العلم اليقيني به، وقد تعبد بتنفيذ الحكم فيه، فالاقتصار على غالب الظن وإجراء الحكم عليه واجب، وذلك نحو ما تعبدنا به من قبول شهادة العدول، وتحري القبلة، وتقويم المستهلكات، وأرش الجنايات التي لم يرد بمقاديرها توقيف، فهذه وما كان من نظائرها قد تعبدنا فيها بتنفيذ أحكام غالب الظن. [3].

وأما الظن المندوب إليه: فهو حسن الظن بالأخ المسلم، فإن قيل: إذا كان سوء الظن محظورا فواجب أن يكون حسن الظن واجبا، قيل له: لا يجب ذلك لأن بَيْنَهُمَا واسطة، وهو أن لا يظن به شيئا، فإذا أحسن الظن به فقد فعل مندوبا إليه. [4].

وأما الظن المباح فالشكاك في الصلاة يجوز له أن يعمل بما غلب على ظنه، ويجوز له أن يبني على اليقين. [5].

٢- حرمة التجسس وتتبع العورات وهذه الآية نص في ذلك، وقد ورد في الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال - ﷺ "ولا تحسسوا وَلا تَجَسَّسُوا" [6]. والتحسس والتجسس معناهما متقارب وحكمها واحد، وقد قرئ في الشواذ "ولا تحسسوا" بالحاء وممن قرأ بذلك: أبو رجاء والحسن وغيرهما.

---

١ - أخرجه البخاري (٧-٨٨، ٨٩) كتاب الأدب، ومسلم (٤-١٩٨٥) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٣) والترمذي (٤-٣١٣) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٨٨).

٢ - انظر أحكام القرآن للجصاص (٣-٤٠٦).

٣ - انظر: أحكام القرآن للجصاص (٣-٤٠٦).

٤ - انظر:أحكام القرآن للجصاص٣-٤٠٦.

٥ - هكذا قال الجصاص ٣-٤٠٦، والمسألة فيها تفصيل ليس هذا مكانه.

٦ - هو تكملة الحديث السابق "إياكم والظن"أخرجه البخاري (٧-٨٨،٨٩)، كتاب الأدب،ومسلم (٤-١٩٨٥)كتاب البر والصلة رقم (٢٥٦٣).

ومعنى الآية: خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي: لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله. [١].

٣- حرمة الغيبة، وقد ثبت تحديدها في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ "قال لأصحابه: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته" [٢].

٤- ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا في الدين، ولا تكون في الخلقة والحسب، وقالوا: ذلك فعل الله به. وذهب آخرون إلى عكس ذلك فقالوا: لا تكون الغيبة إلا في الخلق والخلق والحسب، والغيبة في الخلق أشد، لأن من عاب صنعة فإنما عيب صانعها.

قال القرطبي: وهذا كله مردود.

أما الأول: فيرده حديث عائشة حيث قالت في صفية: إنها امرأة قصيرة، فقال لها النبي ﷺ "لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته" [٣].

وقد أجمع العلماء على أن ذلك غيبة إن أريد به العيب.

وأما الثاني فمردود - أيضا - عند جميع العلماء، لأن العلماء من أول الدهر من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدين، ولأن عيب الدين أعظم العيب، وكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد مما يكره في بدنه. [٤].

٥- لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحدا فعليه أن يتوب إلى الله ﷻ.

وهل يستحل المغتاب ؟ اختلف في ذلك:

---

١ - انظر: تفسير القرطبي(١٥-٣٣٢).

٢ - تفسير القرطبي (١٥-٣٣٤)وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله. والحديث أخرجه مسلم في الصحيح (٤-٢٠٠١)كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٨٩).أبو داود (٤-٢٦٩)كتاب الأدب،رقم (٤٨٧٤).والترمذي (٤-٢٠٩)كتاب البر والصلة، رقم (١٩٣٤).وأحمد في المسند (٢-٤٥٨،٣٨٦،٣٨٤،٢٣٠).

٣ - أخرجه أبو داود (٤-٢٦٩)كتاب الأدب رقم (٤٨٧٥). والترمذي (٤-٥٧٠) كتاب صفة القيامة،رقم (٢٥٠٢).وأحمد في المسند (٦-١٨٩)، وصححيه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥١٤٠).

٤ - انظر: تفسير القرطبي (١٥-٣٣٧)فقد توسع في ذلك ودلل عليه.

فقالت فرقة ليس عليه استحلاله، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه، واحتجت ببعض الحجج الضعيفة، وليس فيها دليل من كتاب أو سنة.

وقالت فرقة: هي مظلمة، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه، واحتجت بحديث يروى عن الحسن، قال: "كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته"، وهذا ليس بحديث وإنما هو قول للحسن.

وقالت فرقة: هي مظلمة وعليه الاستحلال منها، واحتجت بقول النبي، ﷺ "من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال؛ فليتحلله منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم" الحديث. [١].

والقولان الأولان ضعيفان، والثالث هو الصحيح، ولكن استثنى بعض العلماء ما إذا خشي حدوث مفسدة من إخباره بأنه اغتابه، أو مات قبل تحلله، فإنه يدعو له ويذكره بخير، ويستغفر له، ويكون كفارة له، وهذا هو الراجح، والله أعلم. [٢].

٦- قال العلماء: ليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر، وقد ورد في ذلك بعض الأحاديث وروي عن الحسن أنه قال: ثلاثة ليس لهم حرمة، صاحب الهوى، والفاسق المعلن، والإمام الجائر. وقد سبق ذكر كلام الحسن في الحجاج بعد موته.

وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال: ليس لأهل البدع غيبة. [٣]

٧- ومما تجوز فيه الغيبة ذكر من ظلمك لمن ترجو أن ينصفك، أو لنفي التهمة عنك قال - سبحانه -: (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ) (النساء: من الآية١٤٨) وقال ﷺ "لي الواجد

---

١ - انظر: تفسير القرطبي (١٥-٣٣٧).والحديث أخرجه البخاري في الصحيح (٣-٩٩) كتاب المظالم.وأحمد في المسند (٢-٥٠٦).

٢ - انظر:آفات اللسان للقحطاني ص (٤٢).

٣ - انظر:تفسير القرطبي (١٥-٣٣٩).

يحل عرضه وعقوبته" [1]. "وقالت هند لرسول الله – ﷺ إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي" الحديث. [2].

٨- ومما تجوز فيه الغيبة إذا كان ما تذكره من سوء فيه مصلحة غالبة أو ضرورة، كمن يسال عن رجل ليأتمنه على مال أو عرضه أو نحوه.

وكمن يريد تزويج إنسان أو يتزوج منه لقوله – ﷺ "أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه" [3].

ولكن يجب ألا يزيد السائل أو المتظلم عن مقدار الحاجة التي دعت لذكر هذا الأمر، ولا يجوز التوسع فيه، وليحذر من مداخل الشيطان فإنه شيطان. والله يعصمنا من الزلل [4]. وكذلك منهج أهل الحديث في ذكر الرواة. وقد جمع بعض العلماء الأمور التي تجوز فيها الغيبة بهذين البيتين [5]

القدح ليس بغيبة في ستة ... متظلم ومعرف ومحذر

ومجاهر فسقا ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

قوله – تعالى –: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات: من الآية١٤).

١- قال ابن كثير – رحمه الله –:

---

١ – هذا الحديث علقه البخاري في الصحيح بصيغة التمريض فقال: ويذكر عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فذكره.انظر:صحيح البخاري (٣–٨٥)،كتاب الاستقراض.قال الحافظ في الفتح (٥–٧٦): وصله أحمد وإسحاق في مسنديهما وأبو داود والنسائي من حديث عمرو بن الشريد بن أوس الثقفي عن أبيه بلفظه، وإسناده حسن. انظر:سنن أبي داود (٣–٣١٣) كتاب الأقضية،رقم (٣٦٢٨). سنن النسائي (٧–٣١٦)كتاب البيوع، رقم (٤٦٨٩،٤٦٩٠). سنن ابن ماجه (٢–٨١١)كتاب الصدقات، رقم (٢٤٧٢). مسند الإمام أحمد (٤–٢٢٢،٣٨٨،٣٨٩) والحديث حسنه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥٤٨٧).

٢ – انظر:تفسير القرطبي (١٥–٣٣٩).والحديث أخرجه البخاري (٦–١٩٣،١٩٤)كتاب النفقات، ومسلم(٣–١٣٣٨) كتاب الأقضية، رقم (١٧١٤). وأبو داود (٣–٢٨٩) كتاب البيوع، رقم (٣٥٣٢). والنسائي (٨–٢٤٦)،كتاب آداب القضاة، رقم (٥٤٢٠).وأحمد في المسند (٦–٣٩،٥٠).

٣ – انظر: تفسير القرطبي (١٥–٣٣٩).والحديث أخرجه مسلم في الصحيح (٢–١١١٤)كتاب الطلاق رقم (١٤٨٠).وأبو داود (٢–٢٨٥،٢٨٦) كتاب الطلاق، رقم (٢٢٨٤).والترمذي (٣–٤٤١،٤٤٢)كتاب النكاح،رقم (١١٣٥).

٤ – انظر:آفات اللسان للقحطاني ص (٤٨).

٥ – وقد خصص النووي بابا في " رياض الصالحين" ذكر فيه الأمور التي تباح فيها الغيبة وجعلها ستة، ورد الشوكاني بعضها في كتابه " رفع الريبة عما يجوز وما لا يجوز من الغيبة" فراجعه فإنه نفيس. انظر: رياض الصالحين ص (٥٧٥،٥٧٧)، آفات اللسان للقحطاني ص (٤٢).

استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل – عليه السلام – حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان [١] فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.

وروى الإمام أحمد والطبري بسنديهما عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه – رضي الله عنهما – قال: "أعطى رسول الله ﷺ رجالا و لم يعط رجلا منهم شيئا، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلانا وفلانا وفلانا، و لم تعط فلانا شيئا وهو مؤمن، فقال – ﷺ أو مسلم؟ حتى أعادها سعد ثلاثا، والنبي ﷺ يقول: أو مسلم؟ ثم قال النبي – ﷺ إني لأعطي رجالا وأدع من هو أحب إلي منهم، فلم أعطه شيئا مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم" قال ابن كثير: أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به [٢].

قال ابن كثير: فقد فرق النبي، ﷺ بين المؤمن والمسلم، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام.

قال القاسمي: ومن اللطائف أن يقال في الإيمان والإسلام ما قالوه في الفقير والمسكين: إذا اجتمعنا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا [٣].

ويعني بذلك أنه إذا أطلق لفظ الإيمان وحده، فإنه يشمل الإيمان والإسلام مثل قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) ([٤]) فيشمل الإيمان والإسلام.

وإذا أطلق الإسلام وحده، فإنه يشمل الإسلام والإيمان مثل قوله – تعالى –: (وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (آل عمران: من الآية١٠٢) أي مسلمون مؤمنون.

وإذا اجتمعا افترقا، أي أنه إذا جاء الإسلام والإيمان في جملة واحدة فإن لكل واحد معناه الذي يخصه، فالإسلام: الانقياد في الظاهر، والاستسلام لحكم الإسلام.والإيمان: هو التصديق بالقلب.

ولا يكون الإنسان مؤمنا إلا إذا كان مسلما، فيجتمع فيه عمل القلب – وهو الإيمان – وعمل الجوارح وهو الإسلام،أو كما قال العلماء:القول باللسان، والتصديق بالجنان، وعمل الجوارح والأركان.

---

١ – أخرجه مسلم(١– ٣٦، ٣٧) كتاب الإيمان،رقم (٨).والترمذي (٥–٨)كتاب الإيمان، رقم (٢٦١٠)، وأبو داود (٤–٢٢٣)كتاب السنة، رق (٤٦٩٥) وغيرهم.

٢ – صحيح البخاري (١–١٢) كتاب الإيمان،وصحيح مسلم (١–١٣٢)كتاب الإيمان،رقم (١٥٠) وانظر:تفسير الطبري ٢٦–١٤١.

٣ – انظر: تفسير ابن كثير ٤–٢١٩، وتفسير القاسمي ١٥–١٤٠.

٤ – انظر: تفسير ابن كثير ٤–٢١٩، وتفسير القاسمي ١٥–١٤٠.

قال في الإكليل: في الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان، وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف [1].

٢- قال القاسمي: قال في الإكليل: في الآية رد على الكرامية في قولهم: إن الإيمان هو الإقرار باللسان دون عقد القلب، وهو ظاهر، وقد استوفى الرد عليهم ابن حزم في الفصل [2].

٣- قال ابن كثير: دل هذا - أي ما في الآية - على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك.

ولو كانوا منافقين - كما ذكر بعض العلماء كالبخاري - لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقين في سورة براءة [3].

٤- وجوب استحضار منة الله على العبد أن وفقه لطاعته [4] وخطورة تسرب شيء من الشعور بمنة العبد على الله، وهذا محبط للعمل ومذهب لِلإِيمَانِ.

وقد يكون الشعور بالمنة على الله - نعوذ بالله من ذلك - إما بالقول أو العمل، وأخطره ما كان بالقلب لصعوبة الإحساس به ودقته وخفائه فهو أخطر من الرياء.

---

١ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٤٢. من أراد مزيد بيان فليرجع إلى كتب العقيدة، كشرح الطحاوية ص ٢-٤٥٩، والإيمان لابن تيمية ص ٢٢٥.

٢ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٤٠.

٣ - انظر: تفسير ابن كثير ٤-٢١٩.

٤ - ذكر ابن القيم أن من شروط قبول العمل شهود المنة،أي منة الله على العبد، فلولا فضله ومنته ما كان هذا العمل، وشهود المنة يكون قبل العمل وأثناء العمل وبعده.

الدارسة الموضوعية

تناولت في القسم الأول دراسة السورة دراسة تحليلية، شملت أسباب النـــزول والقراءات، وبعض أحكام التجويد، مع بيان بعض المعاني اللغوية، وإعراب بعض الآيات، وذكر بعض الأوجه البلاغية، ثم ختمت ذلك بأهم الأحكام التي وردت في السورة.

وبهذا تكون السورة قد وضحت مدلولات آياتها ــ ولم تكن غامضة من قبل ــ وفهمت معانيها. وبهذا أصبح الانتقال إلى دراسة السورة دراسة موضوعية مناسبا، والفرصة مواتية. والدراسة الموضوعية على جانب كبير من الأهمية، بل لا أعدو الحقيقة إذا قلت: إن القسم الأول ــ وهو الدراسة التحليلية ــ وسيلة لفهم الدراسة الموضوعية، وكأنه الأساس لما يأتي بعده، وبخاصة في ضوء المنهج الذي سلكته في تلك الدراسة.

وقد اشتملت السورة على عدة موضوعات، ووقفات، كل موضوع منها يحتاج إلى دراسة مستقلة، فمنها الموضوعات العقدية، ومنها التشريعات، وأخرى في السلوك والأخلاق. وسيكون منهجي في تناول كل موضوع مرتبطا بطبيعة ذلك الموضوع، فمنها ما سأتناوله باختصار، ومنها ما سأحاول التفصيل فيه بما يتناسب مع المقام. مع أنني سأتحاشى الإطناب الممل والإيجاز المخل في كلا الأمرين.

وأهم الموضوعات والوقفات التي تناولتها السورة، ومن ثم سأقف معها دارسا ومجليا هي:

١- الوحدة الموضوعية للسورة.

٢- وقفات مع سورة الحجرات، وفي هذا المبحث سأقف ثلاث وقفات:

الوقفة الأولى: منهج للدعاة.

الوقفة الثانية: مع أسماء الله وصفاته.

الوقفة الثالثة: اللسان في ضوء سورة الحجرات.

٣- موضوعات سورة الحجرات وهذا أهم مباحث السورة، بل إن هذا صلب البحث وجوهره، وما عداه مكمل له ومتم، وقد تناولت في هذا القسمة ستة موضوعات وهي:

الموضوع الأول: التقدم بين يدي الله ورسوله.

الموضوع الثاني: الأدب مع العلماء.

الموضوع الثالث: التقوى وامتحان القلوب.

الموضوع الرابع: التثبت في الأخبار.

الموضوع الخامس: الأخوة.

الموضوع السادس: الإسلام والإيمان.

ثم ختمت بخاتمة مناسبة.

سابعاً: الوحدة الموضوعية للسورة

النظرة العجلى في السورة، قد توحي لصاحبها أن هذه السورة قد اشتملت على عدة موضوعات متفرقة، ولكن النظرة المتأنية الواعية تصل بصاحبها إلى أن السورة تتناول موضوعا واحدا، تتفرع عنه عدة موضوعات مترابطة، حيث تجد التجانس والتلاحم يجمع بين أولها وآخرها ويؤكد ذلك وسطها.

إننا نلمس الوحدة الموضوعية للسورة من خلال معالجتها لقضايا أساسية في المجتمع المسلم، وفي مقدمتها موضوع الإيمان، الذي هو الأساس الذي جاءت من أجله السورة، ومن ثم جاءت الموضوعات الأخرى متفرعة عنه وموصلة إليه، وبيان ذلك كما يلي:

أولا: بناء الإيمان، وتصحيح المفهوم الخاطئ حوله عند بعض المسلمين، وخلطهم بين الإسلام والإيمان.

وهذه القضية تبرز في أول السورة كما في آخرها، بل في كل آية من آياتها وكل مقطع من مقاطعها.

إن الإسلام قد اتضحت معالمه، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

أما الإيمان بمفهومه الدقيق، ومستلزماته العملية، فإنه لا يزال بحاجة إلى مزيد بيان وجلاء، ولولا ذلك لما قالت الأعراب ما قالت، ولا غرو في ذلك [1].، فإن الدين لم يكتمل إلا في حجة الوداع.

وتبرز هذه الحقيقة إذا علمنا أن السورة نـــزلت متأخرة، بل في آخر العهد المدني، وقبل حجة الوداع. وإنني ألمس هذا الجانب في أول كلمة في السورة، عندما يناديهم الله – جلا وعلا – بـــ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) (الحجرات: من الآية١) وقد تكرر هذا النداء عدة مرات، حيث أجد أنه في كل آية بدأت بهذا النداء ينبه إلى خصلة تنافي الإيمان، ولا يليق أن تقع مع المؤمن، وكأنه يقول إنكم مؤمنون ولكن ما يقع منكم يؤثر في إيمانكم، بل قد يكون سببا لذهاب الإيمان (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (الحجرات: من الآية٢) وقد تكرر هذا النداء خمس مرات في هذه السورة.

ففي المرة الأولى: ينهاهم عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والتقدم قد يكون محبطا للعمل، ومذهبا لِلإِيمَانِ.

---

١ – أي لا غرو في عدم اكتماله لا في ما حدث من الأعراب.

وفي الثانية: ينهى عن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ - ويبين أن هذا خطير على إيمان صاحبه (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (الحجرات: من الآية٢).

وفي الثالثة: يأمر بالتثبت، فإن العجلة تضعف الإيمان وتؤثر فيه (فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (الحجرات: من الآية٦)، (لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ) (الحجرات: من الآية٧).

وفي الرابعة والخامسة ينهي عن بعض الخصال، التي لا يليق أن تصدر من المؤمن (بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْأِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (الحجرات: من الآية١١)، (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ) (الحجرات: من الآية١٢) وهل يجتمع كمال الإيمان، وأكل لحم الميتة - إلا في الضرورة - فكيف إذا كان هذا الميت إنسانا، وأبشع من ذلك أنه أخوه.

أرأيتم كيف جاء النداء باسم الإيمان وسيلة لتصحيح مساره، وتقويم اعوجاجه، وإكمال نقصه في نفوس بعض أُولَئِكَ الذين ناداهم باسم الإيمان، وكأنه يقول: يا مؤمنون هل هذا من الإيمان ؟ وبناء الإيمان في هذه السورة يأتي بأسلوب آخر - أيضا - بل بأساليب أخر فمن ذلك:

١- أنه لما دعاهم باسم الإيمان إلى التثبت، ونهى عن العجلة، بين لهم مكانة وأثر رسول الله ﷺ فيهم (لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ) (الحجرات: من الآية٧) بعد ذلك كله يلفت لفتة إيمانية عجيبة (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْأِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات: من الآية٧) أي دعوة لِلإِيمَانِ أقوى من هذه الدعوة، أرأيتم كيف يعرض الإيمان مزينا محَبَّبا، هل يستطيع مؤمن أن يقاوم هذا الإغراء، وينصرف عن هذا التحَبَّبَ.

وفجأة ينقلنا نقلة أخرى عميقة في مدلولها، مجلجلة في إيقاعها (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) (الحجرات: من الآية٧) ثم يشير إشارة - باسم الإشارة للبعيد — (أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) (الحجرات: من الآية٧) والرَّاشِدُونَ هم المؤمنون.

والإشارة للبعيد لها مغزاها وأثرها في النفس، وخلجات الضمير، وكأنه يعرض لنا الإيمان بالسهل الممتنع، وكأنه قريب بعيد.

٢- ويستمر في عرض الإيمان وبنائه بالأساليب المتعددة المؤثرة، فبعد أن ذكر ما يجب في حال اقتتال طائفتين من المؤمنين، استأنف فقال:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات: من الآية١٠) وهل يليق بالمؤمن أن يقاتل أخاه، بل هل يليق بالمؤمن أن يرى اقتتال إخوته ويقف موقفا سلبيا (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا) (الحجرات: من الآية١٠) وإنني أرى في هذه الآية، ليس مجرد الدعوة للقيام بالصلح، بل وتصحيح لمسار الإيمان ومفهومه عند كثير من المسلمين، وكأن السلبية والإيمان لا يجتمعان، فتأمل!.

٣- ويأتي ختام هذه السورة، مصرحا بالحقيقة التي بدأها، بل ومحددا لهذا المفهوم، ومستنكرا وضع الأمور في غير مواضعها، وتسمية الأشياء بغير مسمياتها (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات: من الآية١٤) ثم يحسم القضية حسما لا جدال بعده ولا لبس فيه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحجرات:١٥) حصر وتأكيد، ثم إزالة لأي لبس أو تشكيك (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحجرات: من الآية١٥) فهم الصَّادِقُونَ وحدهم.

٤- وأجد من المناسب أن أشير إلى أن لفظ الإيمان بتصاريفه المتعددة، قد ورد في هذه السورة خمس عشرة مرة مع أن آياتها لا تتجاوز ثمان عشرة آية، فعلام يدل ذلك؟ وحاشا لله أن يأتي حرف في كتابه عبثا أو حشوا.

٥- وأخيرا فإن آخر آية ورد فيها لفظ الإيمان، وهي الآية قبل الأخيرة من هذه السورة جاءت بدلالة مؤثرة (بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ) (الحجرات: من الآية١٧) أليست هذه السورة من أولها إلى آخرها هداية لِلإِيمَانِ، بل إن ختام السورة (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحجرات:١٨) ومن حقيقة الإيمان أن نعلم ونؤمن ونوقن أن الله يعلم غيب السماوات والأرض، وأنه بصير بما نعلم وما نعمل، أليس من الإيمان أن نؤمن بالله..؟ أليس من الإيمان بالله أن نؤمن بالغيب؟ ومن الإيمان بالغيب أن نؤمن أن الله يعلم غيب السماوات والأرض، وأنه بصير بعملنا وما تخفي

سرائرنا، وأنه لا تخفى عليه خافية. ألم أقل إن كل آية في هذه السورة تضع لبنة في بناء الإيمان في قلب المسلم؟! وهنالك يصبح مسلما مؤمنا، بل ومحسنا تقيا.

ثانيا: ومن معالم الوحدة الموضوعية في هذه السورة أنها جاءت لمعالجة كثير من الأخطاء، التي يقع فيها المجتمع المسلم، بل تكاد أن تكون متخصصة في ذلك. فما من مقطع من مقاطعها إلا وهو يعالج قضية من تلك القضايا، وخطأ من هذه الأخطاء. ولا أعلم سورة من سور القرآن جاءت مستقلة في هذا الشأن، نعم جاءت آيات في كثير من السور تعالج بعض الظواهر في المجتمع المسلم، لكنها ضمن آيات أخر لموضوعات أخرى.

أما هذه السورة، فكل مقاطعها في هذا الشأن ابتداء وانتهاء. بل لم يأت أي مقطع لبيان حكم تشريعي ابتداء، كحكم الصيام أو الصلاة أو الحج، أو غيرها مما هو موجود في آيات وسور كثيرة. ونظرة إلى أسباب النـــزول التي سبق ذكرها تجلي هذه الحقيقة. وإتماما للفائدة وإيضاحا لهذا الأمر نقف مع آياتها ومقاطعها:

فالآية الأولى: في النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، وقد وقع.

والآيتان (٢، ٣): في قضية رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ وقد حدث من الخيرين.

والآيتان (٤، ٥): في موضوع مناداة الرسول ﷺ من وراء الحجرات، وعدم الانتظار حتى يخرج، وهو ما يحدث من جفاة بني تميم كما سبق.

أما الآيات (٦ – ٨): فإنها تتناول قضية التثبت والعجلة، وسبب نـــزولها معروف.

والآيتان (٩، ١٠): جاءتا لمعالجة ما وقع من فتنة الاقتتال بين بعض الصحابة، وما يجب تجاه ذلك.

والآيات (١١ – ١٣): تناولت أمورا مهمة حدثت من بعض أفراد المجتمع المؤمن كالسخرية، واللمز والتنابز، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة، والتفاخر بالأنساب.

وآخر المقاطع يشتمل على الآيات (١٤ – ١٧): فهي في قضية الإيمان والإسلام وأعراب بني أسد.

أما الآية (١٨): فإنها الضمانة لتلافي كل ما حدث، وما قد يحدث، فالإيمان بعلم الله وإحاطته، ورؤيته لعباده وما يعملون، كفيل بأن يجعل بين المؤمن وبين هذه الأمور التي سبق النهي عنها سياجا واقيا وحصنا مانعا.

ثالثا: من دلائل الوحدة الموضوعية في هذه السورة، ما ذكره الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في مقدمة تفسير السورة حيث قال:

وأول ما يبرز للنظرة عند مطالعة السورة، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة، لعالم رفيع كريم نظيف سليم، متضمنة القواعد، والأصول، والمبادئ، والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم، والتي تكفل قيامه أولا، وصيانته أخيرا.

عالم يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله. عالم نقي القلب نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة.

عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، أدب في هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه، وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه، وله نظمه التي تكفل صياغته، وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب، وتنبثق منه، وتتسق معه، فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره، وتتلاقى شرائعه ومشاعره، وتتوازن دوافعه وزواجره، وتتناسق أحاسيسه وخطاه، وهو يتجه ويتحرك إلى الله [(١)].

رابعا: إن من ملامح الوحدة الموضوعية في هذه السورة حديثها عن القلب، بل بناؤها للقلب العامر بالتقوى والإيمان، والتقوى درجة أعلى من الإيمان، لأن التقوى هي الإحسان، والإحسان كما في حديث جبريل غير الإيمان وأخص منه.

وهذه السورة يبرز فيها هذا الجانب من أول آية فيها حيث قال: (وَاتَّقُوا اللَّهَ) (الحجرات: من الآية١) إلى آخر آية فيها، وهي قوله - تعالى -: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحجرات:١٨).

١ - في ظلال القرآن ٣٣٣٥/٦.

والإحسان كما في حديث جبريل: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" [1]. وهذه حقيقة التقوى، ومكانها القلب "التقوى هاهنا" [2] ويشير إلى صدره - ﷺ.

وبين أول السورة وآخرها جاءت الآيات في عدة مواضع آمرة بالتقوى تصريحا وتلميحا، ومعتنية في بناء هذا القلب بناء لا تزعزعه المحن والأحداث.

كما جاءت الآيات لإزالة جميع العوائق التي تحول بين صفاء القلوب، ونقائها، كالسخرية واللمز، والتنابز، والغيبة، والتجسس. بل جاءت آمرة بتخليص القلوب مما قد يشوبها في داخلها فيفسد تقواها، كسوء الظن، والتفاخر، والمنة على الله، وكفى بها مفسدة للقلوب ومدمرة لها.

خامسا: ممن أشار إلى الوحدة الموضوعية للسورة من المفسرين قديما الرازي [3] حيث قال: هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إمام مع الله - تعالى - أو مع الرسول ﷺ أو مع غيرهما من أبناء الجنس، وهم على صنفين، لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجا عنها، وهو الفاسق. والداخل في طائفتهم، السالك لطريقتهم، إما أن يكون حاضرا عندهم أو غائبا عنهم، فهذه خمسة أقسام.

أحدها: يتعلق بجانب الله - جل وعلا -.

ثانيها: يتعلق بجانب الرسول- ﷺ.

ثالثها: بجانب الفساق.

رابعها: بالمؤمن الحاضر.

خامسها: بالمؤمن الغائب.

فذكرهم الله - تعالى في هذه السورة خمس مرات: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) (الحجرات: من الآية١) وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة، مع قسم من الأقسام الخمسة فقال أولا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا

---

١ - أخرجه مسلم (٣٦،٣٧/١) كتاب الإيمان،رقم (٨)، والترمذي (٨/٥)، كتاب الإيمان، رقم (٢٦١٠). وأبو داود (٢٢٣/٤)كتاب السنة،رقم (٤٦٩٥)وغيرهم.

٢ - أخرجه مسلم (١٩٨٦/٤)كتاب البر والصلة رقم (٥٦٤). والترمذي (٢٨٦،٢٨٧/٤) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٢٧).

٣ - ونقلة عنه القاسمي في تفسيره ١٤٦/١٥، وانظر: تفسير الرازي سورة الحجرات ١١٨/٢٧.

بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) (الحجرات: من الآية١) وذكر الرسول ﷺ كان لبيان طاعة الله، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله – ﷺ.

وقال ثانيا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) (الحجرات: من الآية٢) لبيان وجوب احترام النبي– ﷺ.

وقال ثالثا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ) (الحجرات: من الآية٦) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم، وبين ذلك عند تفسير قوله: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) (الحجرات: من الآية٩).

وقال رابعا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ) (الحجرات: من الآية١١) وقال: (وَلا تَنَابَزُوا) (الحجرات: من الآية١١) لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم، والازدراء بحالهم ومنصبهم.

وقال خامسا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) (الحجرات: من الآية١٢) وقال: (وَلا تَجَسَّسُوا) (الحجرات: من الآية١٢) وقال (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً) (الحجرات: من الآية١٢) لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته، وذكر ما لو كان حاضر التأذي+. وهو في غاية الحسن من الترتيب. فإن قيل: لم لم يذكر المؤمن قبل الفاسق [1] ؟ لتكون المراتب متدرجة، الابتداء بالله ورسوله، ثم بالمؤمن الحاضر، ثم بالمؤمن الغائب، ثم بالفاسق؟ نقول: قدم الله ما هو الأهم على ما دونه، فذكر جنب الله، ثم ذكر جانب الرسول ﷺ ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق، والاعتماد عليه، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفارا للصدور.

١ – ليس من باب الاعتراض أو الاقتراح ــ حاشا ــ ولكنه تساؤل قد يطرأ على بعض الأذهان، أو تستحسنه بعض الأفهام.فأجاب عنه.

وأما المؤمن [1] الحاضر أو الغائب، فلا يؤذي المؤمن إلى حد يفضي إلى القتل، ألا ترى أن الله – تعالى – ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال، فقال: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) (الحجرات: من الآية٩) ([2]).

هذه أبرز ملامح الوحدة الموضوعية في هذه السورة، وهذا التصور للوحدة الموضوعية فيها، يسهل علينا فهمها وتناول موضوعاتها، ضمن سياق متناسق متجانس، يكمل بعضه بعضا.

ومن هذا المنطلق سأتناول موضوعات هذه السورة – كما أسلفت – ولكنني سأتناولها، وأنا أنظر إليها وكأنها نـزلت هذا اليوم، تعالج قضايانا، وتعايشنا في شئوننا وشجوننا، وتهدي أمتنا الحائرة، وتعيدها إلى رشدها وسبيل نجاتها. ولن أستطيع أن أحقق ذلك إلا بالالتزام بأمرين:

أحدهما: أن أنطلق في تفسيرها من منطلق سلفنا الصالح – رضوان الله عليهم – في فهم آياتها،وبيان معانيها، وإدراك مدلولاتها، وعدم تحميل الآيات ما لا تحتمل. وأحسب أن القسم التحليلي أصل في تحقيق هذا الجانب.

ثانيهما: ربط الواقع الذي نعيشه بمدلولاتها، وتنـزيل الأحوال في مواضعها، وتقويم اعوجاج حاضرنا في ضوء هداياتها وأنوارها، وأن ندرك أن الترقيع لا يفيد، فقد اتسع الخرق على الراقع، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولم يصلح أولها إلا في الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله، ﷺ بدءا وانتهاء، وهو ما سأحاول تجليته وبيانه، ليكون منهجا للسائرين، ونبراسا للحائرين، وحجة على المخالفين والمعاندين، والله يتولى الصالحين.

---

١ – لعلها: وأما ذكر المؤمن.

٢ – انظر: تفسير الرازي ١١٨/٢٧، وتفسير القاسمي ١٤٦/١٥.

وقفات مع سورة الحجرات

منهج الدعاة.

مع أسماء الله وصفاته.

اللسان في ضوء سورة الحجرات.

ثامناً: الوقفة الأولى: منهج للدعاة

هذه السورة تشتمل على كثير من الأوامر والنواهي، وقد استوقفني فيها بدؤها بـــ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) (الحجرات: من الآية١) بل وتكرار ذلك عدة مرات حيث بلغت خمسا.

إنه النداء المحَبَّبَ إلى النفوس، النداء من الخالق للمخلوقين، النداء من فاطر السماوات والأرض يخاطب عباده بأحب الأسماء إليهم، إنه اسم الإيمان.

إنه – سبحانه – وهو يعاتبهم، ويأمرهم وينهاهم، يناديهم نداء يفتح القلوب المغلقة، والنفوس المعرضة، حتى لا تملك إلا أن تستجيب طائعة مختارة.

إنهم وهم يتقدمون بين يديه – سبحانه – وبين يدي رسوله ﷺ وكفى به معصية، وحسبك به جرما، ومع ذلك (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) (الحجرات: من الآية١).

وحين ترتفع الأصوات عند الحبيب محمد ﷺ ويتأذى بذلك يناديهم ربهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) (الحجرات: من الآية٢).

وعندما تأخذ العجلة بعض النفوس المتحمسة لهذا الدين ويقترحون على رسول الله ﷺ أمورا قد تكون عواقبها وخيمة، ونتائجها مخيفة، يعاتبهم خالقهم ويوجههم بـــ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) (الحجرات: من الآية٢).

وهم يسخرون، ويلمزون، ويتنابزون، بالألقاب يؤدبهم ربهم بـــ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) (الحجرات: من الآية١١).

كذلك والظن السيئ يغشى بعض القلوب الضعيفة، والتجسس يقع من بعض العيون والآذان المريضة، والغيبة تنطق بها ألسنة ساهية، يبين لهم حكم هذه المثالب مصدرا ذلك بـــ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) (الحجرات: من الآية١٢) علام يدل ذلك، إنه يرسم منهجا للدعاة، ويضع أسسا للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

إننا لن نسع الناس بأموالنا، ولكننا قد ننقذ الناس بأخلاقنا. أين كثير من الدعاة عن هذا الأسلوب القرآني، والتوجيه الرباني؟ الخالق الرازق الغني عنا وعن غيرنا، مالك الملك شديد العقاب، ذي الطول، ينادينا ليقوم اعوجاجنا ويقيلنا من عثراتنا، ويهذب سلوكنا، ويكون ذلك بأحب الأوصاف والألقاب إلينا.

وبعض الغيورين على دينهم – والله أغير منهم – يخاطبون الناس بالغلظة والجفاء، وينادونهم بما تشمئز منه نفوسهم، وتأباه آذانهم.

والذي نفسه بغير جمال — لا يرى في الوجود شيئا جميلا

أنت فينا النصوح فارفق جزاك — الله خيرا فالرفق أهدى سبيلا [1]

أين هؤلاء من المنهج الرباني، الذي نراه بارزا في الكتاب والسنة، مما يعدو على الحصر ويعلو على القصر، ولكن أشير إليه إشارة توقظ النائمين، وتنبه الغافلين، وتكون دليلا للدعاة الصَادِقِينَ:

١– أرسل الله موسى وهارون – عليهما السلام – إلى أفجر الناس في زمانه، من ادعى الألوهية، وأجبر الناس على عبادته، وقال: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) (النازعـــات: من الآية٢٤) فبماذا أمر الله موسى وهارون – عليهما السلام –؟

هل أمرهما بإطلاق النار عليه وإردائه قتيلا؟

أو أمرهما بتعنيفه وتغليظ القول له تهديدا ووعيدا؟

١ – آداب النصيحة للقرني ص ٨.

لا هذا ولا ذاك، وإنما قال لهما – سبحانه –: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (طـــه:٤٣، ٤٤) ثم ماذا؟ (فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى) (طـــه:٤٧).

وماذا بعد ذلك؟

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) (طـــه:٤٨).

أرأيتم هذا الخطاب وهذه المخاطبة ؟ أي لين بعد هذا اللين؟

(إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ) (طـــه: من الآية٤٧)، (جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى) (طـــه: من الآية٤٧)، (أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) (طـــه: من الآية٤٨) ولم يقولا: إن العذاب عليك إن كذبت وتوليت؟

إنه أسلوب يأخذ بالألباب، ولذلك لم يجد فرعون – الطاغية، ومدعي الألوهية، ومقتل بني إسرائيل – لم يجد أمام هذا الأسلوب الرائع إلا أسلوب الحوار، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإن كان لم يؤمن، لكنه استسلم وأنصف من نفسه في حواره ولو ظاهرا (فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى) (طـــه: من الآية٤٩) إلى آخر الآيات كما في سورة طه.

إذا كان هذا الأسلوب أثر في فرعون، ومن هو فرعون، ولا أقصد تأثير الإيمان، ولكن في أسلوب الرد عليهما ومحاورتهما ومنازلة موسى بعد ذلك، ولم يستخدم جبروته وطغيانه، كما هو منهجه في حياته، وهو ما سلكه بعد ذلك، بعد أن قامت الحجة عليه.

ولقد جاء رجل واعظ ودخل على المأمون[1] الخليفة العباسي، فقال له الواعظ: يا أمير المؤمنين إني واعظك لكني مشدد عليك.

فقال له المأمون: والله لا أسمع لك، فقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فقال لهما: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (طـــه:٤٣، ٤٤) [2].

---

١ – وقيل أن القصة مع عبد الملك بن مروان.

٢ – انظر: آداب النصيحة ص ٣١، وأشير إلى أن موسى عليه السلام، عندما استخدم جميع الوسائل والأساليب مع فرعون، ولم تجد معه شيئا، ثم أساء فرعون بقوله: "إني لأظنك يا موسى مسحورا" رد عليه موسى ردا يناسبه: "وإني لأظنك يا فرعون مثبورا". ولكل مقام مقال فليعلم.

٢- وصالح - عليه السلام - يخاطب قومه قائلا: (وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) (الأعراف: من الآية٧٩).

٣- ورسول الله ﷺ يثن عليه ربه فيقول:)فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) (آل عمران: من الآية١٥٩).

ويقول - سبحانه -: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:٤) ويقول: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة:١٢٨).

٤- وقال - سبحانه -: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (النحل: من الآية١٢٥).

٥- ويأمرنا الله - سبحانه وتعالى - أن نرد على من أساء إلينا بالتي هي أحسن (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (فصلت: من الآية٣٤) وماذا تكون النتيجة؟ (فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت: من الآية٣٤) إذا كان هذا هو أمثل أسلوب في مواجهة من أساء إلينا، فماذا يكون الأسلوب في مخاطبة من نريد أن نحسن إليه وندعوه إلى دين ربه، وننقذه مما هو فيه؟

ولكن صدق الله العَظِيمُ (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (فصلت:٣٥).

٦- قال رسول الله - ﷺ "إنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين"[(١)].

وقال - ﷺ "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا" [(٢)].

وقال ﷺ "ما وجد الرفق في شيء إلا زانه، وما نــزع من شيء إلا شانه" [(٣)]. والأحاديث في هذا كثيرة جدا.

ومن هنا فإن على الدعاة أن يستحضروا المنهج الرباني في دعوتهم ومخاطبتهم للناس.

أليسوا مبلغين عن الله؟ ماذا يريدون ؟ أيريدون هداية الناس أم تنفيرهم ؟ كيف يكون التاجر أقدر منا على تسويق بضاعته، تأملوا في أخلاقه وأسلوبه ومعاملته للناس. ولا حجة لمن يقول إن الناس أساؤا

١ - أخرجه البخاري (١٠٢/٧) كتاب الأدب.وأبو داود (١٠٣/١) كتاب الطهارة رقم (٣٨٠). والترمذي (٢٧٥،٢٧٦/١) كتاب الطهارة، رقم (١٤٧). وأحمد (٢٣٩،٢٨٢/٢).

٢ - أخرجه البخاري (٢٦/٤) كتاب الجهاد. ومسلم (١٣٥٩/٣) كتاب الجهاد، رقم (١٧٣٣).

٣ - أخرجه مسلم (٢٢٠٤/٤) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٩٤) وأبو داود (٢٥٥/٤) كتاب الأدب، رقم (٤٨٠٨).

إلي، إننا لا ننتظر ممن أساء إلى ربه أن يحسن إلينا، بل إن الناس لا يقبلون الإساءة من الداعية ولو أساءوا إليه. إن منهج سورة الحجرات لا يدع مجالا لمتأول أو مكابر.

فليس أسلوب النداء باسم الإيمان هو الأسلوب الوحيد في هذه السورة، فها هو عندما دعاهم إلى التثبت عند خبر الفاسق، ولفت نظرهم إلى وجود الرسول ﷺ بينهم، وهي نعمة تستحق الشكر والعرفان، يقول لهم: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات: من الآية٧) إنه أسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويفتح مغاليقها (حَبَّبَ) (الحجرات: من الآية٧)، (وَزَيَّنَهُ) (الحجرات: من الآية٧) وأين (فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات: من الآية٧) ثم ماذا (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) (الحجرات: من الآية٧) ومن لم يؤثر فيه الأسلوب الأول فسيؤثر فيه الأسلوب الثاني (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (الرعد: من الآية٣٣) وهل انتهت هذه الأساليب الجميلة في معالجة قضية واحدة ؟ لا، بل (فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً) (الحجرات: من الآية٨) وهذا له دلالته ومراميه.

وأختم هذه الوقفة بما ثبت عن عائشة – رضي الله عنها – عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فأجابت: "كان خلقه القرآن"[(1)].

فهذا القرآن بين أيدينا، فلنتخلق بأخلاق القرآن، فإبراهيم – عليه السلام – نادى أباه – وهو مشرك – يدعوه فيه إلى الإيمان: "يا أبت" وكررها عدة مرات مما يلين الصخرة ويفلق الحجر.

ولقمان يقولا لابنه وهو يعظه: (يَا بُنَيَّ) ([2] مرات عديدة، وبَيْنَهُمَا فلتكن دعوتنا، وبمثل هذا الأسلوب نبلغ رسالتنا: (وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ) (الأعراف: من الآية٦٨).

---

١ – أخرجه مسلم (٥١٣/١) كتاب صلاة المسافرين، رقم (٧٤٦) وأبو داود (٤٠/٢) كتاب الصلاة، رقم (١٣٤٢). والنسائي (١٩٩/٣) كتاب قيام الليل، رقم (١٦٠١).

٢ – أخرجه مسلم (٥١٣/١) كتاب صلاة المسافرين، رقم (٧٤٦) وأبو داود (٤٠/٢) كتاب الصلاة، رقم (١٣٤٢). والنسائي (١٩٩/٣) كتاب قيام الليل، رقم (١٦٠١).

تاسعاً: الوقفة الثانية: مع أسماء الله

أغلب سور القرآن الكريم، نجد في ختام كثير من آياتها بعض أسماء الله – تعالى – كقوله: (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: من الآية٢٢٤)، (وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) (البقرة: من الآية٢٢٥)، (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة: من الآية١٧٣)، (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (الأنعام: من الآية٩٦)، (إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) (النساء: من الآية٥٨)، (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً) (النساء: من الآية٥٦)، (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (الأنعام: من الآية٨٣) إلى غير ذلك من أسماء الله – تعالى –.

وفي هذه السورة ختمت بعض الآيات ببعض أسماء الله الحسنى وهي: (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: من الآية١٨١) في الآية الأولى (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة: من الآية١٧٣) في الآية الخامسة، وفي الآية الثامنة (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (النساء: من الآية٢٦) و(إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) (الحجرات: من الآية١٢) في الآية الثانية عشرة، و (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (لقمان: من الآية٣٤) في الآية الثالثة عشرة، وفي الآية الرابعة عشرة: (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة: من الآية١٧٣) أما الآية السادسة عشرة فجاءت هكذا (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة: من الآية٢٨٢) وختمت السورة بـــ(وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحجرات: من الآية١٨).

ومن الملحوظ أن كثيرا من الناس يقرأ هذه الآيات في كتاب الله، ولا يقف عند سر ختامها بهذه الأسماء الحسنى.

بل إن الكثير ممن يقرأ القرآن، قد يخلط في هذه الأسماء – بدون عمد – فيضع "الرحيم" بدل "الحليم" أو "البصير" بدل "الخبير"، ويقرأ (وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً) (النساء: من الآية٧٩) مكان (وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً) (النساء: من الآية٧٠) وهكذا، والسبب في ذلك عدم فهم مدلولات هذه الأسماء وعلاقة ذلك بالآيات التي ختمت بها، مما يسميه العلماء "سر تذييل الآية" حتى إن الشيطان قد يوسوس للبعض بأن ختام هذه الآية بهذه الأسماء أو تلك لا يغير من الأمر شيئا، وكأنها جاءت مصادفة، حاشا لله من ذلك، وتعالى الله عما يوسوس الشيطان علو كبيرا.

ولأهمية هذه القضية أَحَبَّت أن أقف هذه الوقفة وبخاصة أن قرابة نصف آيات هذه السورة ختمت بأسماء الله الحسنى، وقد بلغت ثمانية أسماء، كرر بعضها عدة مرات، ومجموعها (١٤) اسما. وسأجعل هذه الوقفة ضمن عناصر متسلسلة ليسهل تحقيق المراد، والوصول إلى الغاية.

١- قال الله - تعالى -: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأعراف:١٨٠).

إن توحيد الأسماء والصفات أحد أقسام التوحيد المعروفة، وله شأن عَظِيمٌ في عقيدة المسلم وإيمانه، ولذلك هدد الله أُولَئِكَ الذين يلحدون في أسمائه، بالجزاء في الآخرة، وجزاؤهم جهنم وساءت مصيرا، ولذلك لما قال المشركون وما الرحمن، إنه يدعو إلهين رد الله عليهم فأنـــزل: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (الإسراء: من الآية١١٠) فكلها أسماؤه - جل وعلا - ولذلك ثبت عن المصطفى، ﷺ أنه قال: "إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة" [1].

٢- إن أسماء الله - جل وعلا - كلها لمسمى واحد، هو الله سبحانه، ولكن كل اسم منها يدل على صفة من صفاته تنـــزه وتقدس، فالسميع يدل على السمع، والبصير يدل على البصر، والعَلِيمٌ يدل على العلم، والحليم يدل على الحلم، والغفور يدل على المغفرة، والكريم يدل على اتصافه بالكرم - سبحانه وتعالى - وهكذا بقية الأسماء له سبحانه.

٣- إن الإيمان بأسماء الله ﷻ وصفاته لا يتم على الوجه الصحيح إلا أن ينبني الفهم فيها على أسس مهمة ذكرها الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - حيث قال: نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله، وأن تلتزموا بثلاث آيات من كتاب الله:

الأولى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى: من الآية١١) فنـــزهوا رب السماوات والأرض عن مشابهة الخلق.

١ - أخرجه البخاري (١٦٩/٨) كتاب التوحيد. والترمذي (٤٩٦/٥)كتاب الدعوات، رقم (٣٥٠٧).

الثانية: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى: من الآية١١) فتؤمنوا بصفات الجلال والكمال الثابتة بالكتاب والسنة على أساس التنـــزيه كما جاء (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى: من الآية١١) بعد قوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى: من الآية١١) .

الثالثة: أن تقطعوا أطماعكم عن إدراك حقيقة الكيفية، لأن إدارك حقيقة الكيفية مستحيل، وهذا نص الله عليه في سورة طه حيث قال – تعالى –: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) (طـــه:١١٠) [١] إن ما ذكره العلامة الشنقيطي أصل وقاعدة وأساس لفهم أسماء الله وصفاته، ومن ثم تحول هذا الفهم إلى إيمان وعمل.

٤- إن من أعظم ثمار معرفة أسماء الله – جلا وعلا – والإيمان بها هو الفهم الصحيح لمدلولاتها، والتجاوب مع هذا الإيمان وهذا الفهم، بحيث لا تصبح مجرد فهوم ذهنية لا رصيد لها في واقع الحياة على الفرد والأمة.

إن معرفة الاسم، ومن ثم معرفة الصفة تجعل المسلم يتجاوب مع تلك الحقائق ويتأثر بها، إنه لا بد من العلم الذهني، والإيمان القلبي، والتفاعل الواقعي، ماذا يفيد معرفة أن الله هو الرزاق، وهو يطلب الرزق من غيره، ويعلم أنه العزيز القوي الجبار، ويطلب العزة من سواه، ويدرك أنه السميع البصير العَلِيمٌ، ولا يستحي منه – جل وعلا – في صغيرة ولا كبيرة، ويقول إنه الواحد وصفته الوحدانية، ويشرك معه في الطاعة والعبادة، وغير ذلك من أنواع الشرك من الأحياء والأموات.

ولذلك يقول ابن القيم – رحمه الله –:

والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر، اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكل صفة عبودية خاصة، هي من موجباتها ومقتضياتها، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها.

١ – انظر: رسالة "إن ربك حكيم عليم" للشيخ عبد العزيز الجليل ص ٧.

وهذا مطرد بجميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب - تعالى - بالضر والنفع، والعطاء، والمنع، والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، يثمر له عبودية التوكل عليه باطنا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرا.

وعلمه بسمعه - تعالى - وبصره، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياة باطنا، ويثمر له الحياة اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعا من العبودية الظاهرة هي من موجباتها.

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلي يوجب له محبة خاصة بمنـــزلة أنواع العبودية.

فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها، فخلقه - سبحانه - وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها [1].

وهذا البيان من العلامة ابن القيم يدل على أهمية تأمل الأسماء والصفات والإيمان بها بعد العلم بها، ومن ثم يتحول الإيمان والعلم بها إلى قوة مؤثرة في حياة المسلم، فهي قوة مانعة ودافعة، دافعة إلى الخير والعمل الصالح، ومانعة من الشر ومهاوي الردى.

٥- من المؤسف أن تحول هذا النوع من أنواع التوحيد إلى جدل كلامي، وبحوث فلسفية.

فأصبحت أكثر المؤلفات التي تتناول الأسماء والصفات مليئة بالمناقشات الكلامية، مع الأشاعرة والمعتزلة والجهمية، دون أن تجد وقوفا إيمانيا وتربويا حول مدلولاتها وآثارها، إلا في النـــزر اليسير.

---

١ - انظر: مفتاح دار السعادة ص ٤٢٤، ورسالة: "إن ربك حكيم عليم" للجليل ص ٩.

ومن ثم انتقل هذا الأسلوب إلى الذين يدرسوه ويدرسون أنواع التوحيد، مع أنهم يتلقونها في ضوء منهج أهل السنة والجماعة.

إنني لا أقلل من أهمية تناول الأسماء والصفات كما تناولها كثير من السلف، بل إن ذلك من أهم الواجبات، وكيف نجد آثارها قبل إثباتها، إننا يجب أن نثبت لله ما أثبته لنفسه، من الأسماء والصفات، وما أثبته له رسوله ﷺ وننفي عنه ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله ﷺ وقد يقتضي ذلك الوقوف مع أهل البدع، الذين خرجوا عن منهج السلف، وأولوا في أسماء الله وصفاته، وأن نرد على شبههم وما أحدثوه فيها وحولها.

ولست مع الذين يطالبون بإلغاء دراسة الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة، فإن معرفة الشر وسيلة لاتقائه، فحذيفة رضي الله عنه كان يسأل رسول الله ﷺ عن الشر مخافة الوقوع فيه [1] وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية، ولكنني أرى أن الإغراق في هذا الأمر يخرج عن الهدف الذي دخل فيه من أجله.

وكذلك لا بد من تناول الجانب الإيماني في الأسماء والصفات، والجانب العملي لها، بعد إثباتها لله كما أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله - ﷺ.

ولذلك نجد أن منهج الأسماء والصفات في القرآن هو الإثبات المفصل والنفي المجمل - كما قال شيخ الإسلام - ولم يأت النفي المفصل إلا في مواضع قليلة لها أسبابها. ومن هنا فإن منهج السلف كان في ضوء ذلك، وأغلب الذين ألفوا منهم سلكوا هذا المنهج، كالإمام أحمد بن حنبل، وابن أبي عاصم، واللالكائي وغيرهم من الأعلام.

وأما ما سلكه شيخ الإسلام [2] - رحمه الله - فله أسبابه ودواعيه [1] ولقد أثرى المكتبة الإسلامية بما لم يأت به أحد قبله ولا بعده إلى يومنا الحاضر، فهو ممن حرر منهج أهل السنة تحريرا كاملا، وبينه وبسطه بما لا ينكره إلا مكابر، ولا يجحده إلا معاند.

---

١ - أخرجه البخاري (٩٣/٨) كتاب الفتن. ومسلم (١٤٧٥/٣)كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٧).

٢ - أي في بعض مؤلفاته لا كلها، بل له عدد من الرسائل والكتب في تأصيل منهج أهل السنة والجماعة، وبيان أنواع التوحيد.

وهذه قضية آمل أن يصرف لها العلماء اهتمامهم وعنايتهم، ويفردوها بالتأليف والبحث كما أفرد غيرها.

وكذلك فإن على المربين والمعلمين والدعاة مسئولية خاصة في إبراز هذا الجانب وتأصيله [٢].

٦- إن دراسة توحيد الأسماء والصفات، في ضوء منهج السلف الصالح ينقلنا إلى الأفق الواسع، والميدان الرحب لمفهوم أهل السنة والجماعة، ويعطينا الأبعاد الحقيقية لمعنى (السلفية).

إن مفهوم (السلفية) قد ضاق في أذهان كثير من المنتسبين إليها، ومن ثم تشوشت عقول وأفهام كثير ممن لا يعرفونها، ولا ينتسبون إليها حق الانتساب.

إن المفهوم الواعي لمعنى السلفية هو ما يعبر عنه الشيخ عبد العزيز الجليل عندما يقول:

إن السلفية الحقة لا تقبل أن تستهدف الدعوة في بعض المواقع تحرير العقائد من شرك الأموات والتمائم، وتضرب صفحا عن شرك الأحياء والأوضاع والنظم، والتي لا تقل خطرا عن شرك الأصنام، وكلا الشركين خطير. كما لا تقبل السلفية الحقة أن تحارب التشبيه والتعطيل في صفات الله ﷻ وتقف عند ذلك، ولا تعلن الحرب على تعطيل الشريعة وتحَكِيم القوانين الوضعية، وفصل الدين عن الدولة.

وإننا بهذا المنهج الشامل والسلفية (الواعية) نسلم وتسلم عقيدتنا الثابتة من أي خلط أو اهتزاز، كما هو الحاصل في هذه الأيام، ولكنها الفتن، نعوذ بالله منها، ما ظهر منها وما بطن [٣].

بل قد وصل الأمر في تضييق مفهوم (السلفية) وتحجيم (منهجها) أي منهج أهل السنة والجماعة، إلى أن يرمى من يريد عرض منهج السلف في ضوء الكتاب والسنة، وأن يقرر التوحيد بأنواعه الثلاثة، ويدعو الناس إلى ألا يفرقوا بين توحيد وتوحيد، فكلها من لوازم الإيمان، والخروج عن أي واحد منها

---

١ – من ذلك انتشار المدارس الكلامية في زمانه، وتأثيرها على الناس، وكذلك فأغلب ما كتب في هذا الجانب كان إجابة لسؤال، أو معالجة لقضية واقعة، ولم يسلك هذا المنهج ابتداء بدون سبب فرحمه الله وجزاه عنا وعن الإسلام خير الجزاء.

٢ – انظر: رسالة:" إن ربك حكيم عليم "ص ١١ ولقد أجاد وأفاد وفقه الله.

٣ – انظر: رسالة: "إن ربك حكيم عليم " ص ٤٣.

من نواقض الإسلام، ومع ذلك تجد من يصم من يسلك هذا المنهج السلفي الحق بالخروج عن السلفية، ويرميه بالبدعة وعظائم الأمور، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

٧- ونتيجة لعدم إدراك ما لأسماء الله وصفاته من أثر في حياة الأفراد والجماعات، نشأت مظاهر مؤسفة، أبعدت كثيرا من المسلمين عن حقيقة الإسلام وأهدافه ومثله العليا، وأصبحت بعض حقائق التوحيد نظريات لا رصيد لها في الواقع، ولا أثر لها في الوجود عند بعض المسلمين، ويعبر عن ذلك الأستاذ المربي محمد قطب حيث يقول:

يقول الله – سبحانه وتعالى -: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) (الذاريات:٥٨) ولو أنك سألت أي إنسان في الطريق من الذي يرزقك لقال لك على البديهة: "الله". ولكن انظر إلى هذا الإنسان إذا ضيق عليه في الرزق يقول: فلان يريد قطع رزقي، فما دلالة هذه الكلمة؟

دلالتها: أن تلك البديهة التي نطق بها لم تكن يقينا قلبيا، إنما كانت بديهة ذهنية فحسب، وبديهة تستقر في وقت السلم والأمن، ولكنها تهتز إذا تعرضت للشدة، لأنها ليست عميقة الجذور [١].

وصدق حفظه الله، فقد كنت في دولة عربية وذهبت للصلاة في أحد مساجدها، فرأيت أن الإمام – أو أحد المأمومين – يقرأ آية الكرسي بعد الصلاة مباشرة، وبصوت مسموع [٢] ولحظت أكثر من مرة أن الإمام وهو يقرأ آية الكرسي – وهي أعظم آية في كتاب الله – وفيها من أسماء الله وصفاته ما لا يوجد في آية غيرها، وفي أثناء قراءته لها، يسلم على هذا، ويبتسم لذاك، ويعاتب ثالثا وينظر إلى رابع، كل ذلك إما بيده أو رأسه أو عينه أو شفتيه.

أين الخشوع لكلام الله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الأنفال:٢)، (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) (الحشر: من الآية٢١).

أين التفكر والتدبر (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأعراف:٢٠٤).

---

١ – انظر: واقعنا المعاصر ص ٤٨٦، ورسالة:ة "إن ربك حكيم عليم" ص ٤٤.

٢ – قراءة آية الكرسي بشكل جماعي من البدع المنتشرة في كثير من البلاد.

وليست هذه حالة فردية، بل وجدت مثل هذه الحالة، أو قريبا منها في أكثر من مسجد في ذلك البلد.

ولذلك فلا غرو ألا نرى أثر الإيمان بأسماء الله وصفاته في حياة كثير من المسلمين؛ لأن الإيمان على وجهه الشرعي لم يتم حقيقة، فكيف نرى أثره.

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه　　　وتغرس إلا في منابتها النخل

من يزرع الحنظل لا يرتجي　　　أن يجتني السكر من غرسته.

٨- وأخيرا فإذا استقر هذا الأمر في عقولنا وأفهامنا، استطعنا أن ندرك بعض مدلولات ورود هذه الأسماء في سورة الحجرات وغيرها. فقد ورد في هذه السورة - كما سبق - اسم السَّمِيعُ والعَلِيمُ والغَفُور والرَّحِيمُ والحَكِيمُ والتَّوَّابُ والخَبِيرُ والبَصِيرُ وهذه الأسماء بعضها جاء مرة واحدة، وبعضها مرتين، وبعضها ثلاث مرات، وبعضها أربعا.

وهنا يعيش المسلم مع هذه الأسماء المستلزمة للصفات، وبذلك يحقق أهداف هذه السورة ومراميها، فإذا أيقن أن الله سميع بصير عَلِيمٌ خبير، هل يرفع صوته، أو ينال من عرض أخيه المسلم همزا أو لمزا؟.

وهل يتجسس على عورات المسلمين، والله يسمعه ويراه وهو قد نهاه.

وإذا آمن حقيقة بأن الله حَكِيمٌ خبير هل يتقدم بين يدي الله ورسوله؟ وهل يقترح على الله ورسوله؟ كلا وحاشا.

وإذا نظر إلى ذنوبه وأخطائه، بسبب ما وقع فيه من هذه الآثام التي ذكرتها سورة الحجرات، وكاد اليأس أن يوصله إلى الهاوية أو الإصرار، فتذكر من خلال هذه السورة أن الله (غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة: من الآية١٧٣) وأنه (تَوَّابٌ رَحِيمٌ) (الحجرات: من الآية١٢) انفتحت له الأبواب، وعاد عن ذنوبه ينشد الرحمة والغفران. وقل مثل ذلك في كل موضوعات السورة، وبهذا تتحقق أهداف السورة لإصلاح المجتمع وتقويم اعوجاجه وتنقيته من الشوائب والمثالب.

وبهذه الأسماء والصفات يبنى الإيمان الذي جاءت السورة لتحقيقه وغرسه في نفوس الأجيال.

وبهذا نتفاعل مع هذه الأسماء والصفات عقيدة وعبادة وعملا، تصورا وسلوكا وخلقا.

عاشراً: الوقفة الثالثة: اللسان في ضوء سورة الحجرات

مما لفت نظري أثناء معايشتي لسورة الحجرات أن هذه السورة عالجت موضوع اللسان معالجة شاملة، حيث إن كل موضوعاتها لها ارتباط مباشر ووثيق باللسان من أول قضية إلى آخر موضوع، وهو موضوع الأعراب.

ذلك أن كل قضية وردت في هذه السورة فاللسان طرف أساس فيها، فعند معالجتنا لهذه القضايا لا بد من مراعاة هذا الجانب المهم، فإن الغفلة عنه قصور في النظر والمعالجة. ولنأخذ موضوعات هذه السورة ونبين صلة اللسان بكل قضية منها، ليتضح ما أشرت إليه آنفا:

١- موضوع التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ صورة متعددة، ومن ذلك التقدم بالكلام، يبين ذلك ما يلي:

قال ابن عباس: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة [١] والقول يكون باللسان غالبا [٢].

وفي رواية أخرى عن ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه [٣].

وهذا صريح في علاقة اللسان بذلك.

وقال قتادة: ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون: لو أنــزل في كذا لو وضع كذا وكذا. وهذا من القول وهو باللسان [٤]. ومن خلال ما سبق يتضح أثر اللسان في التقدم المنهي عنه.

٢- أما الموضوع الثاني فهو في رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) (الحجرات: من الآية٢).

وهذه الآية صريحة في الدلالة على أن اللسان هو أداة ذلك، وذلك لأن رفع الصوت والجهر به أداته اللسان فحسب، دون بقية الجوارح.

---

١ – انظر: تفسير الطبري ١١٦/٢٦.

٢ – لأنه قد يكون كتابة ونحوها.

٣ – انظر: تفسير الطبري ١١٦/٢٦.

٤ – انظر: تفسير الطبري ١١٧/٢٦.

٣- أما القضية الثالثة فهي: مناداة الرسول ﷺ من وراء الحجرات (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (الحجرات:٤) والنداء، وبخاصة إذا كان من وراء حجاب فإن آلته هي اللسان.

٤- والآية السادسة جاءت تعالج موضوع الأنباء والأخبار، و وجوب التبين والتثبت فيها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)(الحجرات: من الآية٦) والأخبار والأنباء من وسائل إيصالها ونقلها وتبليغها هو اللسان، وقصة الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي نـــزلت الآية بسببه وما فعله مع بني المصطلق كان نبؤه باللسان، فلم يرسل رسالة ولا رسولا، بل جاء للرسول - ﷺ - وذكر له ما ادعاه على بني المصطلق، وحدثه ذلك بلسانه فكان اللسان طرفا أساسا في ذلك.

٥- أما القضية الخامسة التي جاءت في ثنايا السورة فهي قضية اقتتال طائفتين من المؤمنين ووجوب الصلح بَيْنَهُمَا

والقتال الذي حدث ليس باللسان، وإنما كان ضربا بالنعال والعصي ونحوهما دون سلاح [1].

ولكن عندما ندرس سبب هذا الاقتتال والخلاف، نجد أنه ابتدأ بالكلام باللسان ثم تطور حتى وصل إلى الاشتباك بالأيدي ونحوها.

فلو لم يحدث الكلام من ابن أبي لم تصل الأمور إلى ما وصلت إليه. حيث قال عبدالله بن أبي لرسول الله - ﷺ والله لقد آذاني نتن حمارك، فرد عليه رجل من الأنصار: والله لنتن حمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك [2] ثم جاءت كلمة من هنا وكلمة من هناك حتى وصلت الأمور إلى الاقتتال بالأيدي والجريد والنعال.

٦- ثم جاءت الآيات بعد ذلك تعالج موضوع السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وكذلك سوء الظن والتجسس والغيبة. ومما يسلك فيما مضى التفاخر بالأنساب ونحوها.

---

١ - انظر: تفسير الطبري ١٢٨/١٦.

٢ - انظر: تفسير الطبري ١٢٨/١٦ وقد تقدم تخريج هذه الحادثة.

وإذا تأملنا ذلك وجدنا أن اللسان قطب الرحى في كل هذا، وبخاصة الغيبة والتنابز والتفاخر، وكذلك السخرية واللمز، فاللسان له من ذلك أوفى نصيب، أما التجسس وسوء الظن فإن أصل ذلك ليس باللسان، ولكن يشترك اللسان في النتيجة، فغالبا ما يخبر عن نتيجة التجسس، أو الحديث عن سوء ظنه بأخيه، ولولا مساهمة اللسان لكان أثر التجسس وسوء الظن محدودا في الغالب الأعم.

٧- أما الموضوع الأخير وهو إسلام الأعراب، فيكفي أن نتأمل الآيات، التي نـــزلت في هذه القضية لنرى دور اللسان في هذا الأمر، (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)(الحجرات: من الآية١٤) فانظر إلى لفظة: (قَالَتِ) (الحجرات: من الآية١٤)، و(قُلْ) (الحجرات: من الآية١٤)، و(قُولُوا) (الحجرات: من الآية١٤) وهل القول إلا باللسان، فكأن القضية قول في قول، ولذلك قال – سبحانه –: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)(الحجرات: من الآية١٤).

قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب: أن الله تقدم إلى هؤلاء الأعراب الذين دخلوا في الملة إقرارا منهم بالقول، و لم يحققوا قولهم بعملهم أن يقولوا بالإطلاق آمنا. إلخ [١].

وبعد:

فمن خلال هذا الاستعراض لموضوعات السورة وبيان مكانة اللسان من ذلك، يجدر بنا أن نقف وقفة مناسبة للحديث عن هذا اللسان، وبيان منـــزلته، وأثره في الخير والشر، وما يجب تجاهه.

مكانة اللسان

للسان مكانة عظيمة جدا، فهو نعمة عظمى وهبة من الله لعباده المؤمنين، وتتضح مكانة اللسان من خلال ما يلي:

١- أنه به ينطق بأعظم كلمة، وهي كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

٢- يقول – سبحانه – ممتنا على عباده: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ) (البلد:٨، ٩).

قال قتادة في تفسر الآية: نعم من الله متظاهرة، يقررك بها كيما تشكره [١]. وقال ابن كثير في تفسيره: (وَلِسَانًا)[٢] أي: ينطق به فيعبر عما في ضميره [٣].

---

١ – انظر: تفسير الطبري ١٤٢/٢٦.

٣- ومما يدل على مكانة هذه الجارحة ما ذكره الله عن موسى - عليه السلام - عندما نادى ربه: (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) (طــه:٢٧، ٢٨) وقال في موضع آخر: (وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي)(الشعراء: من الآية١٣) وعندما طلب من ربه أن يجعل معه وزيرا من أهله، وهو هارون - عليه السلام - قال في ثنايا طلبه: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي)(القصص: من الآية٣٤).

٤- أنه بها [٤] نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، وندعو إلى الله - جل وعلا -، ونذكر الله علانية وجهرا.

٥- بهذه الآلة الصغيرة نقضي جل حوائجنا، ونعبر عما في نفوسنا، ولذلك قال ابن كثير في تفسير قوله - تعالى -: (وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ) (البلد:٩) أي: ينطق به فيعبر عما في ضميره.

٦- ومن الأدلة المحسوسة على مكانة هذه الآلة وعظم نعمة الله علينا بها، عندما نتأمل في حال المحروم منها وهو "الأبكم" فإننا ندرك عظم هذه المنة الإلهية: هل يستطيع الأبكم أن يعبر عما في نفسه؟

إنه عندما يريد التعبير عن شيء فإنه يستخدم كثيرا من أعضائه: اليدين، والفم، والشفتين، والرأس، بل وحركة جسمه أحيانا، ومع ذلك لا يستطيع أن يعبر كما يريد، وقد يجلس فترة ليعبر فيها عن معنى يعبر عنه السليم بكلمة واحدة أو كلمتين.

وقد يعبر عن مراده ولكن بشق الأنفس من الأبكم ومن يريد أن يعبر له.

وكم من مرة ذهب الأبكم حزينا كئيبا لأنه لم يستطع أن يعبر عما في نفسه، ويزداد الأمر سوءا إن فهم منه غير ما يريد.

ومما سبق يتضح لنا قيمة هذه النعمة، ومكانة هذه الجارحة (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)(ابراهيم: من الآية٣٤).

---

١ - انظر تفسير الطبري ١٩٩/٣٠.

٢ - انظر تفسير الطبري ١٩٩/٣٠.

٣ - انظر تفسير ابن كثير ٥١٢/٤.

٤ - أي بهذه الجارحة، وهي اللسان.

خطورة هذه الجارحة

هذه الآلة نعمة من الله لمن استخدمها في الخير وحافظ عليها، ولذلك جاء قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً) (الأحزاب:٧٠) وجاء في الحديث الصحيح: "إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه" [١]. الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفع الله بها درجات" [٢]. الحديث.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إن الرجل يصدق حتى يكتب صديقا" [٣] وفي رواية عنه قال: قال رسول الله – ﷺ "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا" [٤] الحديث.

فإذا استخدم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وقراءة القرآن، والذكر، والاستغفار، ونصرة المظلوم، والدعاء ونحو ذلك، كان من خير النعم على العبد.

أما إذا استخدم بضد ذلك فإنه نقمة عظيمة على صاحبه، وقد جاءت الآيات والأحاديث تبين خطورة اللسان إذا لم يضبط بضابط الشرع، قال – سبحانه –: (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) (النور:١٥).

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ) (الصف:٢، ٣).

---

١ – أخرجه الترمذي (٤٨٤/٤) كتاب الزهد، رقم (٢٣١٩) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٣١٣/٢) كتاب الفتن، رقم (٣٩٦٩).

٢ – أخرجه البخاري (١٨٥/٧)كتاب الرقاق. وأخرجه مالك في الموطأ موقوفا على أبي هريرة (٩٨٥/٢) كتاب الكلام، رقم (٦).

٣ – أخرجه مسلم (٢٠١٢/٤) كتاب البر والصلة رقم (٢٦٠٦).

٤ – أخرجه البخاري (٩٥/٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٠١٢/٤)، كتاب البر والصلة، رقم (٢٦٠٧).

وقال عن المنافقين: (فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ)(الأحزاب: من الآية١٩)، وقال: (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)(الفتح: من الآية١١)، وقال: (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ)(النحل: من الآية٦٢).

وقال – تعالى – مبينا خطورة ما نتكلم به: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (قّ:١٨).

وقال ناهيا عن رمي الناس بالباطل، (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (الإسراء:٣٦).

وقال – سبحانه –: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً)(لأعراف: من الآية٣٧).

وقال: (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) (القلم:١١)، وقال: (وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ)(النحل: من الآية١١٦) وقال: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ)(الحج: من الآية٣) وقال: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ) (الشعراء:٢٢٤-٢٢٦)، وقال: (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) (الهمزة:١)، وقال: (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)(النساء: من الآية١٤٨)، وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ)(الحجرات: من الآية١١) والآيات في هذا الباب كثيرة جدا.

أما الأحاديث فيصعب حصرها، ولكن أذكر بعضا منها مما يبين خطورة هذا اللسان إذا لم يستخدم في طاعة الله.

ومن أعظم الأحاديث التي وردت في ذلك الحديث الذي رواه الترمذي، عندما سأل معاذ رسول الله ﷺ قائلا: وهل نحن مؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله، أجابه ﷺ قائلا: "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم" [1].

وقال – ﷺ "إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه" [2].

---

١ – أخرجه الترمذي (١٣/٥) كتاب الإيمان، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه (١٣١٥/٢) كتاب الفتن، رقم (٣٩٧٣). وأحمد (٢٣١،٢٣٧/٥). وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٥٣٦).

٢ – أخرجه الترمذي (٤٨٤/٤) كتاب الزهد، رقم (٢٣١٩)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وابن ماجه (١٣١٣/٢) كتاب الفتن، رقم (٣٩٦٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق" [١].

وفي روايه لمسلم: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب" [٢]. وقال ﷺ "لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم" [٣].

وفي حديث ابن مسعود عنه ﷺ أنه قال: "وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا" [٤].

وفي حديث سمرة الطويل – الذي رواه البخاري –: في رؤيا الرسول ﷺ وفي آخره: قال – ﷺ "قلت طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت قالا: "نعم": أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة" [٥].

وفي رواية للبخاري أنه قيل للنبي – ﷺ "وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق" [٦].

وقال – ﷺ "ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له" [٧].

وأخيرا أختم بهذه الأحاديث:

---

١ – أخرجه البخاري واللفظ له (١٨٤/٧) كتاب الرقاق، ومسلم بلفظ: " يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب" (٢٢٩٠/٤) كتاب الزهد، رقم (٢٩٨٨).

٢ – صحيح مسلم (٢٢٩٠/٤) كتاب الزهد، رقم (٢٩٨٨).

٣ – أخرجه أبو داود (٢٦٩/٤) كتاب الأدب،رقم (٤٨٧٨). وأحمد (٢٢٤/٣) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥٢١٣).

٤ – أخرجه البخاري (٩٥/٧) كتاب الأدب. ومسلم (٢٠١٢/٤). كتاب البر والصلة، رقم (٢٦٠٧). أبو داود (٢٩٧/٤) كتاب الأدب، رقم (٤٩٨٩).

٥ – أخرجه البخاري (٩٥/٧) كتاب الأدب.

٦ – أخرجه البخاري (٨٦/٨)كتاب التعبير. وأحمد (٨،٩/٥).

٧ – أخرجه أبو داود (٢٩٧،٢٩٨/٤) كتاب الأدب،رقم (٤٩٩٠)، والترمذي (٤٨٣/٤) كتاب الزهد، رقم (٢٣١٥)وقال: حديث حسن، وأحمد (٥/٥)، وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٧١٣٦).

عن أبن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله – ﷺ "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله – تعالى – قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله – تعالى – القلب القاسي" [١].

وقال – ﷺ "من يضمن لي ما بين لحييه وما بين فخذيه أضمن له الجنة" [٢].

وقال – ﷺ "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" [٣].

وخير ختام وصية رسول الله ﷺ لعقبة بن عامر عندما سأل رسول الله ﷺ ما النجاة، فقال له: "أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك" [٤].

هذه بعض الأحاديث التي تبين خطورة هذا اللسان وما يجب تجاهه، وكما ذكرت سابقا، فإن الأحاديث التي وردت في ذلك تعدو على الحصر، ولكن اخترت منها بعض ما رأيته مناسبا للمقام، والله المستعان [٥].

أقوال السلف في اللسان

للعلماء أقوال في اللسان، تدل على أهمية وخطورة هذه الجارحة، وسأذكر بعض أقوال هؤلاء العلماء من السلف ومن بعدهم، لتكون هذه الأقوال إضاءة تنير للمسلم الطريق في حفظ لسانه وكيف يتقي شره ويستثمر خيره [٦].

كان ابن مسعود رضي الله عنه يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان [٧].

---

١ – أخرجه الترمذي (٥٢٥/٤) كتاب الزهد رقم (٢٤١١)قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب. قلت: وقد اختلف العلماء في تصحيح هذا الحديث لاختلافهم في إبراهيم هذا. فاعتمد الشيخ أحمد شاكر توثيق ابن حبان له، ومن ثم صحح هذا الحديث كما في عمدة التفسير (١٦٨/١) أما الألباني فقد ضعف هذا الحديث معتمدا على قول ابن القطان فيه " لا يعرف حاله ". انظر: ضعيف الجامع رقم (٦٢٦٥)، السلسلة الضعيفة رقم (٩٢٠).

٢ – أخرجه البخاري (١٨٤/٧) كتاب الرقاق، وأخرجه الترمذي (٥٢٤/٤) كتاب الزهد، رقم (٢٤٠٨، ٢٤٠٩). وأحمد (٣٦٢/٥) +بألفاظ متقاربة.

٣ – أخرجه البخاري (٨/١) كتاب الإيمان، ومسلم (٦٥/١)، كتاب الإيمان، رقم (٤١)، والترمذي (١٨/٥) كتاب الإيمان، رقم (٢٦٢٧)، وأبو داود (٤/٣) كتاب الجهاد، رقم (٢٤٨١).

٤ – أخرجه الترمذي (٥٢٣/٤) كتاب الزهد، رقم (٢٤٠٦) وقال: حديث حسن، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٣٩٢).

٥ – من أراد التوسع فليرجع إلى كتب آفات اللسان ومنها كتاب آفات اللسان لسعيد بن علي بن وهف القحطاني، فإنه قيم في بابه جزى الله مؤلفه خيرا.

٦ – انظر: آفات اللسان لسعيد القحطاني ص ١٦١ وما بعدها، فقد أفدت منه.

٧ – جامع العلوم والحكم ص ٢٤٢.

وقال ابن بريده: رأيت ابن عباس – رضي الله عنهما – آخذ بلسانه وهو يقول: ويحك، قل خيرا تغنم، أو أسكت عن سوء تسلم، وإلا فاعلم أنك ستندم. فقيل له: يا ابن عباس لم تقول هذا ؟ قال: إنه بلغني أن الإنسان أراه قال: ليس على شيء من جسده أشد حنقا وغيظا يوم القيامة منه على لسانه إلا من قال خيرا، أو أملى به خيرا [١].

وعن عمر رضي الله عنه أنه دخل على أبي بكر رضي الله عنه وهو يجبذ لسانه، فقال له عمر: مه غفر الله لك، فقال أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد [٢].

وقال عمر رضي الله عنه بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع [٣]

وقال ابن وهب: قال لي مالك: اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماما أبدا وهو يحدث بكل ما سمع [٤]

وقال عبد الرحمن بن مهدي: لا يكون الرجل إماما يقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع [٥].

وقال يحيي بن معاذ: القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلم، فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلو وحامض وعذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه [٦].

وقال ابن القيم: وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يغري في الأحياء والأموات ولا يبالي ما يقول [٧].

وقال يونس بن عبيد: ما رأيت أحدا لسانه منه على بال إلا رأيت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطق رجل قط إلا عرفت ذلك في سائر عمله [١].

---

١ – جامع العلوم والحكم ص ٢٤١.

٢ – انظر: موطأ الإمام مالك ٩٨٨/٢.

٣ – انظر: مقدمة مسلم ١١/١.

٤ – مقدمة صحيح مسلم ١١/١.

٥ – مقدمة صحيح مسلم ١١/١.

٦ – انظر: حلية الأولياء ٦٣/١٠.

٧ – انظر: الجواب الكافي ص ٢٧٧.

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يوم حار، ويوم بارد [٢].

وقال الإمام النووي – رحمه الله –: اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلاما تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام، أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء [٣].

هذه بعض أقوال السلف ومن تبعهم بإحسان حول مكانة اللسان وخطورته ووجوب المحافظة عليه، وهي تعبر عن تجربة عملية لهؤلاء الأعلام أتحفونا بثمرة علمهم وتجاربهم، فهل من معتبر أو متذكر؟

اللسان والشعر

اهتم كثير من الشعراء باللسان، فجاءت كثير من الأبيات حكما ناطقة، حول ما يجب أن تحيط به ألسنتنا، خوفا من المزالق والنكبات وسأختار بعض الأبيات التي تدل على هذه الحقيقة وترشد إليها [٤].

قال الشاعر:

**يصاب الفتى من عثرة بلسانه		وليس يصاب المرء من عثرة الرجل**

**فعثرته بالقول تذهب رأسه		وعثرته بالرجل تبرأ على مهل**

وقال الآخر:

**احفظ لسانك أيها الإنسان		لا يلدغنك إنه ثعبان**

**كم في المقابر من قتيل لسانه		كانت تهاب لقاءه الشجعان**

وقال ثالث:

**الصمت زين والسكوت سلامة		فإذا نطقت فلا تكن مكثارا**

**فإذا ندمت على سكوتك مرة		فلتندمن على الكلام مرارا**

وقال رابع:

---

١ – انظر: جامع العلوم والحكم ص ٢٤٢.

٢ – انظر: آفات اللسان لسعيد القحطاني ص ١٦٠.

٣ – انظر: الأذكار للنووي ص ٢٨٤، وآفات اللسان ص ١٥٧.

٤ – انظر هذه الأبيات في جواهر الأدب للهاشمي ٤٨٤/٢.

**إن القليل من الكلام بأهله		حسن وإن كثيره ممقوت**

**ما زل ذو صمت وما من مكثر		إلا يزل وما يعاب صموت**

**إن كان ينطق ناطق من فضة		فالصمت در زانه الياقوت**

وقال آخر:

**احفظ لسانك واستعذ من شره		إن اللسان هو العدو الكاشح**

**وزن الكلام إذا نطقت بمجلس		فإذا استوى فهناك حلمك راجح**

وقال سادس:

**عود لسانك قول الخير تنج به		من زلة اللفظ أو من زلة القدم**

**واحذر لسانك من خل تنادمه		إن النديم لمشتق من الندم**

وقال آخر محذورا من الكذب [1] :

**إذا عرف الإنسان بالكذب لم يزل		لدى الناس كذابا ولو كان صادقا**

**فإن قال لم تصغ له جلساؤه		ولم يسمعوا منه ولو كان ناطقا**

وقال آخر:

**لا يكذب المرء إلا من مهانته		أو فعله السوء أو من قلة الأدب**

وقال ثالث موصيا بالصدق ومحذرا من الكذب:

**الصدق عز فلا تعدل عن الصدق		واحذر من الكذب المذموم في الخلق**

وصدق رسول الله – ﷺ "إن من الشعر حكمة" [2].

وبعد:

فأختم الحديث عن اللسان ببيان أن اللسان فيه آفتان عظيمتان:

---

١ – انظر لهذا البيت وما بعده جواهر الأدب ٤٧٩/٢.

٢ – أخرجه البخاري (١٠٧/٧) كتاب الأدب، وأبو داود (٣٠٣/٤) كتاب الأدب، رقم (٥٠١٠)، والترمذي (١٢٦/٥) كتاب الأدب، رقم (٢٨٤٤).

١- آفة الكلام بالباطل وقد انصب جل الحديث فيما مضى عن هذه الآفة.

٢- آفة السكوت عن الحق، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء، مداهن، إلا إذا خاف على نفسه القتل، ونحو ذلك من إكراه وغيره.

والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله، وأكثر البشر منحرف في كلامه وسكوته بين هذين النوعين، وأهل الوسط كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه [١].

ولذلك فإن على المسلم أن يعرف متى يكون السكوت ومتى يكون الكلام، ثم كيف يكون السكوت، ويكون الكلام، وبهذا نفهم حديث رسول الله - ﷺ "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" [٢].

١ - انظر الجواب الكافي لابن القيم ص ٢٨١، وآفات اللسان للقحطاني ص ٥.

٢ - أخرجه الترمذي (٤٨٣/٤) كتاب الزهد، رقم (٢٣١٧)، وقال: حديث غريب، وابن ماجة (١٣١٥/٢، ١٣١٦)، كتاب الفتن، رقم (٣٩٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (٢٠١/١)، ومالك في الموطأ (٩٠٣/٢) كتاب حسن الخلق، رقم (٣) كلاهما عن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب مرسلا، وصححه الألباني كما في تخريج أحاديث المشكاة رقم (٤٨٣٩، ٤٨٤٠).

الحادي عشر: موضوعات السورة

- التقدم بين يدي الله ورسوله.
- الأدب مع العلماء.
- التقوى وامتحان القلوب.
- التثبت في الأخبار.
- الأخوة.
- الإسلام والإيمان.
- الخاتمة.

الثاني عشر: الموضوع الأول: التقدم بين يدي الله ورسوله

قال – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)(الحجرات: من الآية١).

قال حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – كما روى الطبري عنه في معنى هذه الآية: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه.

وقال ابن زيد: لا تقطعوا الأمر دون الله ورسوله.

وقال سفيان الثوري: لا تقضوا أمرا دون رسول الله.

وقال الضحاك: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري موضحا هذه المعاني: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله.

وبمثل ذلك قال ابن الجوزي وغيره [1].

هذه خلاصة لأقوال أئمة التفسير في معنى هذه الآية، وصور التقدم بين يدي الله ورسوله كثيرة جدا، ولست في سبيل حصرها، والتفصيل فيها.

ولكنني سأقف مع صورة واحدة من هذه الصور وهي التحاكم إلى غير شرع الله.

وهذه القضية مرادة أصلا في هذه الآية، ألم يقل ابن عباس إن معناها: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة؟ وقال سفيان: بقول أو فعل.

ألم يقل الضحاك في معناها: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم؟

وجميع ما مضى من أقوال المفسرين شامل لهذا المعنى.

ومن أقوى ما ذكره المفسرون من دلالة هذه الآية على أن الحكم بغير ما أنـــزل الله من التقدم بين يدي الله ورسوله ما يلي:

---

١ – انظر: لكل ما سبق تفسير الطبري ١١٦/٢٦ وزاد المسير ٤٥٥/٧ وتفسير ابن كثير ٢٠٥/٤.

١- ما ذكرته من تفسير حبر الأمة ابن عباس، وغيره من الأعلام كمجاهد وابن زيد والضحاك وسفيان.

٢- تفسير الطبري، وهو إمام المفسرين.

٣- تفسير ابن كثير حيث قال: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعا له في جميع الأمور، حتى يدخل في ذلك الأدب الشرعي حديث معاذ، ثم قال: والغرض منه أنه أخر رأيه واجتهاده ونظره إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله.

فانظر إلى قوله: بل كونوا تبعا له في جميع الأمور، وقوله: ولو قدمه قبل البحث عنهما إلخ.. كلامه.

٤- أن ابن كثير أكد تفسيره لهذه الآية بحديث معاذ المشهور، حيث سأله الرسول - ﷺ "بم تحكم"؟ الحديث [1].

فجعل هذا الحديث داخلا في الآية، والحديث نص في وجوب الحكم بما أنـزل الله [2].

٥- وحتى الذين فسروا الآية بجزئية من الجزئيات كالذبح قبل الصلاة، أو قول من قال: لو أنـزل كذا في كذا، فإن التحاكم لغير شرع الله والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يدخل من باب الأولى، فلا يليق أن تقول لرجل: لا تأخذ درهما واحدا، فيأخذ مليون دينار، ويقول لك إنك نهيتني عن

---

١ - هذا حديث مشهور ذكره الفقهاء في كتبهم واعتمدوه لصحة معناه وإن كان إسناده ليس بذاك، فقد أخرجه الترمذي (٦١٦/٣) كتاب الأحكام، رقم (١٢٢٧) قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل. وأخرجه أبو داود (٣٠٣/٣) كتاب الأقضية، رقم (٣٥٩٢، ٣٥٩٣) والنسائي (٢٣١/٨) كتاب آداب القضاة، رقم (٥٣٩٩)، وأحمد (٢٣٠/٥، ٢٣٦، ٢٤٢). ومدار هذا الحديث على الحارث بن عمرو عن ناس من أصحاب معاذ عن معاذ. قال البخاري في تاريخه: الحارث بن عمرو عن أصحاب معاذ، وعنه أبو عون لا يصح ولا يعرف إلا بهذا. وقال الدراقطني في العلل: رواه شعبه عن أبي عون هكذا، وأرسله ابن مهدي وجماعات عنه، والمرسل أصح. وقال ابن حزم: لا يصح لأن الحارث مجهول وشيوخه لا يعرفون، قال، وادعى بعضهم فيه التواتر، وهذا كذب بل هو ضد التواتر؛ لأنه ما رواه أحد غير أبي عون عن الحارث فكيف يكون متواترا ؟! وقال عبد الحق: لا يسند، ولا يوجد من وجه صحيح. وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية: لا يصح وإن كان الفقهاء كلهم يذكرونه في كتبهم ويعتمدون عليه، وإن كان معناه صحيحا. وقال ابن طاهر في تصنيف له مفرد: اعلم أنني فحصت عن هذا الحديث في المسانيد الكبار والصغار، وسألت عنه من لقيته من أهل العلم بالنقل، فلم أجد له غير طريقين، وكلاهما لا يصح. وقد أخطأ إمام الحرمين فزعم أن هذا الحديث مدون في الصحاح متفق على صحته لا يتطرق إليه التأويل. قال الحافظ ابن حجر: وقد استند أبو العباس ابن القاص في صحته إلى تلقي أئمة الفقه والاجتهاد له بالقبول، قال: وهذا القدر مغن عن مجرد الرواية. انظر لكل ما سبق: تلخيص الحبير (٢٠١/٤، ٢٠٢).

٢ - انظر: تفسير ابن كثير ٢٠٥/٤.

درهم واحد، وأنا أخذت من الدنانير ولم آخذ من الدراهم، وأخذت مليونا ولم آخذ واحدا. هذا لا يقوله عاقل ولا مجنون – أيضا –.

إذا كان الأمر كذلك، وحيث إن قضية التحاكم إلى غير شرع الله من أخطر أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله.

قال النسفي: وفي هذه العبارة ضرب من المجاز الذي يسمى تمثيلا، وفيه فائدة جليلة، وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة [1].

وللواقع المر الذي تعيشه الأمة الإسلامية اليوم حيث ابتعد كثير من حكامها عن تحَكِيم الكتاب والسنة، وطبقوا القوانين الوضعية، والدساتير الأرضية، وتقدموا بين يدي الله ورسوله، بل نبذوا كتاب الله ورسوله، وجعلوه خلفهم ظهريا.

ولأن هذه المسألة تخفى على كثير من المسلمين، حيث تصوروا أن الأمر مجرد وقوع معصية من المعاصي، أو كبيرة من الكبائر، ولخطورة هذا الأمر وأثره في الدنيا والآخرة فسألقي الضوء على هذه المسألة، في ضوء الكتاب والسنة ملتزما بتفسير السلف لهذه الآيات، مع أنني سأختصر كثيرا، لطول الموضوع وتشعبه، وأنبه إلى أنني لا أريد بحث هذه المسالة من جميع جوانبها لأن موضوع (الحكم بما أنـــزل الله والتحاكم إليه) ليس هذا مكانه، ولأنه يحتاج إلى بحث مستقل يتم فيه استقصاء الآيات والأحاديث وما قاله العلماء في ذلك، وهو موضوع عويص ومتشعب.

ولكنني أردت عرض هذه القضية ضمن المنهج الذي التزمت به، بما يتناسب مع تفسيري لسورة الحجرات تفسيرا موضوعيا.

وسأتناول الموضوع ضمن عناصر رئيسية حتى يسهل تحقيقه وفهمه [2].

---

١ – انظر: تفسير النسفي ١٦١/٤.

٢ – أفدت كثيرا من بحث كتبه الدكتور/ عبد الرحمن المحمود الأستاذ بقسم العقيدة حول هذا الموضوع.

أولا: علاقة التحاكم إلى الكتاب والسنة بالعقيدة

يتصور بعض المسلمين أن تَحكِيم الشريعة من الأمور العملية، وكل ما يتعلق بها من قبيل المعاصي التي لا تخرج صاحبها عن الإسلام ما دام يقر [1] بالشهادتين وينطق بهما.

وليس الأمر كذلك، والأمر أخطر مما يتصوره كثير من الناس، ولنقف على بعض ما قاله العلماء في ذلك:

١- يقول الطبري في تفسير قوله - تعالى -: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)(البقرة: من الآية١١٢) يعني بإسلام الوجه التذلل لطاعته، والإذعان لأمره، وأصل الإسلام الاستسلام، لأنه من استسلمت لأمره، وهو الخضوع، وإنما سمي المسلم مسلما بخضوع جوارحه لطاعة ربه [2].

وعند تفسيره لقوله - تعالى -: (وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) (البقرة: من الآية١٢٨) قال: يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحدا سواك، ولا في العبادة غيرك [3].

وقال في موضع آخر عند قوله - تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً)(البقرة: من الآية٢٠٨) فإن قيل: فما وجه دعاء المؤمنين بمحمد ﷺ وما جاء به إلى الإسلام؟ [4].

قيل: وجه دعائه إلى ذلك، الأمر له بالعمل بجميع شرائعه، وإقامة جميع أحكامه وحدوده، دون تضييع بعضه والعمل ببعض.

وإذا كان ذلك معناه كان قوله: (كَافَةً)[5] من صفة (السِّلْمِ)[6] ويكون تأويله: ادخلوا في العمل بجميع معاني السلم، ولا تضيعوا شيئا منه، يا أهل الإيمان بمحمد وما جاء به.

---

١ - الإقرار الحقيقي يستلزم العمل.

٢ - انظر: تفسير الطبري ٥١٠/٢ ط شاكر.

٣ - انظر: تفسير الطبري ٢٧٣/٦.

٤ - يعني كيف يدعون إلى الإسلام وهم مؤمنون مسلمون؟.

٥ - يعني كيف يدعون إلى الإسلام وهم مؤمنون مسلمون؟.

٦ - يعني كيف يدعون إلى الإسلام وهم مؤمنون مسلمون؟.

ثم قال: فقد صرح عكرمه بمعنى ما قلنا في ذلك، من أن تأويل ذلك دعاء المؤمنين إلى رفض جميع المعاني التي ليست من حكم الإسلام، والعمل بجميع شرائع الإسلام، والنهي عن تضييع شيء من حدوده[1].

٢- وقال الإمام محمد بن نصر المروزي معلقا على حديث جبريل المشهور في الإيمان والإسلام [2]

أما قوله: "الإيمان أن تؤمن بالله" أن توحده وتصدق به بالقلب واللسان، وتخضع له ولأمره، بإعطاء العزم للأداء لما أمر، مجانبا للاستنكاب والاستكبار والمعاندة، فإذا فعلت ذلك، لزمت محابه واجتنبت سخطه.

ثم يقول: أما قوله: "ورسله" فأن تؤمن بمن سمى الله من رسله.. وتؤمن بمحمد ﷺ وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، إيمانك بسائر الرسل: إقرارك بهم، وإيمانك بمحمد ﷺ إقرارك به، وتصديقك إياه، واتباعك ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به، أديت الفرائض، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ووقفت عند الشبهات، وسارعت في الخيرات [3] فقد فسر الإيمان بالتصديق بالقلب واللسان والخضوع لأمر الله تعالى.

٣- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:

فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركا، ومن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر.

والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده، وطاعته وحده، وهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت، بفعل ما أمر به في ذلك الوقت [4].

وقال في موضع آخر عند قوله - تعالى -: (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) (يوسف: من الآية٤٠) فالحكم لله وحده، ورسله يبلغون عنه، فحكمهم حكمه، وأمرهم أمره، وطاعتهم

١ - انظر: تفسير الطبري ٤/٢٥٥ - ٢٥٦، شاكر.

٢ - تقدم تخريجه.

٣ - انظر: تعظيم قدر الصلاة ١/٣٩٢ - ٣٩٣.

٤ - انظر: التدمرية ص ١٦٩ تحقيق د. محمد السعوي.

طاعته، فما حكم به الرسول، وأمرهم به، وشرعه من الدين وجب على جميع الخلائق اتباعه وطاعته، فإن ذلك هو حكم الله على خلقه [1].

وقال في موضع آخر في موضع بيانه، أنه كما أن الكفر ببعض الرسل كفر ببقيتهم، فكذلك المؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر أيضا، ثم قال في آخر كلامه: وكما ذم المدعين الإيمان بالكتب كلها، وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله، كما يصيب ذلك كثير ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسة أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك وغيرهم، وإذا قيل لهم تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضا [2].

وعلاقة ما ذكره شيخ الإسلام بالعقيدة واضح جدا، حيث إن من مقتضى العقيدة التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ.

ويتضح هذا من خلال ما قاله شيخ الإسلام في موضع آخر حيث قال:

والشهادة بأن محمدا رسول الله، تتضمن تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، فما أثبته وجب إثباته، وما نفاه وجب نفيه، كما يجب على الخلق أن يثبتوا لله ما أثبته من الأسماء والصفات [3] وينفوا عنه ما نفاه عنه من مماثلة المخلوقات، فيخلصون من التعطيل والتمثيل، ويكونون في إثبات بلا تشبيه، وتنـــزيه بلا تعطيل، وعليهم أن يفعلوا ما أمر به وأن ينتهوا عما نهى عنه، فيحللوا ما حلله، ويحرموا ما حرمه، فلا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله، ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله، ولهذا ذم المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما، لكونهم حرموا ما لم يحرمه الله، ولكونهم شرعوا دينا لم يأذن به الله كقوله: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً)(الأنعام: من الآية١٣٦) وفي سورة الشورى: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ)(الشورى: من الآية٢١)[4].

---

١ - انظر: الفتاوى ٣٦١/٣٥ وما بعدها.

٢ - انظر: الفتاوى ٣٣٩/١٢.

٣ - انظر إلى ربطه بين هذه الأمور، وأنها شيء واحد لا يتجزأ.

٤ - انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ٨٣٤/٢ وقد أطال شيخ الإسلام في بيان ذلك.

٤- أما ابن القيم فيربط بين العقيدة والتحاكم في مواضع عدة من كتبه، ومن ذلك ما قاله شرحا لحديث "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا" [١] حيث قال بعد كلام طويل: وأما الرضى بنبيه رسولا، فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البته.

ثم قال: وأما الرضى بدينه، فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضى، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم له تسليما [٢].

وتأمل قوله: (كمال الانقياد) وقوله (التسليم المطلق) وقوله (وسلم له تسليما) يتضح لك المراد.

٥- أما شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، فقد عقد لها باباً مستقلا في كتاب التوحيد بعنوان: باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله [٣].

وعقد بابا آخر بعنوان: باب قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ)(النساء: من الآية٦٠)[٤].

٦- ونختم أقوال العلماء حول هذه القضية بما قاله العلامة الشيخ عبد العزيز ابن باز حيث قال: وأما شهادة أن محمدا رسول الله فكثير من الناس لا يفهمها على حقيقتها، وحكموا القوانين الوضعية، وأعرضوا عن شريعة الله، ولم يبالوا بها، جهلا بها، وتجاهلا لها.

إن شهادة أن محمدا رسول الله تقتضي الإيمان برسول الله ﷺ وطاعته في أوامره، واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره، وألا يعبد الله إلا بالشريعة التي جاء بها - عليه الصلاة والسلام - كما قال - عز وجل -: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)(آل عمران: من الآية٣١) وقال سبحانه:

---

١ - أخرجه مسلم (٦٢/١) كتاب الإيمان، رقم (٣٤)، وأحمد (٢٠٨/١).

٢ - انظر: مدارج السالكين ١٧٢/٢.

٣ - انظر: كتاب التوحيد ص ١٠٢.

٤ - انظر: كتاب التوحيد ص ١٠٤، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)(الحشر: من الآية٧) فالواجب على المسلمين وعلى جميع الثقلين أن يعبدوا الله وحده، وأن يحكموا نبيه محمدا – عليه الصلاة والسلام – كما قال – سبحانه –: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء:٦٥).

ويقول في كتاب وجوب تحكيم شرع الله: والعبودية لله وحده، والبراءة من عبادة الطاغوت، والتحاكم إليه من مقتضى شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، فالله – سبحانه – هو رب الناس وإلههم، وهو الذي خلقهم، وهو الذي يأمرهم وينهاهم، ويحييهم ويميتهم، ويحاسبهم ويجازيهم، وهو المستحق للعبادة، دون كل ما سواه، قال تعالى –: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) (الأعراف: من الآية٥٤) فكما أنه الخالق وحده، فهو الآمر سبحانه، والواجب طاعة أمره [١].

قال الدكتور/ عبد الرحمن المحمود – أستاذ العقيدة بجامعة الإمام بالرياض – قال معقبا على بعض أقوال العلماء في هذه القضية ممن نقلنا كلامهم وغيرهم:

والمهم هنا إدراك أن الكلام في هذه المسألة ليس تضخيما لقضية جزئية، كما قد يدعي البعض، وإنما هو كلام مؤصل مبني على الدليل.

وإذا كان الذي لا يشرب الخمر، لأنه يرى أنها منقصة لشاربها، وأنها تذهب العقل، ومع ذلك يرى أنها غير محرمة، خارجا عن دائرة الإسلام بالاتفاق [٢] لأن الأمر تحول إلى جانب عقدي، فيه إنكار ما علم تحريمه من الدين بالضرورة، أو فيه استحلال لما حرم الله، فكذلك القضية الكبرى، قضي التحاكم إلى شرع الله لا إلى غيره، بل هي أولى.

ولا أدل على ذلك من تسليم العلماء بهذا الأمر ممن نقلنا أقوالهم، ومن غيرهم [٣].

---

١ – انظر رسالة وجوب تحكيم شريعة الله ص ٧.

٢ – بشرط ألا يكون جاهلا أو متأولا كما تأول الصحابي قدامة بن عبد الله شرب الخمر، فإن كان جاهلا أو متأولا علم وأزيل اللبس فإن أصر على ذلك فهو كافر. انظر: مصنف عبد الرزاق ٢٤٠/٩ ومصنف ابن أبي شيبة ٣٩/١٠.

٣ – انظر: مبحث تحكيم الشريعة وصلته بالعقيدة ص ١٢ مخطوط.

ومن خلال ما سبق يتضح ارتباط الحكم بما أنـــزل الله في قضية العقيدة، وأنها ليست مسألة عملية فقط لا دخل للعقيدة فيها.

وأنتقل الآن إلى الجانب الثاني من هذا الموضوع، للتحقيق في قضية أخرى من قضايا تَحكِيم شرع الله في شئون الحياة كلها، وأن من أعرض عن ذلك فقد تقدم بين يدي الله ورسوله.

ثانيا: الأدلة على وجوب التحاكم إلى الله ورسوله

وردت آيات كثيرة جدا في وجوب التحاكم إلى شرع الله، ونهت عن اتباع ما سواه، وفي بعضها حكم على من خالف ذلك كنفي الإيمان، أو الكفر، أو اتخاذ الأرباب من دون الله ونحو ذلك.

وسأذكر بعض هذه الآيات دون تعليق عليها، ثم أقف مع آية منها مفصلا وموضحا، وما سأذكره حولها يغني عن ذكر ما قيل في غيرها في مثل هذا البحث الموجز، ومن رغب في المزيد وأراد التوسع فسيجد ذلك في مظانه. بعض الآيات الدالة على وجوب التحاكم إلى شرع الله واتباع رسوله – ﷺ

أ- قوله – تعالى –: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)(البقرة: من الآية٢٥٦).

ب- قوله – تعالى –: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) (آل عمران:٣١، ٣٢).

جـ- قوله – تعالى–: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً) (النساء:١٠٥).

د- قوله – سبحانه –: (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً)(الأنعام: من الآية١١٤).

هـ- وقال – تعالى –: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) (الأعراف: من الآية٥٤).

و- قوله: (أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)(الأنعام: من الآية٦٢).

ز- قوله: (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)(يوسف: من الآية٤٠) إلى غير ذلك من الآيات.

بعض الآيات التي بينت حكم من لم يحكم بما أنـــزل الله، أو لم يتحاكم إلى شرع الله، وما جاء عن رسوله:

أ- قال - سبحانه -: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ) (آل عمران:٢٣).

ب- وقال - تعالى -: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً) (النساء:٥٠).

جـ- قوله: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة:٣١).

د- قال - تعالى - في سورة المائدة: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)(المائدة: من الآية٤٤).

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)(المائدة: من الآية٤٥).

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)(المائدة: من الآية٤٧).

هـ- وقال في سورة النساء: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء:٥٩- ٦٥) والآن نقف مع إحدى الآيات التي سبق ذكرها ليتضح المراد وتنقطع الحجة.

وقد اخترت قوله – تعالى –: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء:٦٥) لأن تفسير العلماء لها لا يدع مجالا لتأويل أو تحريف.

ورد في سبب نـــزول هذه الآية قولان:

الأول: أورد البخاري وغيره قصة الزبير مع رجل من الأنصار، حيث روى عروة بن الزبير "أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير في سراج من الحرة ليسقي به النخل، فقال رسول الله – ﷺ اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فقال الأنصاري: أن كان ابن عمتك، فتلون وجه رسول الله – ﷺ ثم قال: اسق ثم احبس حتى يرجع الماء إلى الجدر واستوعي له حقه. فقال الزبير: والله إن هذه الآية أنـــزلت في ذلك: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم)" [1]. وفي رواية أن الزبير قال: فأحسب هذه الآية نـــزلت في ذلك [2].

الثاني: أنها نـــزلت في المنافق واليهودي الذي نـــزل فيهم قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ)(النساء: من الآية٦٠) وهذا قول مجاهد.

روى إسحاق بن راهويه في تفسيره – بإسناد صحيح كما قال ابن حجر – روى عن الشعبي قال: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فدعى اليهودي المنافق إلى النبي ﷺ لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة، ودعي المنافق اليهودي إلى حكامهم لأنه علم أنهم يأخذونها، فأنـــزل الله هذه الآيات إلى قوله: (وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)(النساء: من الآية٦٥)[3].

---

١ – أخرجه البخاري في المساقاة (٧٦/٣، ٧٧)، وفي الصلح (١٧١/٣)، وفي التفسير (١٨٠/٥، ١٨١). ومسلم (١٨٢٩/٤) كتاب الفضائل رقم (٢٣٥٧). وأبو داود (٣١٥/٣) كتاب الأقضية، رقم (٣٦٣٧) وغيرهم.

٢ – البخاري (١٧١/٣) كتاب الصلح، ومسلم (١٨٣٠/٤) كتاب الفضائل رقم (٢٣٥٧).

٣ – فتح الباري ٣٧/٥.

وقد رجح الطبري – رحمه الله – القول الثاني حيث قال: وهذا القول أولى بالصواب، ولا يمنع أن تكون قصة الزبير وقعت أثناء ذلك فيتناولها عموم الآية [1].

وقد مال ابن حجر إلى ترجيح ما رجحه الطبري [2] أي أن سبب النـــزول كان في قصة اليهودي والمنافق.

ومعنى هذه الآية واضح جدا، حيث نفى الله الإيمان عمن صدر منه شيء من ذلك، فهي عامة في كل من أبى أن يتحاكم إلى الكتاب والسنة، وأن الإيمان لا يتم إلا بتحَكِيمٌ الرسول ﷺ والتسليم له.

ولبيان هذا الأمر، وتحقيق هذه المسألة أنقل ما ورد عن بعض المفسرين في هذه الآية، وكذلك ما ذكره بعض العلماء من غير المفسرين.

١- يقول شيخ المفسرين الإمام الطبري – رحمه الله –: يعني جل ثناؤه بقوله (فَلا)[3] فليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بما أنـــزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك إذا دعوا إليك يا محمد، واستأنف القسم جل ذكره فقال: (وَرَبِّكَ)[4] يا محمد (لا يُؤْمِنُونَ)[5] أي لا يصدقون بي وبك، وبما أنـــزل إليك (حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)(النساء: من الآية٦٥) يقول: حتى يجعلوك حكما بينهم، فيما اختلط بينهم من أمورهم فالتبس عليهم حكمه [6].

٢- وقال الجصاص – رحمه الله –: وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله – تعالى – أو أوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه، أو من جهة ترك القبول، والامتناع من التسليم [7].

٣- أما ابن القيم – رحمه الله – فيقول:

---

١ – انظر: تفسير الطبري ٥٢٤/٨.

٢ – انظر: فتح الباري ٣٨/٥ حيث رجح أن الزبير لا يجزم بذلك.

٣ – انظر: فتح الباري ٣٨/٥ حيث رجح أن الزبير لا يجزم بذلك.

٤ – انظر: فتح الباري ٣٨/٥ حيث رجح أن الزبير لا يجزم بذلك.

٥ – انظر: فتح الباري ٣٨/٥ حيث رجح أن الزبير لا يجزم بذلك.

٦ – انظر: تفسير الطبري ٥١٨/٨.

٧ – انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢١٣/١.

وفرض تَحكيمه لم يسقط بموته، بل ثابت بعد موته، كما كان ثابته في حياته، وليس تَحكِيمُه خاصا بالعمليات دون العلميات، كما يقوله أهل الزيغ والإلحاد.

وقد افتتح - سبحانه - هذا الخبر بالقسم المؤكد بالنفي قبله، وأقسم على انتفاء الإيمان منهم حتى يحكموا رسول الله، ﷺ في جميع ما تنازعوا فيه، من دقيق الدين وجليله، وفروعه وأصوله، ثم لم يكتف منهم بهذا التحَكِيمُ حتى ينتفي الحرج وهو الضيق مما حكم به، فتنشرح صدورهم لقبول حكمه انشراحا لا يبق معه حرج ويسلموا تسليما [1].

٤- وقال العلامة أحمد شاكر - رحمه الله - في عمدة التفسير تعليقا على تفسير ابن كثير - رحمه الله - لهذه الآية:

ثم يقسم ربنا - تبارك وتعالى - بنفسه الكريمة المقدسة أن الناس لا يكونون مؤمنين حتى يحتكموا في شأنهم كله إلى رسول الله، ﷺ وحتى يرضوا بحكمه طائعين خاضعين لا يجدون في حكمه حرجا في أنفسهم - إلى أن قال - وأنهم إن لم يفعلوا ذلك لم يكونوا مؤمنين قط، بل دخلوا في عداد الكافرين المنافقين.

ثم ذكر القوانين الوضعية المطبقة في كثير من بلاد المسلمين، حيث أصبحت فقها وتشريعا، بل أصبحت عند أصحابها دينا جديدا بديلا عن دين الإسلام، ثم قال:

وصار هذا الدين الجديد هو القواعد الأساسية التي يتحاكم إليها المسلمون في أكثر بلاد الإسلام، ويحكمون بها، سواء منها ما وافق في بعض أحكامه شيئا من أحكام الشريعة وما خالفها، وكله باطل وخروج، لأن ما وافق الشريعة إنما وافقها مصادفة، لا اتباعا لها، ولا طاعة لأمر الله وأمر رسوله، فالموافق والمخالف كلاهما مرتكس في حمأة الضلالة، يقود صاحبه إلى النار، لا يجوز لمسلم أن يخضع له أو يرضى به [2].

---

١ - انظر: مختصر الصواعق المرسلة ٣٥٢/٢، وأعلام الموقعين ٥٤/١.

٢ - انظر: عمدة التفسير ٢١٤/٣ - ٢١٥.

٥- ونختم أقوال العلماء والمفسرين حول هذه الآية بما قاله مفتي الديار السعودية العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم – رحمه الله–: وقد نفى الله – سبحانه – الإيمان عمن لم يحكموا النبي، ﷺ فيما شجر بينهم، نفيا مؤكدا بتكرار أداة النفي، وبالقسم فقال – تعالى –: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء:٦٥).

ولم يكتف – تعالى وتقدس – منهم بمجرد التحاكم للرسول، ﷺ حتى يضيفوا إلى ذلك عدم وجود شيء من الحرج في نفوسهم بقوله – سبحانه –: (ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ)(النساء: من الآية٦٥) ثم يقول: ولم يكتف – تعالى – أيضا هنا بهذين الأمرين حتى يضموا إليهما التسليم، وهو كمال الانقياد لحكمه، ﷺ بحيث يتخلون هاهنا من أي تعلق للنفس بهذا الشيء، ويسلموا ذلك إلى الحكم الحق أتم تسليم، ولهذا أكثر بالمصدر المؤكد، وهو قوله جل شأنه (تَسْلِيماً)(النساء: من الآية٦٥) المبين أنه لا يكتفي هاهنا بالتسليم، بل لا بد من التسليم المطلق، ثم يقول: وتأمل أيضا ما في قوله – تعالى –: (فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)(النساء: من الآية٦٥) فإن اسم الموصول مع صلته من صيغ العموم عند الأصوليين وغيرهم، وذلك العموم والشمول هو من ناحية الأجناس والأنواع، كما أنه من ناحية القدر، فلا فرق هاهنا بين نوع ونوع، كما لا فرق بين القليل والكثير [1].

ومن خلال ما سبق اتضح لنا حكم من أعرض عن تحَكِيم شرع الله، أو عن التحاكم إليه، بل حتى لو حكم أو تحاكم ما لم يرض بذلك ويسلم تسليما فإنه لا ينفعه ذلك أبدا.

ثالثا: الحكم بغير ما أنــزل الله ينقسم إلى قسمين

١- كفر أكبر يخرج عن الملة.

٢- كفر أصغر لا يخرج عن الملة.

وسأذكر الأنواع والأحوال الداخلة تحت كلا القسمين السابقين، مع التأكيد على ما يلي:

١- أنني لن أفصل في بيان هذه الأنواع والأحوال وإنما سأذكرها بإجمال، وفق المنهج الذي أكدته مرارا، ولكن سأذكر بعض المراجع لمن رغب في التفصيل والتوسع.

---

١ – انظر: رسالة تحكيم القوانين ص١.

٢- أن موضوع التكفير موضوع خطير، والناس اليوم فيه بين إفراط وتفريط، فهناك من توسع في إطلاق التكفير حتى كفر بعض المسلمين لِبَعْضٍ الكبائر التي ارتكبوها، ومن ثم وقع هؤلاء في عقيدة الخوارج وهم لا يعلمون، بل ويحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وآخرون أصيبوا بحساسية مفرطة من كلمة التكفير، وميعوا قضايا العقيدة، وأبطلوا أحكام الإسلام، حتى وصلت الحال ببعض أبناء المسلمين إلى أن يشككوا، أو يتشككوا في كفر اليهود والنصارى [١] ولذلك سادت عقيدة الإرجاء في هذا العصر، وبلغت مكانة لم تبلغها من قبل في عصر من العصور.

والمنهج الحق، منهج أهل السنة والجماعة، أنه لا يجوز إطلاق التكفير إلا ضمن ضوابط شرعية محددة، مما عندنا فيه من الله برهان، ومن لم يكفر الكافر مع علمه بكفره فهو كافر، ومن قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما.

٣- أن هناك فرقا بين أن نقول: إن هذا العمل كفر، أو إن من عمله فهو كافر، وبين تكفير المعين، فهذا باب خطير والولوج فيه لا يطيقه إلا من يملك العدة لذلك بضوابطه وشروطه، وهذا لا يقدر عليه إلا جهابذة العلماء.

٤- ولكل ما سبق، فإنني أنصح طلاب العلم والدعاة - فَضْلا عن العامة - أن يحتاطوا لهذا الأمر، وأن يرجعوا إلى العلماء عند اشتباه الأمور والتباس الحق بالباطل، فإن الفتنة بابها خطير، وآثارها لا يعلم مداها إلا الله، وليسعنا ما وسع غيرنا، إلا بشيء عندنا فيه من الله برهان، فإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

٥- وأخيرا أقول: لقد ترددت كثيرا في ذكر ما سأذكره، خوفا من تعجل متعجل، أو فهم سقيم، مما قد يحمل فيه كلامي على غير محمله، ولكنني عزمت وتوكلت على الله، مع تأكيدي وإعذاري أن ما سأذكره ليس قولا فصلا، وإنما هو تنبيه وتحذير، لأن قضية التحاكم إلى غير شرع الله أصبحت لدى

١ - قرأت مقالة لكاتب مشهور وأستاذ جامعي، يقول فيها ما معناه: وقد يكون هؤلاء على الحق كما أننا على الحق !!.

كثير من المسلمين لا تستحق البحث والعناء، بل وقع في ذلك بعض طلاب العلم والدعاة، حتى رأينا أن الاهتمام بشرك الأموات عند البعض أكبر من اهتمامه بشرك الأحياء.

بعد ذلك أقول:

أولا: ذكر العلماء عدة حالات يكون صاحبها داخلا في الكفر الأكبر أجملها بما يلي [١]

١- أن يجحد الحاكم بغير ما أنـــزل الله أحقية حكم الله ورسوله، وهذا لا نـــزاع فيه بين أهل العلم [٢].

٢- ألا يجحد الحاكم بغير ما أنـــزل الله كون حكم الله ورسوله حقا، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، إما مطلقا، وإما بالنسبة لما استجد من الحوادث التي نشأت عن تطور الزمان، وتغير الأحوال.

وهذا لا ريب في كفره، لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان، وصرف حثالة الأفكار على حكم الحَكِيم الحميد [٣].

٣- ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله، فهذا كالنوعين اللذين قبله [٤].

٤- ألا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنـــزل الله مماثلا لحكم الله ورسوله، فَضْلا عن أن يعتقد كونه أحسن منه، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله.

فهذا كالذي قبله يصدق عليه ما يصدق عليه، لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه [١].

---

١ – انظر لذلك: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٩٠/٢٠، ٥٨/٢٧، ومنهاج السنة لابن تيمية ١٣٠/٥ ورسالة تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم، ومدارج السالكين لابن القيم ٣٣٦/١. والمغني لابن قدامه ١٧٦/١٢، والفروق للقرافي ١١٥/٤. ومجموع فتاوى ابن باز ٤١٦/٤ و ١٣٧/١ و ٢٧٥. والفصل لابن حزم ٢٤٥/٣، والاعتصام للشاطبي ٣٢٨/١، وتفسير ابن كثير ١٢٢/٣، والبداية والنهاية لابن كثير ١١٩/١٣، والدرر السنية ٢٤١/٨، وأضواء البيان في مواضع متفرقة ٤٣٩/٣ و ٩١/٤ و١٦٢/٧ – ١٧٠، وعمدة التفسير لأحمد شاكر ١٢٥/٣، و١٤٦/٤ إلى ١٦٨، والمجموع الثمين لابن عثيمين ٣٦/١.

٢ – انظر: تحكيم القوانين ص ٥، وتفسير الطبري ٣٥٧/١٠، ٣٥٨.

٣ – انظر: تحكيم القوانين ص ٥، والفتاوى ٥٨/٢٧.

٤ – انظر: تحكيم القوانين ص ٥.

٥- من اعتقد أن نظام الإسلام لا يصلح تطبيقه في العصر الحاضر فهو كافر خارج من الإسلام [٢].

٦- من اعتقد أن تطبيق الإسلام سبب لتخلف المسلمين، فهو كالذي قبله [٣]

٧- من اعتقد أن الإسلام ينحصر في علاقة المسلم بربه، دون أن يكون له علاقة ببقية شئون الحياة الأخرى فهو كافر أيضا. [٤]

٨- من يعتقد ويرى أن إنفاذ حكم الله في قطع يد السارق، أو رجم الزاني المحصن، لا يناسب العصر الحاضر، فهو كافر أيضا [٥].

٩- من استحل الحكم بغير شريعة الله، فهو كافر بإجماع المسلمين. [٦].

١٠- من اعتقد أنه يجوز الحكم بغير ما أنــزل الله في المعاملات، كالبيع والشراء والبنوك ونحوها، فهو كافر [٧].

١١- من جعل لنفسه حق التشريع والتحليل والتحريم، من دون الله تعالى، سواء كان فردا أو مجموعة أو هيئة برلمانية أو غيرها، بحيث يصبح هؤلاء يسنون القوانين العامة المخالفة لشرع الله، ويفرضونها على الناس، ويأبون عليهم التحاكم إلى شرع الله [٨].

١٢- ومثل ذلك من وضع نظاما أو قانونا مخالفا لشرع الله، وجعل هذا القانون هو الحاكم بين الناس، وأوجب عليهم أن يتحاكموا إليه [١].

---

١ - انظر: تحكيم القوانين ص ٦، ومجموع فتاوى ابن باز ٤١٦/٤.

٢ - انظر: فتاوى ابن باز ١٣٧/١.

٣ - انظر: فتاوى ابن باز ١٣٧/١.

٤ - انظر: فتاوى ابن باز ١٣٧/١.

٥ - انظر: فتاوى ابن باز ١٣٧/١.

٦ - انظر: فتاوى ابن باز ١٣٧/١.

٧ - انظر: فتاوى ابن باز ١٣٧/١، وانظر لبعض ما سبق أيضا الفتاوى لابن تيمية ٥٨/٢٧.

٨ - انظر: في ذلك الفصل لابن حزم ٢٤٥/٣، والاعتصام ٣٧/٢، ٦١/٢، ٢٠١/٢ وفتاوى شيخ الإسلام ٢٦٧/٣، ٣٨٨/٣٥، ٤٦٨/٢٨، وتفسير ابن كثير ١٢٢/٣، والبداية والنهاية ١١٩/١٣، والدرر السنية ٢٤١/٨، ٢٧١/٨، وتحكيم القوانين ص ٦، وفتاوى ابن باز ٢٧٥/١، ٣٠٩/١، وأضواء البيان للشنقيطي ٩١/٤، ٤٣٩/٣، ١٦٢/٧، ١٧٣، وحواشي عمدة التفسير ١٢٥/٣، ١٤٦/٤ - ١٦٨، وفتاوى ابن عثيمين ٣٦/١ - ٣٩.

١٣- عوائد القبائل (سلومهم) التي اعتادوها وتوارثوها إذا كانت مخالفة لشرع الله، وعلموا بحكم الله فيها فأعرضوا عنه، وأبوا إلا أن يتحاكموا إلى ما اعتادوه، مما هو مخالف لحكم الله وحكم رسوله - ﷺ [٢].

١٤- الذين يطيعون المبدلين لشرع الله، مع علمهم أنهم خالفوا شريعة الله وحكمه، ولكن لا يكفرون إلا بشروط أهمها:

أ- أن يعلموا أن الحكام الحاكمين بغير شرع الله مبدلون ومغيرون لشرع الله، فيتبعوهم على هذا التبديل والتغيير، مع علمهم بحكم من لم يحكم بما أنـــزل الله.

ب- وجود ما يدل على الرضاء والقبول منهم، بحيث يشاركون المشرعين من دون الله في اعتقاد التحليل والتحريم اتباعا لهم، أما إذا لم يوجد ما يدل على رضاهم فلا [٣].

ثانيا: أما الحالات التي يحكم فيها بغير شرع الله ولا تعتبر كفرا أكبر وإنما هي من الكفر الأصغر، فهي حالات فردية، مقيدة بالقيود التالية:

١- أن تكون السيادة لحكم الله ورسوله، وأصل التحاكم مبني على الكتاب والسنة، والحاكم أو القاضي معترف بذلك قابل له، غير جاحد ولا منكر ولا مستحل، سواء في هذه القضية التي قضى بها مخالفا لحكم الله، أو في غيرها ولو لم يقض بما يخالف الشرع.

٢- أن تكون في حوادث الأعيان لا في الأمور العامة التي تفرض على جميع الناس، بحيث تصبح تشريعا عاما.

---

١ - انظر: في ذلك الفصل لابن حزم ٢٤٥/٣، والاعتصام ٣٧/٢، ٦١/٢، ٢٠١/٢ وفتاوى شيخ الإسلام ٢٦٧/٣، ٣٨٨/٣٥، ٤٦٨/٢٨، وتفسير ابن كثير ١٢٢/٣، والبداية والنهاية ١١٩/١٣، والدرر السنية ٢٤١/٨، ٢٧١/٨، وتحكيم القوانين ص ٦، وفتاوى ابن باز ٢٧٥/١، ٣٠٩/١، وأضواء البيان للشنقيطي ٩١/٤، ٤٣٩/٣، ١٦٢/٧، ١٧٣، وحواشي عمدة التفسير ١٢٥/٣، ١٤٦/٤ - ١٦٨، وفتاوى ابن عثيمين ٣٦/١ - ٣٩.

٢ - انظر: في ذلك الفصل لابن حزم ٢٤٥/٣، والاعتصام ٣٧/٢، ٦١/٢، ٢٠١/٢ وفتاوى شيخ الإسلام ٢٦٧/٣، ٣٨٨/٣٥، ٤٦٨/٢٨، وتفسير ابن كثير ١٢٢/٣، والبداية والنهاية ١١٩/١٣، والدرر السنية ٢٤١/٨، ٢٧١/٨، وتحكيم القوانين ص ٦، وفتاوى ابن باز ٢٧٥/١، ٣٠٩/١، وأضواء البيان للشنقيطي ٩١/٤، ٤٣٩/٣، ١٦٢/٧، ١٧٣، وحواشي عمدة التفسير ١٢٥/٣، ١٤٦/٤ - ١٦٨، وفتاوى ابن عثيمين ٣٦/١ - ٣٩.

٣ - لخطورة هذه المسألة ووقوع الخلط فيها، يحسن الرجوع إلى كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص ٦٧، والمجموع الثمين في فتاوى ابن عثيمين ١٢٩/٢، حيث فصلا في ذلك وابانا فجزاهما الله عنا وعن الإسلام خيرا.

٣- أن يقر بأن حكم الله هو الحكم الحق، وأنه لا يجوز التحاكم إلى غيره، ولكنه يعلم أنه وقع في معصيته لهوى أو غيره.

وهذه القيود مأخوذة من كلام العلماء، في الحالات التي ذكروها [(١)].

فإذا توافرت هذه الضوابط، فإن صاحبها لا يكفر كفرا أكبر، وإنما هي كبيرة من الكبائر.

ولكن مع أنها كفر أصغر، فإنها أعظم من الزنا والسرقة وشرب الخمر وأكل الربا، لأن ما سماه الله كفرا، وإن لم يكن كفرا أكبر، فإنه أعظم مما لم يسمه الله كفرا، كبقية الكبائر.

وأخيرا:

فأؤكد على ما سبق أن ذكرته سابقا من خطورة هذا الباب - باب التكفير - ومن وجوب الرجوع إلى العلماء الراسخين قبل تنـــزيل الكلام على الأعيان، حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها، وألا يتعدى في هذا البحث الهدف الذي جيء به من أجله.

وأذكر في هذا المقام ما قاله العلامة الشيخ محمد بن عثيمين، وهو يتحدث في هذا الموضوع: حيث قال:

"وهذه المسألة - أعني مسألة الحكم بغير ما أنـــزل الله - من المسائل الكبرى التي ابتلي بها حكام هذا الزمان، فعلى المرء ألا يتسرع في الحكم عليهم بما لا يستحقونه حتى يتبين له الحق، لأن المسألة خطيرة، نسأل الله أن يصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم" [(٢)].

وبعد:

فقد اتضح لنا مما سبق خطورة الحكم بغير ما أنـــزل الله، وأنه أشد أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله، فإذا كان الاقتراح على الله ورسوله يعتبر تقدما، فكيف بالتشريع من دون الله.

وبهذا تتضح لنا دلالة سورة الحجرات على هذا النوع من أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله.

---

١ - انظر: بحث الدكتور عبد الرحمن المحمود ص٩. والفتاوى لشيخ الإسلام ٣٨٨/٣٥، ومنهاج السنة ١٣٠/٥، والمجموع الثمين من فتاوى ابن عثيمين ٣٦/١ - ٣٩، و١٢٩/٢ - ١٣٠، وكذلك كلام المفسرين عند تفسيرهم لآيات المائدة، ونقلهم لكلام ابن عباس "هو كفر دون كفر".

٢ - انظر: المجموع الثمين في فتاوى ابن عثيمين ٣٩/١.

الثالث عشر: الموضوع الثاني: الأدب مع العلماء

عندما نــزل قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (الحجرات:٢) تأثر الصديق أبو بكر والفاروق عمر – رضي الله عنهما – والتزما ألا يكلما رسول الله ﷺ إلا سرا أو همسا، كما سبق بيانه وتفصيله.

وكذلك فعل ثابت بن قيس بن شماس عندما تصور أن هذه الآية نــزلت فيه، لأنه كان جهوري الصوت، حيث لزم بيته حتى استدعاه رسول الله ﷺ وبشره بالجنة [١].

ومن ثم نــزل قوله – تعالى –: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى)(الحجرات: من الآية٣).

بل إن الأدب مع رسول الله ﷺ التزم به الصحابة ومن بعدهم حتى بعد وفاته، حيث كرهوا رفع الصوت عند قبره، كما ذكر ذلك كثير من المفسرين كابن كثير وغيره، حيث أورد قصة عمر رضي الله عنه مع الرجلين من أهل الطائف [٢].

وذكر بعض المفسرين أن هذا الأدب قد وعاه السلف حيث تجاوزوا به شخص رسول الله ﷺ إلى كل شيخ وعالم من العلماء، احتراما لهم، حيث إنهم يحملون ميراث رسول الله ﷺ وهو سنته، حتى عندما نــزلت آية الحجرات، أفاد منها من جاء من العلماء بعد ذلك، فكان ابن عباس – رضي الله عنهما – يذهب إلى الصحابي ليروي عنه الحديث، فيجلس عند بابه حتى يخرج تأدبا مع من يحمل حديث رسول الله ﷺ وتأثرا بقوله – تعالى –: (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ)(الحجرات: من الآية٥) وهي وإن كانت خاصة برسول الله ﷺ فإن من الأدب وحسن الخلق التعامل مع العلماء بمثل ذلك. قال أبو عبيد: ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه [٣].

---

١ – راجع أسباب نــزول الآيات في أول البحث.

٢ – انظر: تفسير ابن كثير ٤/٢٠٧، وقد تقدم تخريج هذا الأثر.

٣ – انظر: في ظلال القرآن ٦/٣٣٤٠.

إننا من خلال ما سبق من آيات في هذه السورة نجد عظمة هذا الدين في بناء الفرد المسلم على الأدب الجم، الأدب مع الله – جل وعلا – والأدب مع رسوله ﷺ ومن ثم الأدب مع من يحمل كتاب الله ويرث سنة رسوله ﷺ فالعلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يروثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم. كما جاء في الحديث عن المصطفى – ﷺ [1].

ومن هذا المنطلق جاءت أقوال السلف – رحمهم الله – ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم، وقد ذكرت قصة ابن عباس، وأبي عبيد، وتأدبهما مع العلماء.

وورد عن ابن عباس – أيضا – قوله: من آذى فقيها فقد آذى رسول الله ﷺ ومن آذى رسول الله، ﷺ فقد آذى الله– ﷻ –.

وروى الخطيب البغدادي عن أبي حنيفة والشافعي أنهما قالا: إن لم يكن الفقهاء أولياء الله فليس لله ولي [2].

وكما ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله ﷻ في الحديث القدسي: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب" [3]. ومن خلال هذه النصوص نعلم أن الأدب مع العلماء أدب مع الله، وأدب مع رسوله ﷺ وندرك أن قوله – تعالى –: ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾(الحجرات: من الآية١) وقوله: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾(الحجرات: من الآية٢) وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (الحجرات:٤) ليست لمجرد التلاوة فقط، بعد وفاة رسول الله ﷺ بل هي ترسم منهجا للمسلم في تأدبه مع الله – والله حي لا يموت – والتأدب مع الله يستلزم التأدب مع شرعه، والتأدب مع كتابه، والتأدب مع سنة رسوله ﷺ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٤) وكذلك التأدب مع العلماء والدعاة إلى الله، الذين هم أولياء الله – جل وعلا – وهم الذين يحملون الكتاب والسنة، ومن أساء

---

١ – أخرجه أبو داود (٣١٧/٣) كتاب العلم، رقم (٣٦٤١). والترمذي (٤٧/٥) كتاب العلم، رقم (٢٦٨٢). قال الترمذي: ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل. وابن ماجه (٨١/١) في المقدمة، رقم (٢٢٣). وصحح هذا الحديث الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٦٢٩٧).

٢ – انظر رسالة: لحوم العلماء مسمومة للمؤلف.

٣ – أخرجه البخاري (١٩٠/٧) كتاب الرقاق.

الأدب معهم، فقد أساء الأدب مع الله ومع رسوله، لأن ذلك لن يقف عند أشخاصهم بل سيتعدى إلى ما يحملونه من علم الكتاب والسنة [1].

ومن هذا المنطلق، ولما نراه من هجوم على كثير من العلماء؛ من تتبع لمثالبهم وانتقاصهم، والتشهير بهم، ولم يقتصر الأمر على الأحياء، بل تعدى إلى الأموات من سلف هذه الأمة وقدوتها، ولما لهذا الأمر من خطورة قد لا يدركها كثير من هؤلاء الذين يقعون في علمائهم، فَضْلا عن غيرهم من العامة، وتبعا للمنهج الذي ذكرته من ربط الواقع الذي نعيشه بهذا السورة، ومن ثم معالجة ما في واقعنا في ضوء هذه الآيات الكريمات التي نحن بصدد الحديث عنها [2]. فسأقف وقفة مناسبة لبيان هذه القضية وعلاجها[3].

١ – سيأتي تفصيل ذلك في الآثار المترتبة على الوقيعة في العلماء، انظر ثالثا.

٢ – مع الإشارة إلى أن المفسرين قد ربطوا بين هذه الآيات ومكانة العلماء، كالقرطبي حيث قال: وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء، تشريفا لهم، إذ هم ورثة الأنبياء، وكسيد قطب حيث قال: وقد وعي المسلمون هذا الأدب الرفيع وتجاوزوا به شخص رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى كل أستاذ وعالم. انظر: تفسير القرطبي ٣٠٧/١٦، وفي ظلال القرآن ٣٣٤٠/٦.

٣ – انظر: رسالة أدب الخلاف للدكتور: صالح بن عبد الله بن حميد ورسالة لحوم العلماء مسمومة للمؤلف.

أولا: مكانة العلماء وفضلهم

قال الله – تعالى –: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾(الزمر: من الآية٩) ويقول – سبحانه –: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(فاطر: من الآية٢٨) ويقول – جل وعلا –: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾(النساء: من الآية٥٩) وأولو الأمر – كما يقول أهل العلم –: هم العلماء. وقال بعض المفسرين: أولو الأمر: الأمراء والعلماء.

ويقول الله ﷻ: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾(المجادلة: من الآية١١).

وروى البخاري عن النبي ﷺ قال: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين" [١] قال ابن المنير – كما يذكر ابن حجر –: "من لم يفقهه الله في الدين فلم يرد به خيرا".

وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: "فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ليلة البدر. العلماء هم ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر" [٢].

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة – كما يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي – رحمه الله –: "أنهم يدينون الله باحترام العلماء الهداة"، أي أن أهل السنة والجماعة يتقربون إلى الله – تعالى – بتوقير العلماء، وتعَظِيم حرمتهم.

قال الحسن: "كانوا يقولون: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار".

وقال الأوزاعي: "الناس عندنا أهل العلم. ومن سواهم فلا شيء".

وقال سفيان الثوري: "لو أن فقيها على رأس جبل؛ لكان هو الجماعة".

وحول هذه المعاني يقول الشاعر:

الناس من جهة التمثال أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم في أصلهم نسب ... يفاخرون به فالطين والماء

---

١ – صحيح البخاري (٢٥/١، ٢٦) كتاب العلم. وأخرجه مسلم (١٥٢٤/٣) كتاب الإمارة، رقم (١٠٣٧).

٢ – أخرجه الترمذي (٤٧/٥) كتاب العلم، رقم (٢٦٨٢) وأبو داود (٣١٧/٣) كتاب العلم، رقم (٣٦٤١)، وابن ماجه (٨١/١) في المقدمة، رقم (٢٢٣). والدارمي (١١٠/١) في المقدمة، رقم (٣٤٢). وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٦٢٩٧).

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم　　　على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه　　　والجاهلون لأهل العلم أعداء

من هذه النصوص الكريمة، ثم من هذه الأقوال المحفوظة، تتبين لنا المكانة العظيمة، والدرجة العالية، التي يتمتع بها علماء الأمة؛ ومن هنا وجب أن يوفيهم الناس حقهم من التعَظِيمٌ والتقدير، والإجلال وحفظ الحرمات، قال الله – تعالى –: (وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)(الحج: من الآية٣٠) ويقول – جل وعلا –: (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)(الحج: من الآية٣٢) والشعيرة – كما قال العلماء –: كل ما أذن الله وأشعر بفضله وتعظيمه والعلماء – بلا ريب – يدخلون دخولا أوليا فيما أذن الله وأشعر بفضله وتعظيمه، بدلالة النصوص الكريمة السالفة الإيراد.

إذن، فالنيل من العلماء وإيذاؤهم يعد إعراضا أو تقصيرا في تعَظِيم شعيرة من شعائر الله. وما أبلغ قول بعض العلماء: "أعراض العلماء على حفرة من حفر جهنم".

وإن مما يدل على خطورة إيذاء مصابيح الأمة (العلماء)، ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله – ﷺ قال الله ﷻ في الحديث القدسي: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب"[1].

أخي القارئ الكريم: كلنا يدرك أن من أكل الربا، فقد آذنه الله بالحرب، إن لم ينته ويتب عن ذلك الجرم العَظِيم، كلنا يدرك هذا؛ ولكن هل نحن ندرك – أيضا – أن من آذى أولياء الله فقد حارب الله – جل وعلا – كما تبين من الحديث السابق !؟ هل نحن نستحضر هذا الوعيد الشديد، عندما نهم بالحديث في عالم من العلماء ؟!.

روى الخطيب البغدادي عن أبي حنيفة والشافعي – رحمهما الله – أنهما قالا: "إن لم يكن الفقهاء أولياء الله، فليس لله ولي" قال الشافعي: "الفقهاء العاملون": أي أن المراد: هم العلماء العاملون.

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما –: "من آذى فقيها فقد آذى رسول الله ﷺ ومن آذى رسول الله ﷺ فقد آذى الله – عز وجل–".

١ – تقدم تخريجه قريبا.

لعل في هذه النصوص تبيينا لفضل العلماء، وتذكيرا ببعض ما يجب لهم علينا من الحقوق.

ثانيا: أسباب أكل لحوم العلماء

١- الغَيْرة والغِيرة:

أما الغَيرة - بالفتح - فهي محمودة، وهي أن يغار المرء وينفعل من أجل دين الله، وحرمات الله - جل وعلا - لكنها قد تجر صاحبها - إن لم يتحرز - شيئا فشيئا، حتى يقع في لحوم العلماء من حيث لا يشعر.

وأما الغيرة - بالكسر- فهي مذمومة، وهي قرينة الحسد، والمقصود بها هو: كلام العلماء بعضهم في بعض (الأقران) قال سعيد بن جبير: "استمعوا لعلم العلماء، ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايرا من التيوس في ضرابها" أي: استفيدوا من علم العلماء، ولكن لا تصدقوا كلام بعضهم على بعض، من الأقران. ولذلك قال الذهبي: "كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لا سيما إذا كان لحسد أو مذهب أو هوى".

٢- الحسد:

والحسد يعمي ويصم، ومنه التنافس للحصول على جاه أو مال، فقد يطغى بعض الأقران على بعض، ويطعن بعضهم في بعض، من أجل القرب من سلطان، أو الحصول على جاه أو مال.

٣- الهوى:

إن بعض الذين يأكلون لحوم العلماء لم يتجردوا لله - تعالى - وإنما دفعهم الهوى، للوقوع في أعراض علماء الأمة. واتباع الهوى لا يؤدي إلى خير، قال - تعالى -: (وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)(صّ: من الآية٢٦)، وقال - سبحانه -: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)(القصص: من الآية٥٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "صاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه". وكان السلف يقولون: "احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه".

٤- التقليد:

لقد نعى الله – تعالى – على المشركين تقليدهم آباءهم على الضلال: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)(الزخرف: من الآية٢٢).

والتقليد ليس كله مذموما، بل فيه تفصيل ذكره العلماء، ولكنني في هذا المقام أحذر من التقليد الذي يؤدي إلى نهش لحوم العلماء، فإنك – أحيانا – تسمع بعض الناس يقع في عرض عالم، فتسأله: هل استمعت إلى هذا العالم؟ فيقول: لا والله. فتقول: إذن كيف علمت من حاله وأقواله كذا وكذا ؟! فيقول: قاله لي فلان [1]. هكذا يطعن في العالم تقليدا لفلان، بهذه السهولة، غير مراع حرمة العالم.

قال ابن مسعود: "ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلا، إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر" وقال أبو حنيفة: "لا يحل لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت".وقال الإمام أحمد: " من قلة علم الرجل أن يقلد دينه الرجال".

---

١ – وليس المراد أن فلانا نقل له كلامه – فهذا هو السند وهو مصدر صحيح إذا كان الناقل ثقة، ولكن المراد أن فلانا سبه وقدح فيه، فسبه تبعا له دون تبين.

٥- التعصب:

من خلال سبري لأقوال الذين يتحدثون في العلماء ــ وبخاصة طلاب العلم والدعاة ــ تبين لي أن التعصب من أبرز أسباب ذلك. والباعث على التعصب هو الحزبية، الحزبية لمذهب أو جماعة أو قبيلة أو بلد، الحزبية الضيقة التي فرقت المسلمين شيعا، حتى صدق على بعضهم قول الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

سمعت أن بعض طلاب العلم يتكلمون في بعض العلماء، وفجأة تغير موقفهم، وصاروا يثنون عليه، لأنهم سمعوا أن فلانا يثني عليه، فأثنوا عليه، وسبحان الله مغير الأحوال.

إذا ضل من يتعصبون له، ضلوا معه، وإذا اهتدى للصواب، اهتدوا معه. لقد سلم بعض الطلاب والدعاة عقولهم لغيرهم، وقلدوا في دينهم الرجال.

ولقد رأينا قريبا من ينتصر لعلماء بلده، ويقدح في علماء البلاد الأخرى، سبحان الله ! أليست بلاد المسلمين واحدة ! أليس هذا من التعصب المذموم! أليس من الشطط أن يتعصب أهل الشرق لعلماء الشرق، وأهل الغرب لعلماء الغرب، وأهل الوسط لعلماء الوسط!.

إن هذا التعصب مخالف للمنهج الصحيح، الذي يدعونا إل أن نأخذ بالحق مهما كان قائله، ولهذا قال أبو حامد الغزالي في ذم التعصب: "وهذه عادة ضعفاء العقول، يعرفون الحق بالرجال، لا الرجال بالحق".

٦- التعالم:

لقد كثر المتعالمون في عصرنا، وأصبحت تجد شابا حدثا يتصدر لنقد العلماء، ولتفنيد آرائهم وتقوية قوله،وهذا أمر خطير، فإن من أجهل الناس من يجهل قدر نفسه،ويتعدى حدوده.

٧- النفاق وكره الحق:

قال الله – تعالى – عن المنافقين: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً)(البقرة: من الآية١٠)، (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ) (البقرة:١٣)، (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) (البقرة:١٤).

إن المنافقين الكارهين للحق، من العلمانيين، والحداثيين، والقوميين، وأمثالهم، من أقوى أسباب أكل لحوم العلماء، لما في قلوبهم من المرض والبغض للحق وأهله.

ومن المؤسف المحض أنني استمعت في مجلس من المجالس إلى أحد هؤلاء المنافقين، يستطيل في أعراض العلماء، فقلده بعض الطيبين من حيث لا يشعر، ووافقه على ما يقول، حتى رد عليه في ذلك المجلس.

إن العلمانيين الآن يتحدثون في علمائنا بكلام بذيء، يعف القلم عن تسطيره، مما يدل على ما في قلوبهم من الدغل، ومعاداة ورثة الأنبياء، وما يحملونه من الحق.

٨- تمرير مخططات الأعداء كالعلمنة ونحوها:

أدرك العلمانيون – أخزاهم الله– أنه لا يمكن أن تقوم لهم قائمة، والعلماء لهم شأن وهيبة في البلد، فأخذوا في النيل من العلماء، وشرعوا في تشويه صورة العلماء،وتحطيم قيمتهم، بالدس واللمز، والافتراء والاختلاف. لا أقول هذا جزافا ولا رجما بالغيب، ولكن ذلك هو ما نقله إلينا الثقات عن العلمانيين، من كلام في العلماء لا يقبله عقل العامي، فَضْلا عن طالب العلم.

ثالثاً: الآثار المترتبة على الوقيعة في العلماء

إن هناك عواقب وخيمة، ونتائج خطيرة، وآثارا سلبية، تترتب على أكل لحوم العلماء، والوقوع في أعراضهم. يدرك تلك الآثار من تأمل في الواقع،ووسع أفقه، وأبعد نظره، وإليك أهمها:

١- أن جرح العالم سبب في رد ما يقوله من الحق:

إن جرح العالم ليس جرحا شخصيا،كأي جرح في رجل عامي، ولكنه جرح بليغ الأثر، يتعدى الحدود الشخصية، إلى رد ما يحمله العالم من الحق. ولذلك استغل المشركون من قريش هذا الأمر، فلم يطعنوا في الإسلام أولا، بل طعنوا في شخص الرسول، ﷺ لأنهم يعلمون – يقينا – أنهم إن استطاعوا أن يشوهوا صورة الرسول ﷺ في أذهان الناس، فلن يقبلوا ما يقوله من الحق. قالوا: إنه ساحر، كاهن، مجنون.. ولكنهم فشلوا – ولله الحمد – في ذلك. وقد كانوا قبل بعثته يصفونه بالأمين، الصادق، الحكم، الثقة. فما الذي تغير بعد بعثته؟ ما الذي حوله إلى كاهن، مجنون، ساحر ؟ إنهم لا يقصدون شخص محمد بن عبد الله، فهم يعلمون أنه هو هو، ولكنهم يقصدونه بصفته رسولا يحمل منهجا هم يحاربونه، فعلموا أنهم إن استطاعوا تشويه صورته في نفوس الناس، فقد نجحوا في صدهم عنه، وعما معه من الحق. وهذا هو أسلوب المنافقين اليوم.

٢- أن جرح العالم جرح للعلم الذي معه:

وهو ميراث النبي، ﷺ إذ العلماء ورثة الأنبياء، فجرح العالم جرح للنبي، عليه الصلاة والسلام، وهذا هو معنى قول ابن عباس: " من آذى فقيها فقد آذى رسول الله ﷺ ومن آذى رسول الله، ﷺ فقد آذى الله – جل وعلا".

إذن، فالذي يجرح العالم يجرح العلم الذي معه.

ومن جرح هذا العلم، فقد جرح إرث النبي، ﷺ وعلى ذلك فهو يطعن في الإسلام من حيث لا يشعر.

٣- أن جرح العلماء سيؤدي إلى بعد طلاب العلم عن علماء الأمة:

وحيئنذ يسير الطلاب في طريقهم بدون مرشدين، فيتعرضون للآخطار والأخطاء، ويقعون في الشطط والزلل، وهذا ما نخشاه على شبابنا اليوم.

٤- أن تجريح العلماء تقليل لهم في نظر العامة:

وذهاب لهيبتهم، وقيمتهم في صدورهم، وهذا يسر أعداء الله، ويفرحهم، يقول أحد الزعماء الهالكين في دولة عربية بعد أن سلط إعلامه على العلماء، مستهترا مستهزئا بهم -: "عالم.. شيخ.. أعطه فرختين؛ فيفتي لك بالفتوى التي تريد".

لقد سقطت قيمة العلماء عند العامة في كثير من الدول الإسلامية. ذهبت إلى بعض تلك الدول، وسألت عن العلماء، فما وجدت الناس يعرفون العلماء، ولا يأبهون للعلماء؛ لأن العلمنة سلطت سهامها عليهم، فشوهت صورهم، ولطخت سمعتهم؛ فأصبحوا من سقط المتاع، في نظر كثير من الناس.

رابعاً: ما يجب علينا تجاه العلماء

١- أن نحفظ للعلماء مكانتهم، وفاعليتهم في قيادة الأمة، وأن نتأدب معهم:

إن في معاملة السلف لعلمائهم لقدوة لنا، يجب الاقتداء بها، وإن فيما سطروه من بيان لآداب طالب العلم لنورا، ينبغي لشداة العلم أن يستنيروا به في طريق الطلب.

قال العراقي: "لا ينبغي للمحدث أن يحدث بحضرة من هو أولى منه بذلك. وكان إبراهيم والشعبي إذا اجتمعا لم يتكلم إبراهيم بشيء".

وقال ابن الشافعي: "ما سمعت أبي ناظر أحدا قط فرفع صوته"

وقال يحيي بن معين: "الذي يحدث بالبلد وفيها من هو أولى منه بالتحديث فهو أحمق"

وقال الصعلوكي: "من قال لشيخه: لِمَ – على سبيل الاستهزاء – لم يفلح أبدا".

وتأدب ابن عباس رضي الله عنه مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث مكث سنة وهو يريد أن يسأله عن مسألة من مسائل العلم، فلم يفعل.

وقال طاووس بن كيسان: "من السنة أن يوقر العالم".

وقال الزهري: "كان سلمة يماري ابن عباس، فحرم بذلك علما كثيرا".

وقال البخاري: "ما رأيت أحدا أوقر للمحدثين من يحيى بن معين".

وقال المغيرة: "كنا نهاب إبراهيم كما نهاب الأمير".

وقال عطاء بن أبي رباح: "إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأنصت له، كأني لم أسمعه أبدا. وقد سمعته قبل أن يولد".

وقال الشافعي: " ما ناظرت أحدا قط إلا تمنيت أن يجري الله الحق على لسانه".

وذكر أحد العلماء عند الإمام أحمد بن حنبل – وكان متكئا من علة – فاستوى جالسا وقال: لا ينبغي أن يذكر الصالحون فنتكئ.

وقال الجزري: "ما خاصم ورع قط".

وبمثل هؤلاء يحسن الاقتداء (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)(الأنعام: من الآية٩٠).

٢- أن نعلم أنه لا معصوم إلا من عصم الله وهم الأنبياء [١] والملائكة:

وعلى ذلك فيجب أن ندرك أن العالم معرض للخطأ، فنعذره حين يجتهد فيخطئ، ولا نذهب نتلمس أخطاء العلماء ونحصيها عليهم.

ولقد كان سلف الأمة – رحمهم الله – يستحضرون هذا الأمر، ويفقهونه حق الفقه.

قال الإمام سفيان الثوري: "ليس يكاد يثبت من الغلط أحد"

وقال الإمام أحمد: "ومن يعرى من الخطأ والتصحيف !!".

وقال الترمذي: "لم يسلم من الخطأ والغلط كبير أحد من الأئمة مع حفظهم".

وقال ابن حبان: "وليس من الإنصاف ترك حديث شيخ ثبت صحة عدالته بأوهام يهم في روايته، ولو سلكنا هذا المسلك، ترك حديث الزهري وابن جريج والثوري وشعبه؛ لأنهم أهل حفظ وإتقان، و لم يكونوا معصومين حتى لا يهموا في رواياتهم".

٣- أن ندرك أن الخلاف موجود منذ عهد الصحابة، إلى أن تقوم الساعة:

لذلك يجب أن تتسع صدورنا للخلاف بين العلماء [٢] فلكل واحد منهم فهمه، ولكل واحد اطلاعه على الأدلة، ولكل واحد نظرته في ملابسات الأمور، فمن الطبيعي أن يوجد الخلاف بينهم،

---

١ – لا تخفى عقيدة أهل السنة في موضوع عصمة الأنبياء وفي حدود هذه العصمة فليعلم، ومن أراد مزيد بيان فليرجع إلى شرح العقيدة الطحاوية.

٢ – وأعني به خلاف الفروع لا الأصول، وانظر رسالة الدكتور صالح بن حميد في أدب الخلاف.

وانظر ما ذكره كثير من العلماء في هذا الموضوع، ككتاب "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"، لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –.

٤- أن نفوت الفرصة على الأعداء، وننتبه إلى مقاصدهم وأغراضهم:

وأن ندافع عن علمائنا، لا أن نكون من وسائل تمرير مخططات الأعداء من حيث لا نشعر.

٥- أن نحمل أقوال علمائنا وآراءهم على المحمل الحسن:

وألا نسيء الظن فيهم، وإن لم نأخذ بأقوالهم.

حقا أننا لسنا ملزمين بالأخذ بكل أقوال العلماء، لكن ثمة فرقا كبيرا بين عدم الأخذ بقول العالم – إذا كان هناك دليل يخالفه – والجرح فيه، فلا يعني عدم اقتناعنا برأي العالم أن نستبيح عرضه، ونأكل لحمه. فلا يعني عدم اقتناعنا برأي العالم أن نستبيح عرضه، ونأكل لحمه. ولقد كان الإمام الشافعي – رحمه الله – يقول: "إذا صح الحديث فهو مذهبي" ونقل ذلك عن غير واحد من الأئمة، فقد كانوا يدركون أنه ليس أحد متعبدا بقول عالم، فقد يكون قوله مخالفا للدليل، لأنه لم يبلغه – مثلا – لكن تبقى حرمة العالم مصونة من الطعن والوقيعة.

قال عمر رضي الله عنه "لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا".

٦- أن ننتبه إلى أخطائنا وعيوبنا نحن، وننشغل بها عن عيوب الناس عامة، وعن أخطاء العلماء خاصة.

**يا واعظ الناس قد أصبحت متهما		إن عبت منهم أمورا أنت تأتيها**

**وأعظم الإثـــم بعد الشـــرك نعلمه		في كل نفس عماها عن مساويها**

**عرفتها بعيــــــوب الناس تبصرها		منهم، ولا تبصر العيب الذي فيها**

وما مثل من يقع في أعراض العلماء وينسى نفسه إلا كما قال الشاعر:

**كناطح صــــــخرة يومـــا ليوهنها		فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعل**

أو كما قال الآخر:

يا ناطح الجبـــل العالـــي ليثلمـــه   أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

قد يقصر العالم، ولكن هل يعني تقصيره أن نترك علمه وعمله ؟!

اعمل بعلمي وإن قصرت في عملي   ينفعك علمي، ولا يضررك تقصيري

خامساً: السبيل السليم لبيان الحق، بدون الوقوع في العلماء

بعض الناس اليوم وقعوا بين إفراط وتفريط، ففريق يطعنون في العلماء ويتهمونهم كلما قالوا شيئا. وفريق آخر، إذا سمعوا عالما أو طالب علم يبين الحق بدليله قالوا: إنه يقع في أعراض العلماء، ويحدث فتنة.

وكلا الفريقين مجانب للمنهج الصحيح في هذا الباب.

فما المنهج الصحيح الذي نجمع فيه بين بيان الحق وحماية أعراض علمائنا، غير ملتزمين بقول إلا إذا كان مقرونا بالدليل؟

يمكن توضيح ذلك المنهج كما يلي:

١- **التثبت من صحة ما ينسب إلى العلماء:**

فقد يشاع عن العلماء أقوال؛ لأغراض لا تخفى، فيجب التأكد مما ينقل عن العلماء، فقد يكون غير صحيح، ولا أساس له، وكم سمعنا من أقوال نسبت إلى كبار علمائنا، ولما سألناهم عنها تبين أنهم براء منها. هناك غير قليل من الناس يجلس أحدهم في المجلس ويقول: الشيخ فلان - هداه الله - فيه كيت وكيت. فتسأله: لماذا ؟ فيقول: إنه يقول: كذا وكذا. حتى إذا ذهبت إلى ذلك الشيخ وسألته عن صحة ما نقل عنه، قال: والله ما قلت شيئا من هذا !!.

إذن، فالتحقق من صحة ما يعزى إلى العالم يعد خطوة أولى في المنهج الصحيح، الذي نحن بصدده.

٢- أن نعرف أن عدم الأخذ بقول العالم، وأن مناقشته، والصدع ببيان الحق، يختلف تماما عن الطعن في العلماء:

فالفرق بين الأمرين عَظِيمٌ جدا، يجوز لنا ألا نأخذ بالفتوى، إذا لم توافق الدليل، لكن لا يجوز لنا الطعن في العلماء.

٣- أن يقصد المتحدث بكلامه وجه الله – جل وعلا –.

فيستحضر الإخلاص، ويحذر من الأغراض الشخصية العارضة كالهوى، والتشفي، وحب الظهور، (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)(الكهف: من الآية١١٠).

ولينتبه فإنه قد يكون رده في الأصل بإخلاص وتجرد لله، ثم تدخل عليه أعراض يوسوس إليه بها الشيطان، من حب البروز وغيره من الآفات المفسدة للنية.

٤- الإنصاف والعدل:

المتأمل في واقع بعض طلاب العلم يجدهم إما أن يأخذوا كل ما يقوله العالم، أو يردوا كل ما يقوله، وهذا خلاف ما أمر الله – تعالى – به من العدل والإنصاف، قال – تعالى –: (وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)(المائدة: من الآية٨) والعدل والإنصاف هو منهج أهل السنة والجماعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أهل السنة أعدل مع المبتدعة من المبتدعة بعضهم مع بعض".

والعدل والإنصاف مع العلماء يتضمن أمورا:

أ – **الثناء على العالم بما هو أهل له.** .

ب – **عدم التجاوز في بيان الخطأ الذي وقع فيه،** فإذا وقع أحد العلماء في خطأ، وأردت أن تبين خطأه، فلا تذهب تحصي جميع أخطائه، وتستطيل في عرضه، وإنما احصر حديثك في القضية التي تريد بيان الحق فيها، ولا تتجاوزها، وإياك أن يستجرك أحد إلى تجاوزها.

٥- أن نسلك منهج رجال الحديث في تقويم الرجال:

إن على من يتصدى لبيان الحق في مسألة أخطأ فيها أحد العلماء، أن يسلك المنهج الدقيق المنصف الذي رسمه رجال الحديث – رحمهم الله – وثمة رسالة جميلة مختصرة، صغيرة في حجمها، كبيرة في

قيمتها، تبين هذا المنهج، وعنوانها: **منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم** للشيخ أحمد الصويان. فأحيل القارئ الكريم إليها، ففي النهر ما يغني عن الوشل.

٦- أن نعلم أن خطأ العالم على نوعين: خطأ في الفروع. وخطأ في الأصول:

أما مسائل الفروع فهي مسائل اجتهادية، يجوز فيها الخلاف، فإذا أخطأ فيها العالم، بينا خطأه فيها، بدون تعرض لشخصه.

وأما مسائل الأصول (العقيدة)، فيبين القول الصحيح بها، ويحذر من أهل البدع في الجملة، وينبه إلى خطورة الداعي إلى بدعته، بدون إفراط ولا تفريط. يقول شيخ الإسلام: "أهل السنة أعدل مع المبتدعة من المبتدعة بعضهم مع بعض" فالمبتدعة يأكل بعضهم لحوم بعض، وكل فئة تغمط الأخرى حقها، وأما أهل السنة فينصفون، حتى مع الكفار، فَضْلا عمن كان مخطئا خطأ دون الكفر.

إن بعض الناس اليوم يميلون ميلا عظيما عن طريق أهل السنة والجماعة في هذا الباب، فقد استمعت منذ فترة إلى قصة مؤلمة محزنة، وهي أن نفرا اتهموا أحد الدعاة بأخطاء في العقيدة، ولم يقتصروا على بيان أخطائه العقدية، بل مضوا يذكرون عنه قصصا شخصية في بيته: عن زوجته، وعن بنته، وعن أولاده، سبحان الله ! لماذا الحديث عن زوجته وبنته وأولاده ؟! ما الداعي للطعن في شخصه ؟! حقا إننا لا نحث على السكوت عن الخطأ، ولكننا ندعو إلى الأسلوب الصحيح، لبيان الحق، وتوضيح الخطأ.

٧- أخيرا، إذا أمكن الاتصال بمن وقع منه الخطأ – سواء في الأصول أو الفروع – لعله يرجع إلى الصواب، فهذا أولى:

لأن الحق هو المقصود، وفي رجوع المخطئ بنفسه عن قوله وإعلانه ذلك للناس خير كثير، لأنك إن رددت عليه، وبينت الحق، فقد يقتنع نصف الناس، أما إذا رجع هو بنفسه بعد مناصحتك له، وتخويفك إياه بالله، فسيقتنع كل الناس الذين أخذوا بقوله.

ومما يذكر في هذا المقام أن اثنين من العلماء اختلفا في مسألة، فلم يذهب كل واحد منهما يخطئ صاحبه عند الناس، بل اجتمعا وتناظرا، فكانت نهاية المناظرة أن أخذ كل واحد منهما بقول الآخر؛ لأن مرادهما هو الحق.

سادساً: أمور لا بد من بيانها :

١- أننا لا ندعو إلى تقديس الأشخاص، أو التغاضي عن الأخطاء، أو السكوت عن الحق. بل ندعو إلى المنهج الصحيح في بيان الحق، بدون انتهاك لأعراض العلماء، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء.

٢- لماذا تبرز أخطاء العلماء أكثر من غيرهم ؟

السبب في ذلك هو أن العلماء هم صفوة الأمة، وخيارها، وقدوتها، وأحمدها سيرة، فإذا وقع منهم خطأ كان واضحا جليا، لأنه بمثابة النقطة السوداء في صفحتهم الناصعة البيضاء. ولذلك قيل: زلة العالم مضروب بها الطبل.

وما مثل العالم إلا كمثل الثوب الأبيض، إذا أصابته نقطة - مهما كان صغرها - برزت فيه وظهرت. ومن هنا وجب على العلماء أن يتنبهوا لذلك الأمر، بأن يتفقدوا أنفسهم، ويتفطنوا لأعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم. كما وجب - كذلك - على الناس ألا يضخموا هفوات علمائهم، ولا ينفخوا فيها.

٣- احذر من الذم الذي يشبه المدح:

بعض الناس يسهب في الثناء على شيخ من المشايخ، ويخلع عليه من نعوت الفضل وألقاب التوقير شيئا كثيرا، ثم يقول - مثلا - (لكن الشيخ حبيب) أو طيب القلب، وهو يقصد أنه قد يستغفل، أو غير ذلك من الأساليب المغلفة بغلاف المدح، وهي للتنقص. وإن على هؤلاء الذين يستخدمون هذه الأساليب، أن يخافوا الله ويتقوه، وأن يدركوا خطورة ما يقولون، وأن يتوبوا إلى الله، ويستغفروه، وأن يعتذروا ممن انتقصوه.

٤- أن من أساء الأدب مع العلماء فسيلقى جزاءه، عاجلا أو آجلا:

قال الإمام الذهبي في ترجمة ابن حزم: "وصنف كتبا كثيرة، وناظر عليه، وبسط لسانه وقلمه، ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب. بل فجج العبارة، وسب وجدع، فكان جزاؤه من جنس فعله، بحيث إنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة، وهجروها، ونفروا منها، وأحرقت في وقته".

والواقع يشهد أن الذي يسبب العلماء، ويتجرأ عليهم، يسقط من أعين العامة والخاصة.

ويقول الحافظ ابن رجب: "والواقع يشهد بذلك، فإن من سبر أخبار الناس، وتواريخ العالم، وقف على أخبار من مكر بأخيه، فعاد مكره عليه، وكان ذلك سببا لنجاته وسلامته". أي: سببا لنجاة الممكور به وسلامته.

٥- على العلماء وطلاب العلم الذين يبتلون بالتعرض للطعن، وكلام الناس فيهم، عليهم أن يصبروا ويتقوا الله، وأن يعلموا أنهم ليسوا أفضل من الأنبياء والمرسلين، فالرسول ﷺ لم يسلم من الكلام فيه، وطعن حتى في أهله، في حادثة الإفك، فللعلماء أسوة في رسول الله ﷺ فليقتدوا به، وليعلموا أن العاقبة للمتقين، قال – تعالى –: (قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)(يوسف: من الآية٩٠).

وقال – جل وعلا – عن موسى: (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (الأعراف:١٢٨) وقال – سبحانه –: (وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ)(فاطر: من الآية٤٣).

وصدق من قال:

ولست بناج من مقـــالة طـــــــاعن ولو كنت في غار على جبل وعر

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالما ولو غاب عنهم بين خافيتي نسر

٦- أخيرا أقول للمتحدثين في العلماء: اتقوا الله، توبوا إلى الله، أنيبوا إلى الله، أثنوا على العلماء بمقدار غيبتكم لهم، وإلا فأنتم الخاسرون، والعاقبة للمتقين. وما مثلكم إلا كما قال الأول:

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعل

وقول الآخر:

يا ناطح الجبل العالي ليثلمه أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

فتنبهوا، وصححوا المنهج، وانظروا في العواقب، واحفظوا حرمات الله، يحفظكم الله، ويغفر لكم.

الرابع عشر: الموضوع الثالث: التقوى وامتحان القلوب

من أبرز ما ورد في السورة، الأمر بالتقوى، حيث جاء ذلك في عدة مواضع، وكذلك جاء الحديث عن القلب في مواضع كثيرة في هذه السورة، وقد جاء مصرحا به أو ما يدل عليه.

فالآيات التي جاءت في موضوع التقوى هي:

جاء في الآية الأولى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(الحجرات: من الآية١) وفي الآية الثالثة: (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى)(الحجرات: من الآية٣) وفي العاشرة: (وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(الحجرات: من الآية١٠) وفي الآية الثانية عشرة: (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)(الحجرات: من الآية١٢) وفي الثالثة عشرة: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(الحجرات: من الآية١٣).

أما الآيات التي جاءت للحديث عن القلب فهي على قسمين:

١- آيات صرحت بذكر القلب.

٢- أخرى جاءت دالة على معناه دون تصريح.

فالآيات التي جاءت مصرحة بذكر القلب هي:

في الآية الثالثة قال - سبحانه -: (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى)(الحجرات: من الآية٣) وفي الآية السابعة: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْأِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ)(الحجرات: من الآية٧) وفي الآية الرابعة عشرة: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)(الحجرات: من الآية١٤).

أما الآيات التي جاءت وفيها دلالة على معنى القلب فهي:

في الآية الثانية: (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)(الحجرات: من الآية٢) والشعور مكانه القلب، وفي الآية الرابعة قال سبحانه: (أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ)(الحجرات: من الآية٤).

وفي هذا دلالة على القلب [1]. وفي الآية السادسة: (فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)(الحجرات: من الآية٦) والندم مكانه القلب، وإن كان يظهر على الجوارح، بل كل أمر يكون مكانه القلب ولا يظهر على الجوارح فلا أثر له، ولذلك لا يؤاخذ الله المؤمنين بما كسبته قلوبهم إذا لم يظهر على جوارحهم،

---

١ - هناك خلاف هل العقل هو القلب أو غيره، ولكن على أي القولين فإن هناك تلازما بينهما، ويطلق أحدهما على الآخر كثيرا.

كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة [1]. وفي الآية الثانية عشرة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ)(الحجرات: من الآية١٢) والظن مكانه القلب، وفي الآية الخامسة عشرة: (ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)(الحجرات: من الآية١٥) والريبة شك يصيب القلب.

مع ما ورد من آيات أخرى لها علاقة بالقلب كالنهي عن السخرية واللمز والمنة، والتفاخر، فهذه الأمور لا تظهر على الجوارح إلا لتمكنها من القلب أولا، ومثل ذلك الصدق والرشد.

ولذلك سأتحدث عن التقوى وعن القلوب جميعا وذلك للأسباب التالية:

١- ما ورد فيهما من آيات كما سبق.

٢- العلاقة الوثيقة بين التقوى والقلب، بل إن التقوى مكانها القلب كما سيأتي.

٣- أن مدار ما ورد في هذه السورة مرتبط بالتقوى وبالقلوب ارتباطا وثيقا، ولذلك كثر ورودهما، فالتقوى وسلامة القلب ضمانة أساس [2] لعلاج هذه الأمراض التي ذكرها الله سبحانه.

٤- أن الله أمر بالإيمان في هذه السورة في أكثر من موضع [3] والإحسان درجة أعلى من الإيمان، كما أن الإيمان أعلى من الإسلام، والتقوى هي الإحسان، حيث قد فسرها العلماء بذلك كما سيأتي، فإذا تحقق الإحسان – التقوى – تحقق الإيمان من باب أولى، فتحقق المراد في هذه السورة.

٥- أن الله ربط بين التقوى والقلب في قوله – تعالى –: (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى)(الحجرات: من الآية٣) فالقلب إناء لِلتَّقْوَى، كما يفهم من تفسير العلماء لهذه الآية، وفساد الشيء يؤثر فيما يوضع فيه، كما يؤثر الإناء المتسخ في الماء الزلال إذا وضع فيه.

لذلك كله سأتحدث عن هذين الموضوعين، وسأبدا بالحديث عن التقوى ثم بالحديث عن القلوب حيث قسمتها إلى موضوعين، عنونت لهما بـــ:

١- حقيقة التقوى.

٢- امتحان القلوب.

---

١ – انظر: تفسير آخر سورة البقرة الآيتان: ٢٨٤ – ٢٨٦، وأسباب نـــزولهما.

٢ – لا يعني هذا نفي تأثيرهما في بقية الذنوب، ولكن أثرهما هنا أبرز من غيرهما.

٣ – جاء ذلك في عدة أساليب تدل على الإيمان.

مع الإشارة إلى أنني سأختصر فيما يتعلق في موضوع التقوى، وأفصل في موضوع امتحان القلوب[1]. وذلك لأن الحديث عن القلب وأدوائه وسبل شفائه حديث عن التقوى وحقيقتها، والتفصيل بعد الإجمال أولى من الإجمال بعد التفصيل، وإن كان ما سأذكره في موضوع التقوى لن أعيده في الموضوع الثاني تحاشيا للتكرار، عدا جزئيات متداخلة يصعب إغفالها أو تجاوزها في أي من الموضوعين.

١ – وانظر: رسالة امتحان القلوب للمؤلف.

أولا: حقيقة التقوى

تعريف التقوى:

التقوى لغة: على وزن دعوى، اسم بمعنى الحذر. وأصل التقوى: تقيا، قلبوا الواو إلى الياء فرقا بينه وبين صديا وخزيا من الصفات، لأن التقوى اسم وليس بصفة.

وأما تاء تقوى فإنها مبدلة من الواو، وأصلها: وقوى.

والوقاء والوقاية: كل ما وقيت به شيئا وصنته.

قال حسان:

فإن أبي ووالده وعرضي   لعرض محمد منكم وقاء

والخلاصة أن التقوى لغة: الصيانة والحذر والحماية والحفظ [١].

وشرعا: كمال توقي الإنسان عما يضره يوم القيامة، وذلك بفعل المأمورات، وتجنب المحرمات والمنهيات [٢].

ومزيدا من إلقاء الضوء على معنى التقوى نذكر هذه التعريفات:

قيل: التقوى: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. (وهذا تعريف الإحسان كما ورد في الحديث) [٣].

وقال علي رضي الله عنه التقوى: ترك الإصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطاعة [٤].

وقيل: التقوى:أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية [٥].

وقيل: التقوى: ألا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك [٦].

---

١ – انظر: لسان العرب مادة (وقي).

٢ – انظر: غرائب القرآن للنيسابوري ١–١٤٣، وانظر: فتح القدير ١–٣٣، وتفسير روح المعاني للألوسي ١–١٠٨.

٣ – انظر: تهذيب مدارج السالكين ٢–٧٦٣.

٤ – انظر: تفسير الرازي ٢–٢١.

٥ – انظر: المحرر الوجيز ١–١٤٤.

٦ – انظر: تفسير روح المعاني للألوسي ١–١٠٨.

وقال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله [(١)].

وقال سيد قطب – رحمه الله –: التقوى: حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواك الطريق [(٢)].

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس [(٣)].

وقد سأل عمر رضي الله عنه أبي بن كعب رضي الله عنه عن التقوى؟ فأجاب أبي: أما سلكت طريقا ذا شوك ؟ قال: بلى، قال: فماذا عملت ؟ قال: شمرت واجتهدت. قال فذلك التقوى [(٤)].

وعبر عن هذا المعنى ابن المعتمر فقال [(٥)] :

خل الذنــوب صغيــرها — وكبيـــــرها ذاك التقـــى

واصنع كمـــاش فوق أر — ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقـــرن صغيــــرة — إن الجبـــــال من الحصى

قال أحد العلماء: جماع التقوى في قوله – تعالى –: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل:٩٠).

وقد روي عن رسول الله، ﷺ أنه قال في معنى قوله – تعالى –: (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)(آل عمران: من الآية١٠٢) "أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر" [(٦)].

آيات التقوى

وردت كلمة (وقى) بتصاريفها المتعددة – في القرآن الكريم أكثر من مائتين وخمسين مرة [(١)].

---

١ – انظر: جامع العلوم والحكم ص (١٣٨) ومصنف ابن أبي شيبة (٧–١٨٢).

٢ – انظر: في ظلال القرآن ١–٤١.

٣ – تهذيب مدارج السالكين ١–٤٦٣.

٤ – ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم صلى (١٣٨) وعزاه لأبي هريرة وذكره القرطبي في تفسيره ١–١٦١ وعزاه لعمر – رضي الله عنه –.

٥ – جامع العلوم والحكم ص (١٣٨).

٦ – ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم موقوفا عن ابن مسعود – رضي الله عنه – ثم قال: وخرجه الحاكم مرفوعا، والموقوف أصح. انظر: جامع العلوم والحكم ص (١٣٨).

وآيات التقوى كثيرة جدا، يصعب ذكرها – هنا – ولكن أذكر بعضها وبخاصة مما ورد فيها الأمر بالتقوى:

قال – سبحانه –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (آل عمران:١٠٢).

وقال – جل وعلا –: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا)(التغابن: من الآية١٦).

وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ)(النساء: من الآية١).

وقال – جل ذكره –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً) (الأحزاب:٧٠).

وقال – سبحانه –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبة:١١٩).

وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) (الحج:١).

وقال – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحشر:١٨).

وقال – جل وعلا –: (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ) (البقرة:٢٠٦).

وقال ذو الجلال والإكرام: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ)(النساء: من الآية١٣١).

والآيات كثيرة معلومة.

١ – قيل إنها (٢٥٦) ولكن منها ما ليس في التقوى كقوله – تعالى –: (إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه) فإن التقوى الواردة هنا ليست هي التقوى التي نتحدث عنها، ومثلها: (سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم).

أحاديث في التقوى

وردت أحاديث كثيرة تحث على التقوى وتأمر، منها:

قال رسول الله، ﷺ "اتق الله حيثما كنت،وأتبع السيئة الحسنة، وخالق الناس بخلق حسن" [1].

وقال، ﷺ كما روى العرباض بن سارية: "أوصيكم بتقوى الله ﷻ والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد" الحديث [2].

وقال، ﷺ "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعلمون،فاتقوا الدنيا واتقوا النساء" [3].

وقال، ﷺ لأبي هريرة: "اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك،فإن كثرة الضحك تميت القلب" [4].

وقال، ﷺ "ألا وإن لكل ملك حمى،ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" [5].

وقال ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو السملم، ولا يظلمه، ولا يخذله، ولا

---

١ - أخرجه الترمذي (٤-٣١٢، ٣١٣) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٨٧). وأحمد (٥-١٥٣)، والدرامي (٢-٤١٥)، كتاب الرقاق، رقم (٢٧٩١)، قال الترمذي: حسن صحيح وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٩٧).

٢ - أخرجه أبو داود (٤-٢٠١) كتاب السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي (٥-٤٣) كتاب العلم، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه (١-١٥) في المقدمة، رقم (٤٢) وأحمد (٤-١٢٦، ١٢٧)، وهذا حديث صحيح صححه غير واحد من الأئمة. قال الترمذي: حسن صحيح. وقال الهروي: وهذا من أجود حديث في أهل الشام. وقال البزار: حديث ثابت صحيح. وقال ابن عبد البر: حديث ثابت. وصححه الألباني كما في إرواء الغليل رقم (٢٤٥٥).

٣ - أخرجه الترمذي (٤-٤١٩) كتاب الفتن، رقم (٢١٩١)، وابن ماجة (٢-١٣٢٥) كتاب الفتن، رقم (٤٠٠٠)، وأحمد (٣-٢٢)، قال الترمذي: حسن صحيح، وصحح الألباني إسناد أحمد على شرط مسلم، كما في السلسلة الصحيحة رقم (٩١١).

٤ - أخرجه الترمذي (٤-٤٧٨) كتاب الزهد، رقم (٢٣٠٥)، وأحمد (٢-٣١٠)، قال الترمذي: هذا حديث غريب، ثم ذكر علة ذلك أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، قال الألباني: والصواب أنه سمع منه في الجملة كما بينه الحافظ في "تهذيب التهذيب" غير أنه - أعني الحسن - مدلس فلا يحتج بما رواه عنه - أي عن أبي هريرة - معنعنا كما في هذا الحديث. أهـــ. وقد ذكر الألباني علة أخرى لهذا الحديث وهي جهالة أبي طارق - أحد الرواة - قال الذهبي: لا يعرف. قال الألباني بعد أن تتبع طرق هذا الحديث: وبالجملة فالحديث بهذه الطرق حسن على أقل الأحوال ا.هـــ انظر: السلسلة الصحيحة رقم (٩٣٠)، صحيح الجامع رقم (١٠٠).

٥ - أخرجه البخاري (١-١٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣-١٢١٩) كتاب المساقاة، رقم (١٥٩٩).

يكذبه، ولا يحقره، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاثة مرات،بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه" [1].

وورد عنه، ﷺ أنه قال: "لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي" [2].

١ – أخرجه مسلم واللفظ له (٤–١٩٨٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٤)، وأبو داود (٤–٢٧٠)، كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٢)، والترمذي (٤–٢٨٦) كتاب البر والصلة رقم (١٩٢٧).

٢ – أخرجه الترمذي (٤–٥١٩) كتاب الزهد، رقم (٢٣٩٥) وأحمد (٣–٣٨) والدارمي (٢–١٤٠) كتاب الأطعمة رقم (٢٠٥٧)، قال الترمذي: حديث حسن، ووافقه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٧٣٤١).

صفات المتقين

هناك صفات كثيرة يتصف بها المتقون، واختلال هذه الصفات، اختلاف في حقيقة التقوى، وسأذكر أهم تلك الصفات وهي مستمدة من كتاب الله – جل وعلا – وسنة رسوله ﷺ :

١– القيام بأركان الإسلام والإيمان، لأن الإحسان درجة أخص منهما، وأعلى إلا بعد أن يتم ما هو دونه، فلا يتصور الإيمان بدون الإسلام، ولا يتصور الإحسان دونهما، والإحسان هو التقوى.

٢– الوفاء بالوعد والعهد والصدق مع الله والناس.

٣– أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

٤– كف الأذى عن المسلمين.

٥– العدل في الغضب والرضى.

٦– كظم الغيظ والعفو عن الناس والإحسان.

٧– التوبة والاستغفار.

٨– تعَظِيمٌ شعائر الله.

٩– الصبر في البأساء والضراء.

١٠– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١١– ألا تأخذه في الله لومة لائم.

١٢– تجنب الشهوات والشبهات ومزالق الشيطان والهوى.

هذه أهم صفات المتقين، وبمقدار تخلف هذه الصفات تقل تقواه وتضعف، وتقد يخرج من عداد المتقين.

الوسائل المعينة على التقوى

هناك وسائل تعين المسلم على تحقيق معنى التقوى، وأهمها:

١– مراقبة الله والإكثار من ذكره، وخوفه ورجاؤه.

٢– الالتزام الكامل بالإسلام عقيدة وشريعة.

٣- صدق الاقتداء والانتماء، الاقتداء بسلف الأمة والانتماء لهذا الدين.

٤- العلم (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)(فاطر: من الآية٢٨).

٥- صحبة الأخيار، والابتعاد عن جلساء السوء، كما قال، ﷺ "مثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير" [1].الحديث.

٦- قراءة القرآن مع التدبر والاعتبار والعمل: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الأنفال:٢)، (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد:٢٤).

٧- المحاسبة، واستشعار عظمة الله ــ جل وعلا ــ، والوقوف بين يديه،والخلوة كالاعتكاف ونحوه.

٨- البعد عن الموبقات، من الشهوات والشبهات، وقطع أمل النفس في ذلك، وأخذها بالعزيمة،وغض الطرف عما حرم الله.

٩- الدعاء والخشوع، والبكاء بين يدي الله ــ جل وعلا ــ وكثرة العبادة مع حسن المتابعة والبعد عن الابتداع.

١٠- إطابة المطعم والملبس والمشرب.

١١- قصر الأمل والزهادة في الدنيا.

ثمرات التقوى وآثارها :

هناك ثمرات يحصل عليها الفرد إذا كان متقيا، وأخرى من نصيب المجتمع الذي يكون أهله والقائمون عليه من المتقين.

أولا: في جانب الفرد

١- محبة الله له (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)(التوبة: من الآية٤).

٢- معية الله (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (النحل:١٢٨).

٣- الانتفاع بالقرآن (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) (البقرة:٢).

---

١ - أخرجه البخاري (٣-١٦) كتاب البيوع. ومسلم (٤-٢٠٢٦)، كتاب البر والصلة، رقم (٢٦٢٨).

٤- الحفظ من الشيطان ووساوسه (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (لأعراف:٢٠١).

٥- انتفاء الخوف والحزن (فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)(لأعراف: من الآية٣٥).

٦- قبول العمل (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)(المائدة: من الآية٢٧).

٧- اليسر بعد العسر، والمخرج بعد الضيق: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)(الطلاق: من الآية٢)، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً)(الطلاق: من الآية٤).

٨- الفراسة والحكمة النور (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)(لأنفال: من الآية٢٩).

٩- دخول الجنة (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)(آل عمران: من الآية١٣٣).

١٠- النجاة من النار (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً) (مريم:٧٢).

١١- حسن العاقبة والمآب (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)(الأعراف: من الآية١٢٨)، (وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ)(صّ: من الآية٤٩)، (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) (الزخرف:٦٧).

١٢- المنـــزلة العالية يوم القيامة (وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(البقرة: من الآية٢١٢).

ثانيا: أثر التقوى على المجتمع

١- الأمن (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (الأنعام:٨٢)، (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود:١١٧).

٢- رغد العيش والصحة والعافية (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)(إبراهيم: من الآية٧).

٣- المهابة أمام الأعداء "نصرت بالرعب مسيرة شهر" [١].

٤- السعادة.

٥- تولي الأخيار.

ثالثا: أثار ضعف التقوى

يصعب حصر آثار ضعف التقوى،ولكن أكتفي بأهمها وبخاصة آثارها على المجتمع.

١- ضعف الأمة وسقوطها من أعين أعدائها، وتسلطهم عليها.

٢- انتشار الضغائن والحسد والعداوة وكثرة المشكلات.

٣- اختلال الموازين، وانتشار الظلم، كالواسطة المحرمة، وسوء تقييم الناس، وعدم إنـــزالهم منازلهم.

٤- تولي الأشرار، ونـــزول العذاب (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) (الإسراء:١٦).

٥- القحط ومنع المطر وغلاء الأسعار وخوف الطريق: (وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)(ابراهيم: من الآية٧).

٦- كثرة الأمراض وانتشارها وبخاصة المستعصية،كالضغط، والسكر،والهربز، والإيدز، والسرطان.

وبعد:

فإن هذا المبحث عن التقوى على وجازته يساهم مساهمة فعالة في تحقيق التقوى التي أمرنا الله بها في عدة آيات من سورة الحجرات، ذلك أننا ونحن نقرأ مثل هذه الآيات ندرك مدلولها وأثرها والسبيل إلى تحقيقها.

---

١ - أخرجه البخاري (١-٨٦) كتاب التيمم، وأخرجه أيضا في الاعتصام (٨-١٣٨)، ومسلم (١-٣٧٠، ٣٧١) كتاب المساجد رقم (٥٢١).

ثانيا: امتحان القلوب [1]

معنى امتحان القلوب

قلوبنا تمتحن في كل لحظة من لحظات حياتنا، قال ـــ تعالى ـــ: (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(آل عمران: من الآية١٥٤) وقال ـــ سبحانه وتعالى ـــ: (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)(الحجرات: من الآية٣).

فمن هؤلاء الذين امتحن الله قلوبهم لِلتَّقْوَى؟

هذه الآية نـــزلت في الصحابيين الجليلين أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنهما ـــ عندما رفعا صوتيهما عند رسول الله، ﷺ فقد روى البخاري عن عبد الله بن الزبيرـــ رضي الله عنه ـــ أنه "قدم ركب من تميم على النبي، ﷺ فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد بن زراره، فقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنـــزلت في ذلك: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)(الحجرات: من الآية١). حتى انقضت"[2].

نعم ! لا مجاملة في هذا الدين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ)(الحجرات: من الآية٢) ثم ماذا ؟ (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)(الحجرات: من الآية٢).

سبحان الله ! موقف في نظر الكثيرين لا يستحق.

ومن الذي يهدد في هذه الآية. أبو بكر الذي قال فيه الرسول، ﷺ "ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر" [3].

---

١ - انظر رسالة امتحان القلوب للمؤلف.

٢ - أخرجه البخاري (٦-٤٧) كتاب التفسير، وقيل نـــزلت في الصحابي ثابت بن قيس بن شماس - رضي الله عنه.

٣ - أخرجه البخاري (٤-١٩١) كتاب فضائل الصحابة. ومسلم (٤-١٨٥٥) كتاب فضائل الصحابة رقم (٢٣٨٣).

وعمر الذي قال فيه الرسول، ﷺ "والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا (أي طريقا) إلا سلك فجا غير فجك" [١] لكنهما ـــ رضي الله عنهما ـــ تابا، وأتابا، واستغفرا، وأقسم أحدهما ألا يكلم الرسول، ﷺ إلا سرا كأخي السرار.

هنا خرجت النتيجة: (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)(الحجرات: من الآية٣) أي أخلص قلوبهم لِلتَّقْوَى، حتى أصبحت لا تصلح إلا له [٢].

موقف واحد يسير في نظرنا لرجلين هما أفضل أمة محمد، ﷺ وامتحان يسير لغفلة بدرت منهما.

ولكن !ماذا نقول عن أحوالنا؟

كم من امتحان رسبنا فيه ونحن لا نشعر؟!

وهنا سر بديع في هذه الآية: (وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)(الحجرات: من الآية٢) لأنه قد يحبط عمل أو كلمة أودت بصاحبها وهو لا يشعر، فهو لا يتصور أن يحبط عمله بذلك العمل، أو لا يلقي لعمله بالاً.

وإذا كان رفع الصوت عند رسول الله، ﷺ وكاد أن يحبط عمل أبي بكر وعمر ـــ رضي الله عنهما ـــ فما سيكون حال من يرفع صوته فوق صوت الحق ؟ أُولَئِكَ الذين يقدمون شريعة الطاغوت على شريعة الله، أُولَئِكَ الذين يعادون ويوالون في سبيل الشيطان.

وحتى نـــزيد في إيضاح معنى (امتحان القلوب) لنتأمل هذا الحديث العَظِيمٌ الذي رواه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عنه النبي، ﷺ أنه قال: "تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عودا عودا [٣] فأي قلب أشربها [٤] نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها [٥] نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير

---

١ – أخرجه البخاري (٤–١٩٩) كتاب فضائل الصحابة. ومسلم (٤–١٨٦٤) كتاب فضائل الصحابة رقم (٢٣٩٦).

٢ – قال الألوسي في تفسير الآية: والمراد أخلصها للتقوى، أي جعلها خالصة لأجل التقوى، أو أخلصها لها، فلم يبق لغير التقوى فيها حق، كأن القلوب خلصت ملكا للتقوى. انظر روح المعاني، تفسير سورة الحجرات.

٣ – عودا عودا أي: تعاد وتتكرر شيئا بعد شيء.

٤ – أشربها أي: دخلت فيه ولزمته.

٥ – أنكرها أي: ردها.

على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا [1] كالكوز مُجَخيّا [2] لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه" [3]

ففي الحديث التعبير بالفعل المضارع (تعرض)، وهو هنا يدل على استمرار البلاء والامتحان: كما أن هذه الفتن لا تأتي دفعة واحدة، وإنما شيئا فشيئا حتى يصبح القلب أسود ـــ والعياذ بالله ـــ أو يسلمه الله فينجح في الامتحان فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ: "فالنفس تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا. والرب ـــ جل وعلا ـــ يدعو عبده إلى خوفة، ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين ".وهذا هو موضع الفتنة والابتلاء.

ونختم هذه المقدمة في معنى امتحان القلب وابتلائه بهذه الدعوة الربانية للمؤمنين متضمنة تحذيرا مخيفا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (الأنفال:٢٤).

أنواع ما يطرأ على القلب من العلل والأدواء

وهذه المضغة الصغيرة (القلب) أمرها عجيب، وما شبه هذا القلب إلا بالبحر، نراه في الظاهر رؤية سطحية، لكنه في الحقيقة عالم بحد ذاته، ففيه من أنواع الحيوانات النباتات العجيبة ما حير علماء البحار.

وهكذا القلب، فإن من تأمله حق التأمل وجد أن أمره مثير للعجب بما يحصل له من أحوال وانفعالات، وبما يتباين فيه الناس من أحوال ومقامات وصفات، وهذا غيض من فيض في عالم هذا القلب الصغير الكبير.

وهذه إشارات قرآنية لِبَعْضٍ ما يطرأ على القلب من علل وأدواء، فمن ذلك: الغفلة،العمى، الزيغ، التقلب، الاشمئزاز، الإقفال، القسوة، اللهو، الرياء، النفاق، الحسد..وهلم جرا.

سبحان الله ! كل هذا على القلب ؟ نعم، وأعظم من ذلك بكثير.

---

١ – مربادا أي: شديد السواد في بياض.

٢ – مجخيا أي: كالكأس المنكوس، لا يعلق به خيرا وحكمة.

٣ – رواه مسلم (١-١٢٨ – ١٢٩)، كتاب الإيمان، رقم (١٤٤).

والنتيجة: أن يتعرض هذا القلب للطبع والختم والموت بعد نـــزول هذه الأمراض، وعدم مدافعة الإنسان لها،فيكون قلبه أسود.

من أحوال القلب السليم وأوصافه

وكما أن القلب يتعرض للأمراض والعلل، فإن هذا القلب يحصل له من الأحوال الإيمانية، والمقامات التعبدية من الصفات المحمودة مثل: اللين والإخبات، والخشوع، والإخلاص، والحب لله، والتقوى، والثبات، والخوف،والرجاء، والإنابة، وغيرها كثير.

والنتيجة: السلامة (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (الشعراء:٨٩) والحياة، والإيمان، وصفة قلب صاحبه أبيض.

مواطن امتحان القلوب

ومواطن امتحان القلوب كثيرة، وحسبنا أن نشير إشارات سريعة إلى جملة منها، وإنما أشرنا إلى هذه المجالات لأن كثيرا من الناس يتصور أن القلب إنما يمتحن بالشهوات والمعاصي، ولكننا سوف نرى أن هذا من المواطن التي يمتحن فيها القلب، والله ــ سبحانه وتعالى ــ يقول: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)(الأنبياء: من الآية٣٥).

فمن المواطن التي يمتحن فيها القلب: [1]

١- العبادة

فالعبادة مثل: الصلاة، والصدقة، الصيام، والحج وغيرها موضع امتحان وابتلاء،ففيها ابتلاء في تحقيق الإخلاص لله، وعدم مراعاة الناس بها، يقول الله ــ تعالى ــ: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) (الفرقان:٢٣) وفي الحديث المرفوع: "إياكم وشرك السرائر قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟ قال: يقول الرجل فيصلي جاهرا لما يرى نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر" [2].

---

١ – المواطن غير الأسباب، فهي أعم من ذلك، فالعلم موطنا وليس سببا، والشهوات موطنا وسببا.

٢ – صححه ابن خزيمة رقم (٩٣٧) وحسنه الألباني كما في صحيح الترغيب (١-٨٩).

وفي العبادة ابتلاء بتصحيحها، وأدائها كما جاءت عن النبي الأمين، وابتلاء بتحقيق التقوى فيها ـــ تعالى ـــ: (وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ)(الحج: من الآية٣٧) وهذا جزء يسير من الابتلاء الذي يحدث في هذا الموطن.

٢- العلم [١]

وهذا الموطن خصب لامتحان القلوب، وكم فشل أناس في هذا الامتحان، فطائفة طلبوا العلم لله، ثم تحولت النية إلى الشهوة الخفية، حب الرئاسة، الشهرة، التصدر، التعالي على الأقران، المراء والجدل، القدح في الخصوم.. وغيرها.

وفي الحديث: "من تعلم علما مما يُبْتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة" يعني: ريحها [٢].

١ - انظر رسالة التعالم للعلامة بكر أبو زيد.

٢ - أخرجه أبو داود (٣-٣٢٣) كتاب العلم، رقم (٣٦٦٤). وابن ماجه (١-٩٣) في المقدمة، رقم (٢٥٢)، وأحمد (٢-٣٣٨) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٦١٥٩).

٣- الدعوة

وهذا المجال من أشد مجالات امتحان القلوب، وأصحاب الدعوة المشتغلون بها من أشد الناس معاناة لهذا الامتحان. فشهوة توجيه الآخرين، والشهرة، والتعالي على الخلق كلها امتحانات قد تجعل الدعوة وبالا على صاحبها ـــ والعياذ بالله ـــ وفتنة النكوص عن الدعوة،أو توجيهها إلى غير رضى الله داء عُضَال.

٤- الخلاف والجدل

وهو مرتع من مراتع الشيطان، ومزرعة من مزارعه، ولذلك نبهنا الله ـــ جل وعلا ـــ إلى الأسلوب الأمثل في المجادلة فقال: (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)(النحل: من الآية١٢٥) ولأنه قد يكون الباعث للجدال هو الانتصار للحق، ثم يتحول إلى انتصار للنفس، وهنا مكمن الداء قال ـــ سبحانه ـــ: (وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)(العنكبوت: من الآية٤٦).

وصدق ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال: إن الخلاف شر كله.

٥- الشهوات

وإنما أخرتها قصدا، لأن كثيرا من الناس يقصر امتحان القلوب على الشهوات: المال، والمركب، والنساء، والبنين، والبنات، وهذه لا شك أنها فتنة وابتلاء (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ) (التغابن: من الآية١٥) والرسول، ﷺ يقول: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء" [1] لكن ما سبق أعظم أثرا وأوقع في أمراض هذا القلب، وسلبه عافيته.

٦- الشبهات والفتن

وهما مجال رحب من مجالات مرض القلب وسبب لكثير من العلل كما سيأتي بيانه.

٧- الرياسة والمناصب

١ - أخرجه مسلم (٤-٢٠٩٨) كتاب الذكر، رقم (٢٧٤٢).

فكم تغيرت من نفوس، وتباغضت من قلوب بسبب هذا الموطن الذي قل أن يسلم منه أحد، فالحسد والغيرة والحقد والغل أمراض مبعثها هذا الأمر في غالب الأحوال والأحيان.

٨- النسب والحسب والجاه

وهو أرض مثمرة لأمراض القلوب وأدوائه، فالتعالي والتفاخر والكبر وغيرها من أمراض القلوب تنطلق من هذه الأرض، ففيها تنبت ومنها تثمر.

ولعلنا الآن نبين شيئا من الأمراض والأدواء التي يكثر امتحان القلب بها.

أمراض القلوب وأسبابها

أولا: أسباب أمراض القلوب

هناك أسباب كثيرة لأمراض القلوب وفسادها، من أهمها: [1]

١- الجهل.

٢- الفتن.

٣- الشهوات والمعاصي.

٤- الشبهات.

٥- الغفلة عن ذكر الله.

٦- الهوى.

٧- الرفقة السيئة.

٨- أكل الحرام كالربا والرشوة وغيرهما.

٩- إطلاق البصر فيما حرم الله.

١٠- الغيبة والنميمة.

١١- الانشغال بالدنيا وجعلها جل همه وقصده.

---

١ - أجملت فيها، لأنه جاء وسيأتي بيانها في مواضع أخرى - متفرقة - فتحاشيت التكرار.

ثانيا: أمراض القلوب

١- النفاق

وهو من أخطر هذه الأمراض، وأشدها فتكا بالإنسان، وأفظعها عاقبة في الآخرة.

ولا يتصور أحد أن النفاق قد انتهى بنهاية عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، ونهاية شخصياته البارزة كعبد الله بن أبي بن سلول وغيره، بل إن النفاق الآن لا يقل خطورة عنه في الماضي.

ولقد كان السلف الصالح من أشد الناس خوفا من النفاق، وهذا عمر بن الخطاب ـــ وهو من هو صحبة وعلما وعملا وإخلاصا ـــ يناشد حذيفة: هل عدني رسول الله، ﷺ من المنافقين ؟ فقال: لا، ولا أزكي أحدا بعدك [١].

وهذا ابن أبي مليكة ـــ رحمه الله ـــ وهو سيد من سادات التابعين يقول: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي، كلهم يخشى النفاق على نفسه [٢].

٢- الرياء

وهذا مرض جد خطير لخفائه، ولأثره في إفساد العمل، وقلة من يسلم منه،وقد جاء في الحديث يقول الله ـــ تعالى ـــ: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه" [٣].

وفي الحديث الآخر: "من سمّع سمّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به" [٤] وقد ذكر الله من صفات المنافقين (يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)(النساء: من الآية١٤٢).

وهو أدق من الشعرة السوداء على الصخرة السوداء في الليلة الظلماء: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) (الفرقان:٢٣).

---

١ – نسبه في كنـز العمال (١٣-٣٤٤) إلى رسته.

٢ – أخرجه البخاري تعليقا عنه (١-١٧) كتاب الإيمان، وقال ابن حجر في الفتح (١-١٣٦): وهذا التعليق وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه، لكن أبهم العدد، وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولا في كتاب الإيمان له.

٣ – أخرجه مسلم (٤-٢٢٨٩) كتاب الزهد، رقم (٢٩٨٥).

٤ – أخرجه البخاري (٧-١٨٩) كتاب الرقاق، ومسلم (٤-٢٢٨٩)، كتاب الزهد، رقم (٢٩٨٦).

٣- مرض الشبهة والشك والريبة

بقول الله ـــ تعالى ـــ: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)(آل عمران: من الآية٧).

ويقول ـــ سبحانه ـــ: (وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)(التوبة: من الآية٤٥) ويقول: (لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ)(التوبة: من الآية١١٠) قال: (أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا)(النور: من الآية٥٠)، (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً) (الأحزاب:١٢)، (وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً)(المدثر: من الآية٣١).

وهو من أخطر الأمراض، وأشدها فتكا، ولا يزال بالإنسان حتى يوقعه في الشرك والكفر.

ودواؤه كثرة الاستعاذة بالله من الشيطان، وكراهية هذا الوارد، ومدافعته بالاستعانة بالله، والرجوع إلى الإيمان بالله ورسوله، والاعتراف بوحدانيته وصفاته، وفي الحديث: "لا يزال الناس يتساءلون، حتى يقال: هذا خلق الله الخلق،فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل: آمنت بالله ورسوله" [1] وفي رواية: "فليستعذ بالله،ولينته" [2].

٤- سوء الظن

وسوء الظن بالله من أعظم أمراض القلب، ولعلنا هنا نقف وقفة يسيرة حوله، للتحذير منه، وبيان خطورته.

فمن الناس من يسيء الظن بالله ـــ تعالى ـــ حيث يسيء الظن بوعده، ونصره لعباده المؤمنين، ولدعاته المجاهدين.

١ – رواه مسلم (١-١١٩)، كتاب الإيمان رقم (١٣٤).

٢ – رواه مسلم (١-١٢٠)، كتاب الإيمان رقم (١٣٤).

ومن الناس من يسيء الظن بربه أن يرزقه،فتجده يثق بما في أيدي الناس أعظم من ثقته بما عند الله، ويظن أن رزقه إنما هو بيد الحكومة أو الشركة أو الناس، وتجده يضع لذلك الحسابات، ناسيا التوكل على الله والثقة به (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)(هود: من الآية٦).

وقد ذم الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ من يسيئون الظن به، وجعله من أمر الجاهلية (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)(آل عمران: من الآية١٥٤).

وقال ـــ سبحانه ـــ: (وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً)(الفتح: من الآية١٢)، (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (فصلت:٢٣)، (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)(الأحزاب: من الآية١٠)، (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً)(يونس: من الآية٣٦)، (الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)(الفتح: من الآية٦)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)(الحجرات: من الآية١٢).

ويقول، ﷺ ناصحا أمته: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"

وعلينا أن نحسن الظن بالله، فالله عند ظن عبده به: قال، ﷺ فيما يرويه عن ربه – جل وعلا –: "أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء" [1] الحديث.

٥- الحسد والغيرة:

ومن منا ينجو منهما. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –:"والحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب، فلا يخلص منه إلا القليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد. لكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه [2] ولذلك يقول الله – جل وعلا– (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)(النساء: من الآية٥٤) وأمرنا بالتعوذ صباح مساء (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) (الفلق:٥).

---

١ – أخرجه أحمد (٣-٤٩١) والدارمي (٢-٣٩٥) كتاب الرقاق، رقم (٢٧٣١) والحاكم في المستدرك (٤-٢٤٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٣١٦).

٢ – انظر: رسالة أمراض القلوب وشفاؤها لشيخ الإسلام.

وفي الحديث المتفق عليه "لا تباغضوا ولا تحاسدوا" [1] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله، ﷺ قال: "إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب" أو قال: "العشب" [2].

ويقول الحسن البصري: عَمِّه في صدرك، فإنه لا يضرك، ما لم تعتد به يد أو لسان.

وأما عن علاجه، فقد ذكر شيخ الإسلام كلاما طيبا في علاجه، حيث يقول: من وجد في نفسه حسدا لغيره، فعليه أن يستعمل معه التقوى، والصبر، فيكره ذلك من نفسه.

ولما كان الحسد لا يسلم منه أحد خاصة النساء والعوام، أَحَبَّبت أن أنبه على الفرق بين الحسد والغبطة، فالأول مذموم كما سبق، والثاني غير مذموم.

فالأول: يتمنى أن تزول النعمة من صاحبه.

وأما الآخر: فهو يحب أن يعطاها دون أن يتمنى زوالها من أخيه، وفي الحديث: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها" [3] أخرجاه.

وفي رواية: "لا حسد إلا على اثنتين: رجل آتاه الله هذا الكتاب، فقام به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فتصدق به آناء الليل وآناء النهار"[4].

٦- الكبر والإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين والاستهزاء بهم:

يقول الله ﷻ: (إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ)(غافر: من الآية٥٦).

ويقول – جل وعلا –: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)(الأعراف: من الآية١٤٦).

ويقول – جل وعلا –: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (القصص:٨٣) وقال – سبحانه –: (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ

---

١ – أخرجه البخاري (٧-٨٨) كتاب الأدب. ومسلم (٤-١٩٨٣) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٥٩).

٢ – انظر: رسالة أمراض القلوب وشفاؤها لشيخ الإسلام.

٣ – أخرجه البخاري (١-٢٦) كتاب العلم، ومسلم (١-٥٥٩) كتاب صلاة المسافرين، رقم (٨١٦).

٤ – أخرجه البخاري (٨-٢٠٩) كتاب التوحيد. ومسلم (١-٥٥٩) كتاب صلاة المسافرين، رقم (٨١٥).

جَبَّارٍ)(غافر: من الآية٣٥) وقال: (إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)(النحل: من الآية٢٣) وقال – سبحانه –: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)(التوبة: من الآية٢٥).

ومن وصايا لقمان لابنه: (وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)(لقمان: من الآية١٨) وتزكية النفس بلاء وأي بلاء: قال – جل وعلا –: (فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)(لنجم: من الآية٣٢).

وقال: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)(النساء: من الآية٤٩) ونهى – سبحانه – عن السخرية فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ)(الحجرات: من الآية١١) والاستهزاء مرض مهلك: (قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) (التوبة: ٦٥، ٦٦)، (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ) (المطففين:٢٩، ٣٠).

ويقول، ﷺ "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" [١]. ويقول ﷺ "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم"

وقد كثر في زماننا احتقار الآخرين، والتعالي والتكبر عليهم، فتجد أحدهم يحتقر فلانا لأنه دونه في العلم، أو لأنه دونه في المرتبة أو الوظيفة، أو لأنه فقير، أو لأنه من قبيلة كذا.. وهلم جرا.

وقد ورد عنه، ﷺ أنه قال: "لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم"

ومما ينبغي التنبيه عليه أيضا قضية الاستهزاء بالصالحين، وهي قضية خطيرة.

يقول الله – تعالى–: (قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) (التوبة: ٦٥، ٦٦).

وكذلك الاستهزاء ببعض الشعائر كاللحية، والحجاب، وتقصير الثوب مما يخشى على من يستهزئ بها من الردة – والعياذ بالله –.

٧– الحقد والغل

١ – أخرجه مسلم (١–٩٣) كتاب الإيمان، رقم (٩١).

فمن دعاء المؤمنين التابعين بإحسان: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْأِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا)(الحشر: من الآية١٠).

ويقول – تعالى – مخبرا عن إكرامه لأهل الجنة: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) (الحجر:٤٧)، (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ)(الأعراف: من الآية٤٣).

ولعلنا نقتصر في الحديث عن هذا المرض بهذه القصة المعبرة: قصة عبد الله بن عمرو بن العاص، ذلك الشاب الذي رباه الرسول، ﷺ وأدبه وعلمه، رباه على مواطن العزة والقوة والعلم، لا كحال كثير من شبابنا اليوم ممن استهوتهم الرياضة أو الفن أو غيرها مما لا ينفعهم، بل يضرهم.

روى الإمام أحمد من حديث أنس رضي الله عنه قال: "كنا جلوسا مع رسول الله، ﷺ قال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار، تنطف لحيته (أي: تقطر) من وضوئه، قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال رسول الله، ﷺ مثل مقالته أيضا فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام رسول الله، ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحيت أبي (أي: خاصمت) فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت، قال: نعم. قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا تعار (أي: استيقظ) وتقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا، فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله، ﷺ يقول لك ثلاث مرات: "يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة" فطلعت أنت الثلاث المرات، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي بك، فلم أرك تعمل كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: ما هو إلا ما

رأيت، فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: فهذه التي بلغت بك، وهي التي لا تطاق" [1].

إذن ! هذا هو قدر امتلاء القلب بمحبة المسلمين، والصفح عنهم، والصبر عليهم.

ولنتدبر أخي المسلم هذا الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعا: "تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا، إلا رجل كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا (أي: أخروا) هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا" [2].

وقد ذكر الأطباء أن الغل يودي بصاحبه في الدنيا، لأثره السيئ على صحة الإنسان وسلامته، وهذه هي العقوبة العاجلة والآجلة أشد وأنكى.

٨- اليأس

وهو مرض ينشأ عند استحكام البلاء، واستبطاء نصر الله، فييأس بعض الناس من نصر الله ووعده [3] بما يؤدي عند بعضهم إلى ترك الدعوة والعمل، وأعظم من ذلك اعتقاد تخلف وعد الله أو وعيده في الدنيا أو الآخرة.

ولا نـــزال نسمع أن بعض الناس تخلفوا عن الطريق لاعتقادهم – مثلا – أنه في ضوء هذا الواقع المر، واستحكام أعداء الله، وقبضتهم على زمام الأمور، وسيطرتهم على الأوضاع السياسية والاقتصادية، لا يمكن أن ينتصر الإسلام أو تقوم له قائمة.

وهذه قصة موسى – مثلا – تحكي في كل مرحلة من مراحل حياته أو دعوته عناية الله به وبالدعوة، وإملاء الله للظالمين، والتمكين لهذه الدعوة، ولنتأمل قوله – تعالى –: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) (القصص:٨) وقوله – تعالى –: (فَرَدَدْنَاهُ إِلَى

---

١ – أخرجه أحمد في المسند (٣–١٦٦)والنسائي في اليوم والليلة رقم(٨٦٣) وابن السني في اليوم والليلة (٧٠٩).قال ابن كثير في رواية النسائي: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.انظر تفسير ابن كثير (٤–٣٣٧) ط: دار المعرفة.

٢ – رواه مسلم (٤–١٩٨٧) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٥).

٣ – وتحسن الإشارة هنا إلى أن معنى قوله ــ تعالى ــ: (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم كذبوا جاءهم نصرنا). [سورة يوسف، الآية:١١٠]. أي حتى استيأسوا من قومهم، أي يئسوا من إسلامهم وإجابة دعوتهم، وهذا تفسير عائشة ــ رضي الله عنها ــ كما في صحيح البخاري (٥–٢١٨) كتاب التفسير.

أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) (القصص:١٣) وقوله ﷻ: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) (القصص:٢٠) ولما قال بعض قومه: (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)(الشعراء: من الآية٦١) قال لهم واثقا: (كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)(الشعراء: من الآية٦٢) وهكذا قصص الأنبياء تبين حفظ الله لدعوته، وإملاءه للطغاة الظلمة، حتى تتمكن هذه الدعوة الربانية (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (القصص:٥).

فلننتبه إلى هذا المرض، ولنستشعر قوله – تعالى –: (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً)(المائدة: من الآية٣).

وأخيرا فلنتأمل قوله – تعالى –: (وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)(يوسف: من الآية٨٧).

٩- الهوى ومحبة غير الله

فإنه آفة الآفات، والسم الزعاف لهذا القلب، يوم أن تكون محبة الشخص لغير الله، وموالاته ومعاداته في سبيل دنياه، وأهوائه، وأطماعه الشخصية، وهذا لا شك موصل صاحبه إلى الهلاك والبوار وتأمل معي في هذه الآيات: [1]

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)(لنجم: من الآية٢٣)، (كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ)(الأنعام: من الآية٧١)، (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ)(القصص: من الآية٥٠)، (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)(الجاثـية: من الآية٢٣)، (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)(محمد: من الآية١٦)، (وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)(الأنعام: من الآية١١٩) والهوى مرض من أمراض القلب سواء أكان الهوى بمعناه العام أو الخاص.

١ – دلالة هذه الآيات أعم مما ذكر فينتبه ذلك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في بيان كون الحب يعمي ويصم: "ولذلك قال الشاعر:

عدو لمن عادت وسلم لأهلها ... ومن قربت ليلى أحب وأقربا [1]

فهذا جعل الولاء والبراء في ليلى، وليس في الله.

وذكر شيخ الإسلام أيضا قصة رجل أحب امرأة سوداء حبا عجيبا، أخذت عليه مجامع قلبه، فيقول هذا الرجل:

أحب لحبها السودان حتى ... أحب لحبها سود الكلاب

والواجب أن يكون حبنا وبغضنا، وعطاؤنا، ومنعنا، وفعلنا، وتركنا لله - سبحانه وتعالى - لا شريك له، ممتثلين قوله، ﷺ "من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان" [2].

وأسوأ أنواع الحب محبة أعداء الله.

١٠- الخشية والخوف من غير الله

يقول - تعالى -: (فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ)(المائدة: من الآية٤٤).

ويقول ﷻ: (فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(التوبة: من الآية١٣).

ومن صفات الذين في قلوبهم مرض أنهم يقولون (يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ)(المائدة: من الآية٥٢) ومن صفات الذين سلمت قلوبهم وآمنت (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران:١٧٣).

وهناك خوف جبلي لا يقدح في المعتقد كخوف الإنسان من عدوه إنسانا أو حيوانا، أما الخشية فلا تكون إلا من الله.

وعدم الخوف دليل على قوة القلب وجسارته، كما أنه دليل على الإيمان، قال الإمام أحمد: "لو صححت لم تخف أحدا" أي من المخلوقين.

١١- الوسواس

---

١ - انظر: رسالة أمراض القلوب وشفاؤها لشيخ الإسلام.

٢ - أخرجه أبو داود (٤-٢٢٠) كتاب السنة، رقم (٤٦٨٠) والترمذي (٤-٥٧٨) كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٢١). وأحمد (٣-٤٤٠،٤٨٣).والحديث حسنه الترمذي، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥٩٦٥).

وهو بلاء عم وطم، وصار يلعب بكثير من الناس، ويضيع عليهم فرائضهم وعباداهم، يقول الشيخ السعدي في جواب له عن دواء الوسواس: ليس له دواء إلا سؤال الله العافية، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والاجتهاد في دفع الوساوس، وأن يتلهى عنها ولا يجعلها تشغل فكره، فإنه إذا تمادت فيه الوساوس اشتدت واستحكمت، وإذا حرص على دفعها والتلهي عن الذي يقع في القلب اضمحلت شيئا فشيئا، والله أعلم [1].

وقد أمرنا بالتعوذ منه كما في سورة الناس: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) (الناس:١- ٦).

١٢- قسوة القلب

وهو مرض تنشأ عنه أمراض، وتظهر له أعراض، ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله وأخذ بالأسباب. وتظهر خطورة هذا الداء من خلال هذه الآيات.

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)(البقرة: من الآية٧٤)، (وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(الأنعام: من الآية٤٣)، (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)(الزمر: من الآية٢٢)، (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ)(الحديد: من الآية١٦) وأبعد القلوب من الله القلب القاسي.

١٣- التحزب لغير الحق:

وهو مرض خطير، وداء يقتل ويهلك الأفراد والأمة على حد سواء، وهو على نوعين:

١- **التحزب لِبَعْضِ المبادئ الأرضية:** كالقومية والوطنية والعلمانية وغيرها من المبادئ الضالة، وهذه قد راج سوقها وكثر، خاصة في هذه الأيام، ونحن نسمع عما يسمى (الوحدة الوطنية) وهي الحب عل أساس المواطنة، فما كان من وطنك تحبه سواء كان مسلما أو فاسقا أو كافرا، فالمهم أنه مواطن مثلك، بينما لا تحمل هذا الشعور لأخ مسلم من غير وطنك، ولو كان من أتقى الناس.

١ – ينصح في هذا المجال الرجوع إلى كتاب العلامة ابن القيم إغاثة اللهفان، وكذلك محاضرة: "رسالة إلى موسوس" للشيخ سلمان العودة.

فهي موالاة ومعاداة على أساس الوطن، حتى قال أحدهم - فض الله فاه -: كل حب يذهب ويتلاشى إلا حب الوطن. يعني إلا حب التراب، حب الأرض، ملأ الله جوفه قيحا وصديدا، هكذا: كل حب يذهب حتى حب الله ﷻ ورسوله، ﷺ إلا حب الوطن، فهو شرك من نوع جديد.

وما درى هذا المسكين أننا لا نـــزال نقرأ في القرآن: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) (المسد:١) وقد نـــزلت في عم النبي، ﷺ أبي لهب، ونحن نتبرأ منه ونبغضه، ونحن لا نـــزال نثني على بلال الحبشي وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، ونترضى عنهم، ونسأل الله أن نحشر في زمرتهم.

ولا يفهم من هذا الكلام أننا لا نحب الوطن، كلا، فهو أمر جبلي مركوز في النفس، لكن حب الوطن لا بد أن يكون خاضعا لحب الله ورسوله. وهل هاجر رسول الله ﷺ من وطنه وأفضل بقاع الأرض (مكة) إلا لما كان في ذلك مرضاة لله ورسوله، وهكذا المهاجرون وغيرهم.

٢- **التحزب من بعض المسلمين ضد بعض:** فنجد بعض الدعاة يتحزبون ضد بعض، وبعض طلبة العلم يتحزبون ضد بعض، فيحب هذا أكثر من هذا لأن الأول من حزبه، ولو كان الثاني أتقى منه وأفضل. وهذا خطأ كبير، وهذا يحب ذاك لأنه يتبع شيخه أو إمامه، ويعادي الآخر لأنه يتبع إماما أو شيخا آخر !!.

فالواجب موالاة المسلمين لإيمانهم، ومعاداة الكفار لكفرهم، ولا يجوز التحزب لغير الحق، فإنه يورث الأمة التفرق والتشتت (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران:١٠٥) وهناك فرق كبير بين التحزب وبين التنافس في الخير فالتنافس مطلوب ومحمود (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ)(آل عمران: من الآية١٣٣)، (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ)(الحديد: من الآية٢١) أما التحزب فمذموم وكم أودى بأمم وجماعات وأفراد حتى صار حال بعضهم كما قال الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

وعلاج التحزب بالتجرد لله - جل وعلا - والسلامة من الهوى والتحري في المنهج، وأن نعرف الرجال بالحق، لا الحق، بقول الرجال.

وأذكر الدعاة بقوله، ﷺ في الحديث: "إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم" [1].

أولا: علامات صحة القلب وعلامات موته

قال ابن القيم – رحمه الله – في علامات صحة القلب ونجاته:

١– **أنه لا يزال يضرب** على صاحبه حتى يتوب إلى الله وينيب.

٢– **أنه لا يفتر عن ذكر ربه،** ولا يسأم من عبادته.

٣– **أنه إذا فاته ورده** وجد لفواته ألما أشد من فوات ماله.

وهنا وقفة ! رحم الله ابن القيم، فما عساه يقول فيمن ليس له ورد، بل ما عساه يقول فيمن إذا فاتته الصلاة المفروضة لا يجد ألما وحسرة،وكأنه لم يسمع حديث رسول الله، ﷺ "من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله" [2] أي: كأنما فقد أهله وماله وهلكوا.

٤– **أنه يجد لذة في العبادة** أكثر من لذة الطعام والشراب [فهل يجد أحدنا لذة في العبادة ؟! أو يجد اللذة إذا خرج منها ؟!].

٥– **أنه إذا دخل في الصلاة ذهب غمه وهمه** في الدنيا [ونحن لا تجتمع الأمور والأعمال علينا إلا في الصلاة، حتى قال لي أحد الأخوة: إنه رأى رجلا بعد أن دخل في الصلاة أخرج فاتورة الحساب، وأخذ يراجع الحسابات – وهو في الصلاة – إلى قصص كثيرة تبين ذهاب الخشوع، والخضوع بين يدي الله ﷻ في الصلاة].

فأين لذة الصلاة عند هؤلاء ؟ وأين الصلاة التي كان الرسول، صلى الله عليه وسلم يقول فيها: "أرحنا بالصلاة يا بلال" [3]. ويقول: "وجعلت قرة عيني في الصلاة" [1] فإن لسان حال كثير من

---

١ – أخرجه مسلم (٤–٢١٦٦) كتاب المنافقين رقم (٢٨١٢). والترمذي (٤–٢٩١) كتاب البر والصلة وقوله:"ولكن في التحريش بينهم " أي ولكنه يسعى في الإغراء بينهم بالخصومات والشحنات والحروب والفتن.

٢ – أخرجه البخاري (١–١٣٨) كتاب المواقيت، ومسلم (١–٤٣٦) كتاب المساجد،رقم (٤٢٦).

٣ – أخرجه أبو داود (٤–٢٩٦)كتاب الأدب، رقم (٤٩٨٥).وأحمد (٥–٣٦٤،٣٧١)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٧٨٩٢).

المصلين "أرحنا من الصلاة" وتجد أحدهم لو أطال الإمام القراءة، سرد عليه محفوظاته في الأحاديث التي تأمر برعاية حال المأمومين، بينما لو أخل الإمام بأدائها وواجباتها لم يجد من ينبهه – إلا ما شاء الله – والله المستعان.

٦- **أن يكون همه لله وفي ذات الله**، وهذا مقام رفيع.

٧- **أن يكون أشح بوقته** أن يذهب ضائعا أشد من شح البخيل بماله.

٨- **أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل** أكثر من اهتمامه بالعمل ذاته [٢] [وهذه نقطة مهمة جدا. فيجب أن يكون اهتمام الإنسان بتصحيح العمل كبيرا في: تصحيح القصد، وتحقيق المتابعة، وتحقيق العبودية في العمل، فإن هذا هو الغاية من العمل].

ثانيا: علامات مرض القلب وشقاوته

١- **أنه لا تؤلمه** جراحات القبائح.

فهل نتألم نحن لجراحات قلوبنا، وما نقترفه من معاص وآثام في الليل والنهار؟

وهل نندم ونعزم على التوبة كلما أذنبنا ؟

وهل آلمنا ما نراه في مجتمعنا من معاص ومنكرات ؟

وهل عملنا على تغييرها ما استطعنا، وهذا أمر لا شك عَظِيمٌ، فإن القلب الذي لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا في نفسه ولا في مجتمعه قلب يحتاج صاحبه إلى تدارك نفسه قبل فوات الأوان.

٢- **أنه يجد لذة في المعصية**، وراحة بعد عملها [وإنما حال المؤمن إذا عصى الله أن يندم ويستغفر ويتحسر على ما فات، ويسارع في التوبة إلى الله].

وهناك من الناس – للأسف – من ينطبق عليه كلام ابن القيم، فبعض مشاهدي الأفلام نجده يجد لذة في مشاهدتها، ولا تكاد تفارقه تلك اللذة لمدة طويلة.

١ – أخرجه النسائي(٧-٦١) كتاب عشرة النساء،رقم (٣٩٤٠،٣٩٣٩).وأحمد ٠٣-١٩٩،١٢٨)،وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٣١٢٤).

٢ – انظر: رسالة مرض القلب وصحته لابن القيم حيث ذكر ذلك.

وكذلك نجد من متابعي المباريات من يجد لذة في مشاهدتها وحضورها، ولا تفارقه النشوة لفترة – خاصة إذا فاز فريقه – فهل نعي بعد ذلك خطورة هذا الأمر.

٣- **أنه يقدم الأدنى على الأعلى**، ويهتم بالتوافه على حساب معالي الأمور، فماذا نقول عن بعض المسلمين ممن أصبح لا يهتم بحال إخوانه وشئون أمته، بينما يعرف من التوافه أكثر مما يعرف عن أمور دينه، وأخبار علماء الإسلام وأئمته.

وكم يتأسف الإنسان على أحوال كثير من شبابنا ممن أغرم بحب الرياضة والفن، ويهتم لها ويحزن ويغتم، أكثر مما يهتم لقضايا إخوانه في أفغانستان، فلسطين، الفليبين، أريتريا.. الخ، فهل هذا قلبه سليم، بل نقول لهذا: أدرك قلبك فهو على شفا هلكة.

٤- **أنه يكره الحق ويضيق صدره به**، وهذا بداية طريق النفاق، بل غايته.

٥- **أنه يجد وحشة من الصالحين**، ويأنس بالعصاة والمذنبين، فتجد من الناس من لا يطيق الجلوس مع الصالحين، ولا يأنس بهم، بل يستهزئ بهم وبمجالسهم، ولا ينشرح صدره إلا في مجالسة أهل السوء وأرباب المنكرات، ولا شك أن هذا دليل على ما في قلب صاحبه من فساد ومرض.

٦- **قبوله الشبهة، وتأثره بها**، وحبه للجدل، وعزوفه عن قراء القرآن.

٧- **الخوف من غير الله**، ولذلك يقول الإمام أحمد، لو صححت قلبك لم تخف أحدا، [وهذا العز بن عبدالسلام يتقدم أمام أحد الملوك الطغاة، ويتكلم معه بكلام شديد، فلما مضى قال له الناس: أما خفت يا إمام، فقال: تصورت عظمة الله، فأصبح عندي كالهر، والآن نرى من الناس من يخاف من: المسئول، الضابط وغيرهما أكثر من خوفه من الله، وهذا لا شك دخن في قلب صاحبه، والعاقل خصيم نفسه].

٨- **وجود العشق في قلبه**، قال شيخ الإسلام: وما يبتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه، وإلا فالقلب المنيب فيه صارفان يصرفانه عن العشق، إنابته إلى الله ومحبته له، وخوفه من الله.

٩- **أنه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا**، ولا يتأثر بموعظة [1].

١ – انظر: رسالة مرض القلب وصحته لابن القيم ــ رحمه الله ــ.

علاج القلوب

وأخيرا قد يقول قائل: ولكن ما العلاج ؟ فأنت شخصت الداء، فهلا بينت الدواء، وعلمتنا طريق النجاة؟

فلا أدعي أنني سوف أحيط بجوانب علاج أمراض القلوب، ولكن حسبي أن أذكر شيئا من الوسائل لعلاج هذه الأمراض، أختصرها بما يأتي:

أولا: إن أساس صحة القلب وسلامته في إيمانه بالله ويتفرع عنه ما يأتي:

١- كمال محبة الله: بأن يكون حبه لله، وفي الله، وأن يكون بغضه ومعاداته لله، وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن من أعظم وسائل علاج القلب: أن يمتلئ قلب الإنسان بحب الله (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)(البقرة: من الآية١٦٥) وأما وسائل محبة الله فكثيرة، منها:

قراءة القرآن وتدبره وفهم معانيه، والتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، ودوام ذكر الله على كل حال، وإيثار محابه على هوى نفسك ومحابها، ومطالعة القلب لأسماء الله وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وانكسار القلب بين يدي الله عز وجل وغيرها من الوسائل [1].

---

١ - انظر: مدارج السالكين (٣-١٨) لابن القيم ج ١ دار النفائس.

ثانيا: الإخلاص

يقول ﷻ: (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام:١٦٢، ١٦٣).

أخلصوا لله ﷻ في أعمالكم، وستجدون راحة في صدوركم، ولذلك يقول الله ﷻ: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ)(البينة: من الآية٥).

ثالثا: حسن المتابعة بأن يكون عمله واعتقاده وفق ما أمر الله ورسوله، يقول الله – تعالى-: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)(آل عمران: من الآية٣١) ويقول ﷻ: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)(الحشر: من الآية٧).

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)(الأحزاب: من الآية٣٦).

فلو سألنا أنفسنا: هل ننطلق في كل تصرفاتنا وأعمالنا ونياتنا وفق ما شرع الله؟

إن بعض الناس ينطلق في تصرفاته من هوى زوجته، وبعضهم من هوى رئيسه وبعضهم أعراف قبيلته أو نظام جماعته وهكذا ولو خالف أمره الله ورسوله.

ولو ناقشت أحدهم مرة، فقلت له: لم يا أخي تعمل هذا العمل؟ لقال: رئيسي هو الذي أمرني به، فقلت: ولكنه حرام، لأجاب: أعرف أنه حرام، ولكن ماذا أعمل؟ لو لم أفعل لما رشحني للترقية، أو لفصلني من الوظيفة أو.. إلخ. فأين المتابعة لله ولرسوله من هذا الذي قدم هوى رئيسه على مرضاة ربه.

إننا بحاجة إلى مراجعة أعمالنا، وتحقيق صدق المتابعة للرسول ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به" [1].

وفي الحديث الصحيح: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" [1]. ومما يعين على تحقيق هذه الأصول ليسلم القلب، وينمو مهما يعرض له من ابتلاء وامتحان ما يأتي:

---

١ – قال الخطيب التبريزي في المشكاة (١–٥٩): رواه في شرح السنة وقال النووي في "أربعينه" هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.وعزاه الألباني أيضا للحسن بن سفيان في "الأربعين" له (ق ٥٦–١) والقاسم بن عساكر في أربعينه وقال: حديث غريب، قال الألباني متعقبا النووي ـــ رحمه الله ـــ: هذا وهم فالسند ضعيف فيه نعيم بن حماد وهو ضعيف، وأعله الحافظ ابن رجب بغير هذه العلة متعقبا على النووي تصحيحه إياه.

١- ذكر الله

فإنه يجلو صدأ القلوب، ويذهب ما ران عليها من آثام ومعاص، ويزيد من قرب الإنسان لربه لا سيما إذا كان مستشعرا للذكر، مصاحبا له في كل أحواله وحركاته وهيئاته.

يقول الله ﷻ: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)(الحديد: من الآية١٦) ويقول ﷻ: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)(الإسراء: من الآية٨٢) وقد ذم الله المنافقين في كتابه لقلة ذكرهم لله. فذكر الله علاج حاسم لابتلاء القلب وامتحانه (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)(الرعد: من الآية٢٨).

ومن أعظم أنواع ذكر الله: قراءة القرآن، يقول – تعالى –: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد:٢٤) ونحن نرى كثيرا من المسلمين يستغرق في قراءة الصحف والجرائد، ومطالعة وسائل الإعلام وقتا طويلا بلا تعب ولا كلل ولا ملل. بينما تجد الواحد منهم لا يقرأ ولو جزءا يسيرا من القرآن، بل لو جلس وقتا لقراءة القرآن لم يلبث أن يمل ويعدوه إلى غيره.

يقول أحد السلف: والله لو طهرت قلوبنا ما مللنا من قراءة القرآن.

٢- المراقبة والمحاسبة

وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله –: أنها من أهم العوامل لعلاج القلب واستقامته.

يقول ابن القيم: وهلاك النفس من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها، ولذلك ورد في الأثر: "الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني" [٢] وكان عمر يقول: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا" [٣]. ويقول الحسن: "لا تلقى المؤمن إلا وهو يحاسب نفسه"، ويقول أيضا: "إن العبد ما يزال بخير ما كان له

---

١ – أخرجه البخاري (٣-١٦٧) كتاب الصلح. ومسلم (٣-١٣٤٣) كتاب الأقضية رقم(١٧١٨).

٢ – أخرجه الترمذي (٤-٥٥٠) كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٩) وابن ماجه (٢-١٤٢٣) كتاب الزهد، رقم(٤٢٦٠) وأحمد (٤-١٢٤).وحسنه الترمذي. وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع رقم (٤٣٠٥).

٣ – ذكره الترمذي في جامعه (٤-٥٥٠) وأسنده ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٤٤٥٩) وفيه رجل لم يسم.

واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته"، وقال ميمون بن مهران: "إن التقي أشد محاسبة لنفسه من شريك شحيح". [1]

فيراقب الإنسان نفسه قبل العمل: في إخلاصه، ومتابعته، ويراقب قلبه في تحقيقه للمحبة لله وفي الله، ويجاهدها على ذلك. كما يحاسبها بعد العمل على التقصير فيه، وعدم كمال الإخلاص.

ولا ريب أن هذين من أهم الوسائل لعلاج أمراض القلب، يقول تعالى -: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)(العنكبوت: من الآية٦٩).

٣- وسائل أخرى:-

فمنها العلم، تحقيق التقوى، قيام الليل، كثرة الدعاء خاصة في الثلث الأخير من الليل، فإن سهام الليل لا تخطئ، فليكثر الإنسان فيه من التضرع إلى الله، وسؤاله الصفح والمغفرة والستر والتجاوز، ومنها إطابة المطعم والملبس، وكثر الصدقة (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)(التوبة: من الآية١٠٣) ومن أعظمها: غض البصر، قال - سبحانه -: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)(النور: من الآية٣٠).

خاتمة

لئن كنت قد أطلت في عرض هذا الموضوع، فمرد ذلك إلى أن يستأثر باهتمامكم، فالله الله في قلوبكم، بالرفق بها وحملها على الخير، والعناية بها أو منعها وحمايتها مما يضرها.

وكم يصاب الإنسان بالحزن عندما يعلم أنه مصاب بمرض حسي في قلبه، فهل حزنا مثل ذلك من جراحات القلب وأمراضه، من المعاصي والآثام، من الامتحان الذي يعرض على قلوبنا صباح مساء.

فلنتق الله في قلوبنا، ففي صلاحه النجاة (يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (الشعراء:٨٨، ٨٩).

هل راقبنا الله فيما انتشر من الذنوب من: أكل الربا، والمعاونة عليه، وأخذ الرشوة وإعطائها، ومن الولوغ في أعراض الناس بالغيبة والنميمة، في ذنوب لا يحصيها محص ولا يعدها عاد.

١ - انظر: رسالة مرض القلب وصحته.

ولنرحم هذه القلوب، ولنحملها على طاعة الله بإكثار قراءة القرن ومدارسته، وكثرة النوافل والعبادات،وكثرة الصدقة، وذكر الله ﷻ حتى نلقى الله بقلوب سليمة مخبتة أواهة أوابة، وأكرر التحذير من انشغال كثير من الناس بقلوب إخوانهم غافلين عن قلوبهم، فالنجاة النجاة (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى)(الحجرات: من الآية٣).

الخامس عشر: الموضوع الرابع: التثبت في الأخبار

قال الله ﷻ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (الحجرات:٦).

هذه الآية أصل في وجوب التثبت في الأخبار، بل هي الأصل في ذلك، وما عداها فهو شارح لها ومبين لدلالتها.

ولأهمية هذا الموضوع فسأقف معه وقفة مناسبة، أبين فيها المنهج الصحيح في ذلك دون إفراط أو تفريط.

وسأذكر مقدمة تشتمل على ما يلي:

١- تعريف الخبر والنبأ.

٢- أهمية الخبر.

٣- خطورة الكذب

وسأتناول هذه المقدمة باختصار، ثم أنتقل إلى بيان المنهج الشرعي في التثبت من الأخبار، دون توسع ممل أو إيجاز مخل، ولكن حسب ما يفي بالغرض والقصد [١].

أولا: تعريف الخبر

قال ابن منظور: الخبر – بالتحريك –: واحد الأخبار.

والخبر: ما أتاك من نبأ عمن ستخبر.

قال ابن سيده: الخبر: النبأ، والجمع أخبار وأخابير: جمع الجمع. وخبّره بكذا وأخبره: نبّأه.

واستخبره: سأله عن الخبر وطلب أن يخبره، ويقال: تخبرت الخبر واستخبرته، والاستخبار والتخبر: السؤال عن الخبر، وفي حديث الحديبية: أنه بعث عينا من خزاعة يتخبر خبر قريش، أي يتعرف، يقال: تخبر الخبر واستخبر: إذا سأل عن الأخبار ليعرفها [٢].

---

١ – يحسن الرجوع إلى رسالة الشيخ أحمد الصويان (نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها)فقد أفدت منها كثيرا، وهي رسالة قيمة في بابها.(مخطوط) طبعت الرسالة قبل فترة.

٢ – انظر: لسان العرب مادة (خبر).

ثانيا: أهمية الخبر

الحديث عن أهمية الخبر حديث عن البدهيات، ولكن ما حيلتنا إذا كنا في عصر اختلطت فيه الحقائق، وتبدلت فيه الأمور، وأصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا، وتبرز أهمية الخبر في ضوء ما يلي:

١- إن الواسطة بين السماء والأرض هو الخبر، فالرسل عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، يخبرون عن الله – جل وعلا – فيخبرون الإنس والجن بمراد الله قدرا وشرعا (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) (الحجر:٤٩، ٥٠)، (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) (النبأ:١، ٢).

٢- القرآن حمل لنا أخبار الأولين والآخرين، من قبل خلق آدم – عليه السلام – إلى قيام الدين، خلق السموات والأرض، الملائكة وآدم، آدم وإبليس، قصص الأنبياء وأممهم، قيام الساعة، الجنة والنار ودخول الناس فيهما، خبر أهل الجنة، وخبر أهل النار.

٣- قصة سليمان – عليه السلام – والهدهد، من أهم معالم الخبر وطرق التثبت (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ) (النمل:٢٢) فلما أخبره بخبره وقص قصته قال سليمان – عليه السلام –: (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (النمل:٢٧) ثم سلك المنهج الشرعي في التثبت، ثم جاء دور ملكة سبأ، والمنهج الذي اتخذته في تلقي الخبر وتبليغه.

٤- قصة يوسف، وما فيها من عبر وعظات.

٥- إننا أصبحنا في عالم عجيب، يصبح ويمسي على الخبر، فخبر في جنوب الأرض يؤثر في شمالها، ونبأ في غربها يهز شرقها، وحدث في وسطها يثير الأرض كلها، وبحق أضحى الخبر ملكا غير متوج، وسلطانا تهابه الملوك والرؤساء والسلاطين، ولذلك أصبحت وسائل الإعلام هي السلطة الأولى في الأرض بعد أن كانت الرابعة كما يقولون [1].

٦- تعدد وسائل الأخبار، ووسائط الأنباء، فلم تعد الرسالة، أو المشافهة هي الوسائل الوحيدة، وأصبح المرء في حيرة من أمره، ما يؤكده هذا ينفيه ذاك، وما يعلنه الأول يكذبه الثاني، وهذا الأمر له أثره النفسي والعملي على الفرد والمجتمع، وكما عبر العلامة ابن خلدون عن هذه الحقيقة فقال: فالتحقيق

---

١ – حديثي عن أمر واقع لا الذي يجب أن يكون،والملك لله من قبل ومن بعد.

قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل [1].

٧- ومما يعطي الأخبار أهمية خاصة، غريزة حب الاستطلاع، والشغف بنقل الأخبار، والهيام بالسؤال عن كل جديد.

٨- وأخيرا فإن الإنسان يعيش ويرسم منهج حياته على الخبر ماضيا وحاضرا ومستقبلا، ويعتمد على خبر ماض وحاضر ومتوقع الحدوث [2] أو متيقن الوقوع في المستقبل [3].

والخبر منازل، بين متيقن وظني ومكذوب، والمنازل درجات.

ثالثا: خطورة الكذب

الكذب صفة ذميمة، وخصلة خسيسة، تسقط المروءة، وتظهر الخيانة، وتنبئ عن الجبن ورداءة الطبع. والكذب مظهر لصفات مذمومة، قد لا تبدو للعيان لأول وهلة، كقلة الدين وذهاب الورع، وسوء الطوية، وتفاهة الغاية والمقصد، وهشاشة التربية والمنبت[4].

والكذب: يغير الأمور، ويقلب الحقائق، يجعل الباطل حقا، والحق باطلا، والمعروف منكرا، والمنكر معروفا، وينسب للناس خلاف ما قالوا وما فعلوا، وأعظم الكذب الكذب على الله ورسله، وشر الكذب كذب الملوك. وأمر هذا شأنه، يصعب حصر خطورته وآثاره، ولكن ذكرى للمؤمنين، وتنبيها للغافلين، وتحذيرا لمن جعل الكذب مطيته، والتعريض سلعته، والإشاعة غايته ومقصده، أضع هذه الحقائق، ليحيى من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

١- قال الله – تعالى –: (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) (النحل:١٠٥).

---

١ – انظر: مقدمة ابن خلدون ص ٤.

٢ – كأخبار وتوقعات البشر مما يدخل في الاحتمالات.

٣ – وذلك خاص بخبر السماء، مما أخبر به المصطفي، صلى الله عليه وسلم،عن ربه، قرآنا أو حديثا وكله وحي (إن وهو إلا وحي يوحى).

٤ – انظر: رسالة (نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار)الصويان ص ٧ مخطوط.

٢- آية الحجرات (فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)(الحجرات: من الآية٦) فإذا كان الذي قد صدق الكاذب، دون أن يعلم بكذبه، سينقلب نادما، فكيف بمن كذب متعمدا.

٣- قالت عائشة - رضي الله عنها - ما كان خلق أبغض إلى رسول الله، ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله، ﷺ الكذبة، فما يزال في نفسه عليه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة [1].

٤- روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله، ﷺ قال: "وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا" [2].

٥- وقال، ﷺ "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان" [3].

٦- وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه "إياكم والكذب فإن الكذب مجانب الإيمان" [4]

٧- وقد أجمعت الأمة على تحريمه، وتظاهرت نصوص الكتاب والسنة على تحريمه، وكفى بذلك خطرا [5].

٨- كم من حروب قامت، وفتن وقعت، وأرحام قطعت، وأسر شردت، وقلوب تنافرت، ودماء أسيلت، وأموال بالحرام أكلت، كل ذلك بسبب كذبة واحدة، قد تتلوها كذبات.

٩- لو لم يأت من ثمار الكذب أن من كذب كذبة واحدة، ثم عرفها الناس ردوا صدقه ولو أقسم الأيمان، وقد تبقى هذه الكذبة علامة تميزه، وخصلة لا تفارقه حتى الممات.

١٠- قال ابن تيمية - رحمه الله -: الصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها [6].

---

١ - أخرجه الترمذي (٤-٣٠٧) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٧٣) وأحمد (٦-١٥٢).وحسنه الترمذي.

٢ - أخرجه مسلم (٤-٢٠١٣) كتاب البر والصلة،رقم (٢٦٠٦).

٣ - أخرجه البخاري (١-١٤) كتاب الإيمان، ومسلم (١-٧٨) كتاب الإيمان،رقم (٥٩).

٤ - أخرجه البيهقي في سننه (١٠-١٩٧) ثم قال: هذا موقوف وهو الصحيح وقد روي مرفوعا.

٥ - انظر: الأذكار للنووي ص ٣٢٤.

٦ - انظر: الفتاوى ٢٠-٧٤.

-١١

ومما قاله الشعراء في ذلك [١]

لي حيلة فيمن ينمّ وليس للكذاب حيله

من كان يخلق قوله فحيلتي فيه قلـــيله

وقال آخر:

إذا عرف الإنسان بالكذب لم يزل لدي الناس كذابا ولو كان صادقا

فإن قال لم تصـــغ له جلســـاؤه ولم يسمعوا منه ولو كان ناطقا

وقال ثالث:

لا يكذب المرء إلا من مهانته أو فعلة السوء أو من قلة الأدب

وقبل أن أنتقل من الحديث عن موضوع الكذب أوضح ما يلي:

قال الإمام النووي - رحمه الله -: اعلم أن مذهب أهل السنة أن الكذب هو الإخبار عن الشئ بخلاف ما هو، تعمدت ذلك أم جهلته، لكن لا يأثم في الجهل وإنما يأثم في العمد [٢].

وما ذكره الإمام النووي صحيح، ولكن هناك أمور قد لا تكون كذبا، ولكن توصل إليه في النهاية، ولشيوعها وخطورتها، فإني أشير إليها إشارة بما يغني عن العبارة فأقول:

١- المزاح [٣] فإن التوسع فيه قد يوصل إلى الكذب، وهذا ما يوحي إليه حديث رسول الله ﷺ حيث قال: "أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه" [٤].

٢- التورية، والمعاريض [١] فإذا تعود عليها الإنسان، أكثر منها، وعرف بها، ويصبح في نظر الناس أخو الكذاب، وقد تقوده إلى الكذب.

---

١ - انظر: جواهر الأدب ٢-٤٧٩.

٢ - انظر: الأذكار للنووي ص ٣٢٦.

٣ - كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يمزح ولكن لا يقول إلا حقا، ولم يكن يكثر من ذلك عليه الصلاة والسلام.

٤ - أخرجه أبو داود (٤-٢٥٣) كتاب الأدب، رقم (٤٨٠٠). وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٤٦٤).

٣- نقل الإشاعة دون تحر أو تدقيق، وقد يتورط المرء فيها فيسلك مسالك الكذب لإثباتها، حتى لا يظهر أمام الناس كذابا، فيقع في عين الكذب طائعا مختارا.

٤- الحماس غير المنضبط، والعجلة وعدم التأني عند رؤية المنكرات، تؤدي إلى نقل الخبر على غير حقيقته، من مبالغة أو تحريف أو سوء فهم، وما زاد عن الحقيقة فهو كذب.

٥- عدم التزام المنهج الشرعي في الوعظ والرقائق، توصل صاحبها إلى الكذب عاجلا أو آجلا، وما أحاديث القصاص عنا ببعيد، وكنت أتصور قلتهم في زماننا، ولكنهم عادوا كأسلافهم أو يزيدون.

٦- مصلحة الدعوة باب واسع ولج منه الكثيرون، وتأول فيه متأولون، واستمرأ الكذب بسببه آخرون، فعودة إلى منهج السلف الصالح، والتزاما بالكتاب والسنة، فلسنا أحرص من المشرع على شريعته، ولا من الرسول، ﷺ على ملته وأمته، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

٧- الأمور التي ورد فيها جواز الكذب محددة معلومة [٢].، وأغراضها وغاياتها بينة مرسومة، ولكن هناك من جعلها له سلما وحجة، فزاد فيها عددا، وتوسع فيها مددا، لم يراع في ذلك الضوابط، ولم يفهم الأصول والقواعد، فأصبح كل ما بين مسلم وكافر حربا، وإن كانا مسلمين فهو صلحا، وما بين الزوج وزوجته من الكذب لم يجعل له حدا، وهلم جرا.

وبعد:

فهذه بعض الأمور التي يجب أن يكون المسلم فيها على حذر، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ومن ابتعد عن الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن ترك المكروه سلم من الحرام، والله يعصمنا من الزلل في الأقوال والأفعال.

التثبت من الخبر

كثير من الناس يتصور أن التثبت من صحة الخبر يتعلق بعدالة من رواه، فإذا روى الخبر ثقة سرعان ما يقطع أُولَئِكَ بصحة الخبر والجزم به، ومن ثم القيام بما يستدعيه ذلك الخبر.

---

١ - ومنها ما هو جائز ومشروع، ولكن الإكثار منها هو المقصود.

٢ - انظر: رياض الصالحين للنووي باب ما يجوز فيه الكذب ص (٥٨٦) وكذلك شروح رياض الصالحين ففيها تفصيل، وآفات اللسان للقحطاني ص ٧٦.

ولذلك عندما تناقش أحد هؤلاء في خبر رواه سرعان ما يقول لك: حدثني فيه الثقة، يقول هذا، وكأن الأمر يجب ان ينتهي عند هذا الحد [1] فلا مجال للطعن في الخبر بعد ذلك أو التشكيك فيه، أو حتى مجرد محاولة المزيد من البحث والاستقصاء للتثبت والتبين، ولو فعلت ذلك لأصبحت (في نظره) مشككا في روايته طاعنا في عدالته، متعديا لحدود الخلق والأدب تجاهه. ومنشأ هذا الأمر هو الجهل في المنهج الشرعي للتثبت والتبين، وقصره على أحد أفراده، مع عدم إدراك أهمية التثبت والتبين، حيث يعتبر ذلك تنطعا ومبالغة.

ولذلك سأذكر مقدمة أبين فيها أهمية التثبت من الأخبار ثم أذكر المنهج الشرعي في ذلك.

---

١ – الأصل هو قبول خبر العدل، وهذا ما يدل عليه مفهوم المخالفة في الآية كما قال الشيخ الشنقيطي، وهو ما قرره العلماء،ولكن بعض الأخبار تحتاج إلى مزيد تثبت وتبين، وهذا ليس ردا للخبر الثقة، كما أن الشهادة كذلك، انظر: أضواء البيان ٧–١٢٧.

أولا: أهمية التثبت والتبين: [1]

جاء الأمر صريحا بوجوب التثبت والتبين في الأخبار عند رواية الفاسق لها، حيث جاءت في قراءة سبعية متواترة: (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)(الحجرات: من الآية٦) وفي قراءة أخرى سبعية متواترة: (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَثَبَّتُوا)(الحجرات: من الآية٦).

ولذلك قال الإمام الطبري: هما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى – ولم يقل متحدتا المعنى – فبأيهما قرأ القارئ فمصيب [2].

قال الإمام الحسن البصري – رحمه الله –: المؤمن وقاف حتى يتبين [3].

وقال ابن الجوزي – رحمه الله –: ما اعتمد أحد أمرا إذا هم بشيء مثل التثبت، فإنه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب، كان الغالب عليه الندم، ولهذا أمر الإنسان بالمشاورة، لأن الإنسان بالتثبت يطول تفكيره، فتعرض على نفسه الأحوال، وكأنه شاور، وقد قيل: خمير الرأي خير من فطيره.

وأشد الناس تفريطا من عمل مبادرة في واقعة من غير تثبت ولا استشارة، خصوصا فيما يوجب الغضب، فإنه ينـــزقه طلب الهلاك واستتبع الندم العَظِيمٌ، فالله الله، التثبت، التثبت في كل الأمور، والنظر في عواقبها [4].

إن التثبت منهج شرعي، ونضج عقلي، والعقل الصريح يوافق النقل الصحيح، ولذلك جاء في الأدب الصغير لابن المقفع: "أصل العقل التثبت" [5] وهذا صحيح، فالعقل سمي عقلا، لأنه يعقل صاحبه عن فعل ما لا ينبغي.

---

١ – أذكر أحيانا (التثبت والتبين) مجتمعين وأحيانا منفردين، والسر في ذلك أنني أرى أن بينهما عموما وخصوصا، حيث إن في كل واحد منهما معنى ليس في غيره عند اجتماعهما، فإذا اجتمعا افترقا اجتمعا، وذلك وإن ذكر العلماء أن معناهما واحد، فإنني أرى ــ وهذا قول لبعض المفسرين ــ أن التثبت ينصب على السند، أما التبين فهو حول معنى الخبر ومتنه وملابساته، فقد يثبت الخبر سندا، ولا يصح معنى، وقد يثبت سندا، ويصح معنى ولكن له ظروفه وملابساته التي قد تشفع لمن حدث منه، وهذا من التبين، ومن ذلك قصة حاطب ــ رضي الله عنه ــ في فتح مكة.

٢ – انظر: تفسير الطبري (٢٦–٣٨٣).

٣ – الفتاوى ١٠–٣٨٢.

٤ – انظر: صيد الخاطر ص ٣٧٤.

٥ – انظر: الأدب الصغير ص ١٦٨.

ولقد تميزت هذه الأمة بميزة فقدتها الأمم السابقة، وهي ميزة وجود المنهج المتكامل الشامل للتثبت من الأخبار، مما حفظ علينا ديننا، وهو من حفظ الله لهذا الدين إلى يوم الدين.

قال الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي – رحمه الله –: والتثبت في سماع الأخبار وتمحصيها ونقلها وإذاعتها، والبناء عليها أصل كبير نافع، أمر الله به رسوله، قال – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (الحجرات:٦) فأمر بالتثبت، وأخبر بالأضرار المترتبة على عدم التثبت، وأن من تثبت لم يندم، وأشار إلى الميزان في ذلك في قوله – تعالى –: (أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ)(الحجرات: من الآية٦) وأنه العلم والتحقق في الإصابة وعدمه، فمن تحقق وعلم كيف يسمع، وكيف ينقل وكيف يعمل، فهو الحازم المصيب، ومن كان غير ذلك فهو الأحمق الطائش الذي مآله الندامة [(١)].

إن من يتأمل في واقع الناس اليوم، وينظر في الكم الهائل من الأخبار التي نسمعها في كل يوم، ويرى الاختلاف والتباين بين مصادر هذه الأخبار، يدرك عظمة هذا الدين، وسمو هذا المنهج الذي دعا إليه الإسلام، وأمر به القرآن، وحفظته السنة، وحفظت به السنة.

ولذلك يقول سيد قطب – رحمه الله –: التثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة قبل الحكم عليها، هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق.

ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، و لم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، و لم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم [(٢)].

وأخيرا، فإن التأمل والتمعن في سبب نــزول آية الحجرات كاف لبيان أهمية التثبت والتبين وأثرهما في حياة الفرد والأمة، ومن قرأ قصة داود – عليه السلام – في سورة (ص) عرف قيمة هذا المنهج وسموه.

---

١ – انظر: الفتاوى السعدية ص ٦٦، وانظر: رسالة (نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار) للصويان ص ٢٢.

٢ – انظر: الظلال ٤–٢٢٢٧ تفسير قوله ــ تعالى ــ: (ولا تقف ما ليس لك به علم).[سورة الإسراء،الآية:٣٦].

ثانيا: المنهج الشرعي في التثبت والتبين

عند ورود الخبر فإنه يجب مراعاة ما يلي [١] :

١- **عدالة الراوي** وذلك بسلامته من الفسق وخوارم المروءة. وهذا أمر واضح، وقل من يغفل عنه إلا من لا يعتد به، والآية نص فيه.

٢- ضبط الراوي واتقانه وقوة حفظه.

إن كثيرا ممن يروون الأخبار ويتلقونها يغفلون عن هذه القضية، أو يتساهلون بها، والأمر عندهم يتوقف على عدالة الراوي وورعه، دون النظر في ضبطه وإتقانه، ولذلك رأينا أخبارا متناقضة تروى عن العدول، والسبب في ذلك عدم مراعاة هذا الأمر عند نقل الأخبار.

ولقد عني السلف بهذا الشرط عناية فائقة، تدل على سمو هذا المنهج وسلامته.

قال ابن أبي الزناد – رحمه الله –: أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون، ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله [٢].

وقال الإمام مالك – رحمه الله –: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله، ﷺ عند هذه الأساطين، وأشار إلى المسجد، فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن [٣].

وقال وكيع بن الجراح – رحمه الله تعالى –: وذكر حديثا رواه أحد السلف: "ذاك رجل صالح.. وللحديث رجال" [٤].

وليس المقام مقام حصر ما ورد في ذلك، وإنما المراد بيان أهمية مراعاة الضبط والإتقان في الرواية والتلقي.

٣- حسن الفهم ودقة الاستيعاب للمراد

---

١ – انظر: رسالة نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها، للصويان وكتاب منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين لهشام الصيني.

٢ – انظر: صحيح مسلم ١-٥١ (المقدمة).

٣ – انظر: ترتيب المدارك (١-١٣٨).

٤ – انظر: شرح علل الترمذي لابن رجب الحنبلي ١-٩٤.

وهذا يختلف عن الأول والثاني، فكم من ورع حافظ لكنه لا يفقه ما يروي وما يحفظ.

وقد يتصور البعض صعوبة التفريق بين الضبط والاتقان، وبين الفهم والإدراك، وهذا ناشئ من رداءة الفهم وضعف الإدراك، وإلا فإن الطفل يحفظ حفظا عجيبا قد يعجز عنه بعض الكبار، ومع ذلك لا يدرك ما يحفظ ولا يفهم ما يروي.

فالحفظ والفهم موهبتان منفصلتان، قد تجتمعان وقد تفترقان، ولا تلازم بَيْنَهُمَا.

والحفظ يغلب فيه الجانب الجبلي على الجانب المكتسب، والفهم بعكس ذلك يغلب فيه جانب الاكتساب على جانب الجبلية.

ومما ورد عن السلف في ذلك ما رواه ابن وهب عن مالك، وهذا الشأن – يعني الحديث والفتيا – يحتاج إلى رجل معه تقى وورع وصيانة، وإتقان (وعلم وفهم) فيعلم ما يخرج من رأسه وما يصل إليه غدا، فأما رجل بلا إتقان (ولا معرفة) فلا ينتفع به ولا هو حجة،ولا يؤخذ عنه [1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: وكثير من الناقلين ليس قصده الكذب، لكن المعرفة بحقيقة أقوال الناس من غير نقل ألفاظهم، وسائر ما به يعرف مرادهم قد يتعسر على بعض الناس، ويتعذر على بعضهم [2].

وقال ابن القيم – رحمه الله –: صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، ثم قال: وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد [3].

ويقول في موضع آخر، والعلم بمراد المتكلم يعرف تارة من عموم لفظه، وتارة من عموم علته.

والحوالة على الأول أوضح لأرباب الألفاظ، وعلى الثاني أوضح لأرباب المعاني والفهم والتدبر.

وقد يعرض لكل من الفريقين ما يخل بمعرفة مراد المتكلم، فيعرض لأرباب الألفاظ التقصير بها عن عمومها، وهضمها تارة، وتحميلها فوق ما أريد بها تارة.

---

١ – انظر: ترتيب المدارك ١–١٣٨.

٢ – انظر: منهاج السنة٦–٣٠٣٠.

٣ – انظر: أعلام الموقعين١–٨٧.

ويعرض لأرباب المعاني فيها نظير ما يعرض لأرباب الألفاظ.

فهذه أربع آفات هي منشأ غلط الفريقين [1].

وفي هذا السياق – أيضا – قال الإمام السبكي – رحمه الله –: فكثيرا ما رأيت من يسمع لفظة فيفهمها على غير وجهها، فيغير على الكتاب والمؤلف، ومن عاشره واستن بسنته، مع أن المؤلف لم يرد ذلك الوجه الذي وصل إليه هذا الرجل [2].

ويحسن في هذا المقام أن أذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند حول الضابطين الأخيرين: فقد ورد عن الرسول، ﷺ قوله: "نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها، وبلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه" رواه أحمد [3].

قال هشام الصيني – وفقه الله– تعليقا عل هذا الحديث: ففي قوله: "فحفظها ووعاها" إشارة إلى الحفظ السليم، والفهم المستقيم.

وفي قوله: "وبلغها من لم يسمعها" إشارة إلى أداء الكلام بنصه.

وفي قوله: "فرب حامل فقه لا فقه له" إشارة إلى صاحب الفهم الضعيف.

وفي قوله: "ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه" إشارة إلى تفاوت الأفهام، وأن سامع الخبر قد يستنبط مما يسمع ما لم يستنبطه الراوي، وهذا من جوامع الكلم الذي أوتيه، ﷺ [4].

٤- **مراعاة اتصال السند إلى منتهاه** وتوافر العدالة والضبط – والفهم إن اقتضى ذلك – في جميع رجال السند. وكم تروى من الأخبار، يرويها لك الثقة، وتقول له من حدثك؟ فيقول لك: فلان وهو ثقة ضابط – أيضا – ولكن لو سألت عمن حدث هذا الثقة لبان لك سر الوهن، ولانجلت علة الخبر.

وقد يكون في الخبر انقطاع، أو تدليس، أو غير ذلك من العلل التي لا تخفى.

---

١ – انظر: أعلام الموقعين ١-٢٢٠.

٢ – انظر: قاعدة في الجرح والتعديل ص ٩٣.

٣ – انظر: المسند (٤-٨٢) وصحيح الترغيب والترهيب رقم (٨٦).

٤ – انظر: كتاب منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين لهشام الصيني ص ٥٧.

٥- **مقارنة الخبر**، وعرض متنه ومدلوله على السنن الإلهية، والأحوال الجارية، والسير والسياسات المعهودة ونحو ذلك قال العلامة ابن خلدون: إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، و لم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني،ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق.

وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتَحكِيمٌ النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط [١].

قال أحمد الصويان: وللناس طرائق شتى في تحمل الأخبار ونقلها، ويتفاوتون في ذلك تفاوتا كبيرا، فإن نقل الخبر فن دقيق، لا يحسن الخوض في غماره إلا قلة من الناس، فهو يحتاج إلى فطنة وتيقظ، ثم إلى حفظ وتثبت، ثم إلى صدق وأمانة [٢].

٦- **أشير إلى ضابط مهم يغفل عنه الكثير**، وهو جوب مقارنة الخبر بسيرة من نسب إليه ابتداء، فإن ثبت الخبر ثبوتا قاطعا، وكان مما لا يليق بسيرة هذا الرجل وما عرف عنه، بحثنا له عن مخرج وحملناه على المحمل الحسن، واعتذرنا لصاحبه قدر مستطاعنا، دون مجاملة أو مداهنة في الحق [٣].

ولازلنا نسمع نسبة بعض الأخبار لِبَعْضٍ من بمثلهم يقتدى، فيتعجل بعض الناس بتصديقها وروايتها، ثم نكتشف الحقيقة، بأن هذا الخبر مكذوب جملة وتفصيلا، أو قد يكون صحيحا ولكن روي على غير وجهه، وقد يكون لصاحبه عذر وأنت تلوم.

ومنهج السلف في مثل هذا الأمر واضح ومعلوم.

وقد نقل لشيخ الإسلام - رحمه الله - كلام عن الجنيد - رحمه الله - ظاهره المخالفة، فقال ابن تيمية: فهذا ما أعرفه من كلام الجنيد، وفيه نظر هل قاله؟ ولعل الأشبه أنه ليس من كلامه المعهود، فإن

---

١ - انظر: مقدمة ابن خلدون ص ٩.

٢ - انظر: رسالة نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار ص ٥.

٣ - ومثل ذلك ما قد ينسب لهيئات الاعتبارية مما لها مكانة محمودة وسيرة مشهودة أو لبعض المنتسبين إليها، مما يتعدى الأشخاص إلى تلك الهيئات.

كان قد قال هذا فأراد كذا [وبدأ يلتمس له المحامل والمخارج] ثم قال: فإن الجنيد أجل من أن يريد هذا، وهذا الكلام مردود على من قاله.

ثم قال كلاما لا يحسن تجاوزه: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله، ﷺ وما ثم معصوم من الخطأ غير الرسول، ﷺ لكن الشيوخ الذين عرف صحة طريقتهم علم أنهم لا يقصدون ما يعلم فساده بالضرورة من العقل والدين (1).

وقال في موضع آخر لما بلغه كلام عن سهل التستري -رحمه الله- مما فيه مخالفة شرعية: وهذه الحكاية إما كذب على سهل، وهذا الذي نختار أن يكون حقا، أو تكون غلطا منه فلا حول ولا قوة إلا بالله (2).

وما أحسن ما قاله السبكي - رحمه الله - قال: فإذا كان الرجل ثقة مشهودا له بالإيمان والاستقامة، فلا ينبغي أن يحمل كلامه وألفاظ كتاباته على غير ما تعود منه، ومن أمثاله، بل ينبغي التأويل الصالح، وحسن الظن الواجب به وبأمثاله (3).

٧- **قد يقول قائل:** إن ما ذكرته من منهج هو ما يراعى مثله عند نقل حديث رسول الله، ﷺ وروايته، فهل تريد أن تجعل الأخبار كحديث المصطفى، صلى الله عليه وسلم؟.

أقول: لم أرد ذلك بإطلاق، وإنما الأخبار تتفاوت، فمنها ما يجب أن نطبق فيه ما نقدر عليه من شروط التوثيق، ونسلك جميع السبل الممكنة للتبين والتثبت (أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)(الحجرات: من الآية٦) وأخرى دون ذلك حسب مدلولها وأثرها وتخصص راويها أو المروية عنه، فلكل خبر رواته، ولكل حدث فاعلوه، ولكل جهة مصادرها ومخبروها، ويجب أن تقدر كل حالة بقدرها، فلا إفراط ولا تفريط.

٨- **أعيد هنا ما ذكرته** في أحكام هذه الآية مما له صلة بموضوعنا إكمالا لهذا المبحث وإزالة لما قد يقع من لبس:

---

١ - انظر: الفتاوى ١١-٣٩١، ٣٩٣.

٢ - انظر: الفتاوى ١٤-٣٣٦، ورسالة الصويان ص ٢٨.

٣ - انظر:قاعدة في الجرح والتعديل ص ٩٣.

أ- قال ابن العربي: من ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعا، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة تبطلها. فأما في الإنسان على نفسه فلا يبطل إجماعا [1].

ب- وقال - أيضا -: لا خلاف أنه يصح أن يكون رسولا عن غيره، من قول يبلغه، أو شيء يوصله، أو إذن يعلمه، إذا لم يخرج عن حق المرسل والمبلغ [2].

جـ- قال الجصاص: واتفق أهل العلم على جواز قبول خبر الفاسق في أشياء فمنها أمور المعاملات -ثم عد بعضها- [3]. هذا مختصر لِبَعْض ما ذكرته هناك ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما سبق.

٩- **وأختم هذا المبحث** حول ما يرد من أخبار في وسائل الإعلام العالمية، فأقول: إن هذا يحتاج إلى تفصيل وتفريع ليس هذا مكانه، ولكن أجمل ذلك بما يلي:

١- ما كان من مصادر الأخبار منسوبا إلى الجهة التي أعلنته، فإنه مثل خبر الفاسق عن نفسه.

٢- إذا كان الخبر مما يستحيل فيه التواطؤ على الكذب فيقبل.

٣- أما إذا كان منسوبا للأفراد أو جهات أخرى فلا بد من التبين والتثبت.

وبعد:

فآمل أن يكون موضوع التبين والتثبت اللذين أمر الله بهما في سورة الحجرات قد اتضح من خلال هذا البحث، حيث حرصت على أن أعرض لكل النقاط المتعلقة في الموضوع، بأسلوب يناسب المقام، وذلك قناعة مني بأهمية مثل هذا المبحث وبخاصة في عصرنا الحاضر الذي كثر فيه الإرجاف، وأصبح للإشاعة سوق رائجة، وفشا فيه الكذب، مما له أثر سلبي في واقع المسلمين وحياتهم.

إن التزامنا بالمنهج الشرعي في التثبت والتبين منجاة لنا ولأمتنا، ووقاية من الأخطار والفتن (أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)(الحجرات: من الآية٦).

السادس عشر: الموضوع الخامس: الأخوة

١ - انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤-١٧١٥.

٢ - انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤-١٧١٦، وتفسير القرطبي ١٥-٣١٢.

٣ - انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣-٣٩٩.

قال الله – سبحانه وتعالى –: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾(الحجرات: من الآية١٠).

هذه الآية أصل من الأصول التي تنظم علاقة المسلم بأخيه المسلم.

وليست هذه الآية هي الوحيدة فقط في هذه السورة التي تتناول موضوع الأخوة وتقويه الروابط بين المسلمين، بل إن هناك عدة آيات في الموضوع نفسه، ولكن اختلفت الأساليب في تحقيق هذه الغاية، وهي بناء الأخوة الإيمانية، وأوضح ذلك فأقول:

جاءت الآية الأولى في هذا الموضوع آمرة بالصلح بين المسلمين، وإزالة الفتن التي تقع بينهم من خلافات وخصومات، ولو وصل الأمر إلى قتال من يأبى أن يستجيب لذلك، والمنطلق الذي ترسمه السورة، وتذكره سببا لاستخدام هذا الحق، حق القتال لإجبار الباغي على العودة إلى الصف، والانتظام في سلك الجماعة المسلمة، هو ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(الحجرات: من الآية١٠).

وهذه الآية تدل في منطوقها ومفهمومها وسياقها على عدة دلالات أهمها أمران:

١– أن الاقتتال بين المسلمين خروج عن قاعدة الأخوة التي قررها الله بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(الحجرات: من الآية١٠) فيجب اتخاذ جميع الوسائل المشروعة التي تعيد هؤلاء إلى القاعدة، ولو أدى ذلك إلى قتالهم، صيانة لهذا الأصل ومحافظة عليه.

٢– أن على المؤمنين الذين لم يشاركوا في هذا الخلاف، أن يبادروا بالصلح بين الفريقين المتخاصمين، وإذا لم يجد الصلح مع أحدهما، فيجب عليهم قتاله وإجباره على ذلك.

إن هذا الأمر – وهو القيام بالصلح أو القتال – ليس أمرا اختياريا أو مندوبا، بل هو واجب مفروض [1] تفرضه قاعدة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(الحجرات: من الآية١٠) وليس لأحد أن يلومهم على ذلك [2] لأن هذه الآية تخولهم القيام بكل وسيلة مشروعة تعيد الأمر إلى نصابه والحق إلى أهله.

---

١ – وهو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وفرق بعض العلماء بين الصلح في حالة الاقتتال، والصلح فيما دونه، فأوجب الصلح في الأول وندب في الثاني، انظر: تفسير الرازي (٢٧-١٢٩).

٢ – لأن هناك من يكرر: ما دخلك في هذا الأمر، وما علاقتك به، وقد يعده البعض من تدخل المرء بما لا يعنيه.

وبعد تقرير هذه القاعدة، ورسم المنهج الشرعي في المحافظة عليها، تأتي آيات أخرى متلمسة أسباب حدوث الخلاف والخصومات بين المسلمين، فتبين حكم الله فيها، وتحذر المسلمين من الوقوع في حبائلها، مغلقة أبواب الشر ووسائل الفتنة وحبائل الشيطان.

فجاءت الآيات ناهية عن: السخرية، والتنابز، واللمز، وسوء الظن والتجسس، والغيبة، والتفاخر لأن هذه الآفات من أعظم ما يبث الوشائج، ويثير الضغائن، ويفجر الخصومات، وبخاصة أن منشأها أمور قلبية، وما ظهرت على الجوارح إلا بعد أن عاشت واستوطنت القلوب زمنا، والقضاء عليها قضاء على آثارها، ومجرد إيقاف الاقتتال – لو حدث – لا يكفي لإطفاء نار الفتنة، فقد تشتعل بين لحظة وأخرى، إذا كانت النفوس تنطوي على أسباب الفتنة وجذورها.

وفي ضوء هذا المنهج، وتفاعلا مع هذه القاعدة، وتلمسا لأسباب الفتنة للوصول إلى علاجها، وبحثا عن منطلقات الأخوة ترسيخا لها ودعما لبقائها، وفي ظلال هذه الآيات في سورة الحجرات سأقف مع موضوع (إنما الْمُؤْمِنُونَ إخوة) ومن الله أستمد العون والتوفيق.

أولا: علاقة المسلم بغيره

إن مما يميز المسلمين عن غيرهم أن الإسلام يرسم لهم منهجا في العلاقة بغيرهم، منهجا يقوم على العدل والصدق وحسن الخلق.

ومن أبرز معالم هذا المنهج ما يلي:

١– العدل وتحريم الظلم، حتى مع الكفار، بل والحيوانات أيضا، يقول – سبحانه –: (وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)(المائدة: من الآية٨).

وفي الحديث القدسي الذي يرويه، ﷺ عن ربه – جل وعلا –: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا" [1].

إن بناء العلاقة على العدل وتحريم الظلم يستلزم أمورا كثيرا وبخاصة في باب المعاملات بين المسلمين وغيرهم، فلا كذبا ولا غشا، ولا سرقة، ولا مماطلة أو تسويفا في أداء الحقوق والواجبات.

---

١ – أخرجه مسلم (٤–١٩٩٤) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٧٧).

وهذا ما سجله لنا تاريخنا الناصع عن سلفنا الصالح، فرسول الله، ﷺ قدوتنا في تعامله مع غير المسلمين.

٢- حسن الخلق: أثنى الله على حبيبه ونبيه وخليله، ﷺ فقال: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:٤) وحسن خلقه، ﷺ لم يكن مع المسلمين فحسب، بل مع الكفار - أيضا - وكم واجه منهم من سوء الخلق وفحش التعامل فقابل ذلك بالخلق الحسن والأسلوب الأحسن، وصفحات السيرة مليئة بذلك، وكتب الشمائل فيها الحجة والبرهان [١].

إن حسن الخلق يجب أن يتعدى الإنسان إلى الحيوان، فقد " دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطلقتها، ولا هي أطعمتها حتى ماتت" [٢].

" ودخلت امرأة بغي - وفي رواية رجل - دخلت الجنة لعطفها على كلب وجدته عطشانا فأسقته الماء" [٣].

وكما ورد في فضل الإحسان إلى كل نفس رطبة [٤].

إن حسن الخلق مفتاح لكل خير ومغلاق لكل شر. ولذا رأينا أثر العدل وحسن الخلق وصدق المعاملة من المسلم مع غيره، حيث دخل كثير من أُولَئِكَ في الإسلام، لما رأوه من أخلاق النبوة ومعاملة المتقين. كما جر سوء المعاملة، والظلم من بعض المسلمين لغيرهم نفورا وبعدا عن دين الله، حتى ارتد بعض هؤلاء بعد أن دخلوا في دين الله، وذلك لما رأوه من أخلاق بعض المسلمين.

وقبل أن أنتقل من هذه المقدمة أشير إلى أن هناك خلطا بين حسن الخلق وصدق المعاملة، وبين مبدأ الولاء والبراء، الذي هو أصل من أصول عقيدة الإسلام. ولذلك ونتيجة لهذا الخلط وعدم التفريق بَيْنَهُمَا حدث إفراط وتفريط.

---

١ - انظر: كتب الشمائل وأخص كتاب الشمائل المحمدية.

٢ - أخرجه البخاري (٤-١٠٠) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٤-٢٠٢٢) كتاب البر والصلة، رقم (٢٢٤٢).

٣ - أخرجه البخاري (٧-٧٧) كتاب الأدب، ومسلم (٤-١٧٦١) كتاب السلام، رقم (٢٤٤)، (٢٢٤٥).

٤ - أخرجه البخاري (٧-٢٢) كتاب الأدب، ومسلم (٤-١٧٦١)، كتاب السلام رقم (٢٢٤٤)، (٢٢٤٥).

فطائفة باسم حسن الخلق، ودعوة هؤلاء الكفار إلى الإسلام، أضاعوا مبدأ الولاء والبراء، بل وميعوه حتى لم يبق له حقيقة ملموسة، واختلط الحابل بالنابل.

وآخرون حرصا منهم على هذا الأصل، وتحقيقا لمبدأ الولاء والبراء، ضاعت معالم حسن الخلق، وأساءوا المعاملة مع غيرهم، فرأينا الجفاء والغلظة في غير موضعها، بل وتكلف بعضهم ذلك مما ليس في طباعهم.

وهناك فرق بين حسن الخلق والالتزام بمبدأ الولاء والبراء، ولكل واحد منهما لوازمه وآثاره، وليس بَيْنَهُمَا تعارض أو تنافر أو تضاد [1].

ثانيا: مكانة الأخوة الإيمانية

للأخوة الإيمانية مكانة سامية، ودرجة عالية رفيعة، لا تساميها مكانة، ولا تقاربها رابطة من الروابط.

ولقد برزت هذه المكانة من خلال نصوص عدة، ومواقف مشرفة، أكتفي منها بما يلي:

١- قوله – تعالى -: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)(الحجرات: من الآية١٠) وحماية لهذا المقام – مقام الأخوة –شرع المحافظة عليها بوسائل عدة –سيأتي بيانها – ولو وصل الأمر من أجل صيانتها، والذود عنها إلى القتال، ومع من؟ مع المسلمين الذين لم يدركوا خطورة ما يقومون به وما يفعلون، وجعل تحقيق الأخوة والصلح من أسباب الرحمة، ومن رحمه الله فقد فاز فوزا عظيما.

٢- تقديمها على أخوة النسب:

وهذا الأمر قد قرره القرآن الكريم في أكثر من موضع، نكتفي من ذلك بآيتين:

الأولى: في سورة التوبة وهي قوله – تعالى -: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة:٢٤).

والثانية: في سورة المجادلة: (لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ

١ – لأن هذا الموضوع ليس من شأننا – هنا – فإني أحيل من أراد التفصيل في ذلك الكتاب الولاء والبراء في الإسلام للدكتور محمد بن سعيد القحطاني فقد أجاد وأفاد.

وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (المجادلة:٢٢).

والرجوع إلى أسباب نــزول هاتين الآيتين وبخاصة الآية الأخيرة يقرر هذا الأمر ويوضحه.

وسيرة الصحابة – رضوان الله عليهم – خير شاهد ودليل ومثال.

قال القرطبي: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب [١].

٣- ثبت عن المصطفى، ﷺ أنه قال: "أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله" [٢].

وفي حديث آخر: "وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله" [٣]

ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة: "رجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه" [٤].

والأحاديث كثيرة في هذا الباب، وكلها تدل على مكانة الأخوة في الله ومنــزلتها عند الله.

٤- ما شرعه الله من أمور تقوي الأخوة وتحافظ عليها، كالحقوق الست، ونصرة المسلم، والتواد والتراحم، وحسن الخلق وقضاء حوائج المسلمين، وستر عوراتهم، وغير ذلك مما يقوي الوشائج ويحمي الروابط بين المسلمين.

٥- تحريم الأمور التي تكون سببا في إضعاف الأخوة وبترها، ووسيلة لنشوء الخلافات والخصومات، والعداوة، والبغضاء، كالغيبة والنميمة، والسخرية، والهمز، واللمز، وسوء الظن، والتفاخر بالأنساب والأموال والأولاد، وكالغل والحسد، والتجسس، والهجر، وغير ذلك مما يدخل في هذا الباب، ويكون ذريعة لاهتزاز مكانة الأخوة وضعف منــزلتها.

---

١ – انظر: تفسير القرطبي ١٥-٣٢٢.

٢ – أخرجه أحمد (٤-٢٨٦) وأخرجه أيضا الطبراني والحاكم والطيالسي، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٢٥٣٩).

٣ – أخرجه البخاري (١-١١) كتاب الإيمان، ومسلم (١-٦٦)، كتاب الإيمان، رقم (٤٣).

٤ – أخرجه البخاري (١-١٦١) كتاب الأذان، ومسلم (٢-٧١٥) كتاب الزكاة، رقم (١٠٣١).

٦- أنه إذا ذهب الإيمان والإسلام، ومن ثم انتفت الأخوة، تقطعت جميع الروابط والوشائج الأخرى، فالزوجة تطلق من زوجها، والابن لا يرث من أبيه [(١)] وإعلان البراء لا مناص منه (إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)(الممتحنة: من الآية٤) وسورة الممتحنة ترسم لنا هذا المنهج بما لا لبس فيه ولا غموض، وتحدد لنا كيف تكون العلاقة وحدودها، وهذا التشريع دليل على مكانة الأخوة وآثارها وجودا وعدما.

وقد ذكرنا قول القرطبي بأن أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، لأن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، ولا عكس.

هذه أهم المعالم التي تدل على مكانة الأخوة في الإسلام ولهذه المكانة والمنـــزلة، ولما ورد في سورة الحجرات، وبعد هذه المقدمة فإني سأعالج الموضوع من وجهين:

١- الأمور المشروعة التي تقوي الأخوة بين المؤمنين، بل وتوجدها.

٢- الأمور المنهي عنها مما يكون سببا في إضعاف الأخوة أو زوالها.

ولن أطيل في عرض هذه الأمور والأسباب، سوى أنني قد أقف مع الأمور التي وردت في سورة الحجرات، وأتناولها أوسع مما سأتناول غيرها، لأنها هي الأصل في الموضوع وغيرها تبع لها.

---

١ – يستثنى من ذلك العلاقة مع الوالدين إذا كانا كفارا فقد رسم القرآن حدودها ومتى تكون ومتى لا تكون.

أولا: الأمور المشروعة:

شرع الله - جل وعلا - كثيرا من الأعمال التي تكون سببا في تآلف المسلمين وصفاء قلوبهم، ووحدة كلمتهم، وبقاء أخوتهم.

وسأذكر أهم هذه الأشياء، مستدلا لها بالكتاب والسنة، دون إطناب أو تفصيل.

١- الصلح بين المسلمين

يقول – سبحانه وتعالى – في سورة الأنفال – (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) (الأنفال: من الآية١) وقال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)(الحجرات: من الآية١٠).

وفي النساء (فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)(النساء: من الآية٣٥).

وفيها أيضا: (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)(النساء: من الآية١٢٨).

ومما ورد في القرآن من الآيات التي ترشد إلى الصلح وتحث عليه:

قوله – تعالى –: (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) (النساء:١١٤).

وقال: (وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً)(البقرة: من الآية٢٢٨) وقال: (فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:١٨٢).

وقال: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)(الشورى: من الآية٤٠).

وقال: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)(لأنفال: من الآية١).

إلى غير ذلك من الآيات التي وردت في الصلح مبينة مكانته وأثره في حياة المسلمين وروابط الأخوة.

والصلح قد يكون بين فريقين وطائفتين كما في سورة الحجرات، وقد يكون بين فردين كما في آيات سورة النساء، وقد يكون بين فرد ومجموعة كما بين المورث وورثته أو من أوصى لهم كما في آية البقرة.

وقد ورد عنه، ﷺ أنه قال: "كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل فيه بين اثنين صدقة" الحديث [1].

١ – أخرجه البخاري (٣-١٧١) كتاب الصلح، ومسلم (١-٤٩٩) كتاب صلاة المسافرين، رقم (٢٧٠).

ومن الأدلة على مكانة الصلح وأثره أن من المواضع التي يجوز فيها الكذب: الصلح بين المتخاصمين، عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط – رضي الله عنها – قالت: سمعت رسول الله، ﷺ يقول: "ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرا، أو يقول خيرا" [1].

وفي رواية لمسلم: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: تعني الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها [2]

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي – رحمه الله– في تفسير قوله تعالى: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الحجرات: من الآية١٠) قال: إذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة [3].

والمتأمل لواقع المسلمين اليوم يرى ما بينهم من خلاف وتشاحن وصل في مرات عديدة إلى الاقتتال بينهم، هذا على مستوى القبائل والشعوب.

أما على مستوى الأفراد فحدث ولا حرج، فالمحاكم مليئة بالخصومات والخلافات، ودوائر الشرطة لديها من ذلك الخبر اليقين.

ومع ذلك فإن الذين يندبون أنفسهم للصلح فئة قليلة. بل إن بعض هؤلاء القلة لا يلتزمون بالشرط الذي ذكره الله – تعالى – وهو الصلح بالعدل: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا)(الحجرات: من الآية٩) والإقساط هو العدل ولكن كرره لأهميته ولأثره، وذلك أن أحد الفريقين إذا شعر أن المصلح لم يلتزم بالعدل فلن يقبل به.

ولذا فعلى المصلح أن يكون حذرا منصفا، بعيدا عن الهوى ونـــزغات الشيطان.

والدعاة أحوج الأمة إلى أن يصطلحوا فيما بينهم ويوحدوا كلمتهم فإن ذلك من لوازم دعوهم، ومقتضيات منهجهم، قبل أن يدعوا غيرهم لما هم عنه بعيدون.

٢– حسن الخلق

١ – أخرجه البخاري (٣–١٦٦) كتاب الصلح، ومسلم (٤–٢٠١١) كتاب البر والصلة رقم (٢٦٠٥).

٢ – صحيح مسلم (٤–٢٠١٢) كتاب البر والصلة رقم (٢٦٠٥).

٣ – تفسير ابن سعدي (٧–١٣٤).

وإذا كان المسلم مأمورا بحسن الخلق مع غير المسلمين، فإنه من باب أولى أن يحسن خلقه مع المسلمين.

قال الله – سبحانه – آمرا رسوله، ﷺ (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)(الحجر: من الآية٨٨) وقال فيه: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:٤).

ووردت أحاديث عظيمة عن المصطفى ﷺ تبين منـــزلة حسن الخلق وأثره.

فقد قال، ﷺ "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم" [١] وقال: "البر حسن الخلق" [٢] وقال: "إن من خياركم أحسنكم أخلاقا" [٣] ورضي الله عن عائشة فقد أجابت عندما سئلت عن خلق الرسول، ﷺ بجواب شاف فيه جوامع الكلم، حيث قالت: "كان خلقه القرآن" [٤].

وحسن الخلق لا يقوي الروابط ويوثقها فحسب، بل إنه يوجدها ويقضي على خوارمها.

٣- الحقوق الست:

إن رعاية حقوق المسلم وقيامك بماله عليك، وقيامه بمالك عليه مما يعتبر قياما بحق الأخوة وموجباتها، وقد ثبت عن المصطفى، ﷺ أنه قال: "حق المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس" [٥] وفي رواية لمسلم: "حق المسلم ست، وزاد – وإذا استنصحك فانصح له" [٦].

وإذا أردنا أن نعلم أثر هذه الحقوق في نفوس الناس، فلنتصور أثرها على نفوسنا، وبخاصة إذا عدمت من جانب بعض الناس تجاهنا، تصور أنك سلمت فلم يرد عليك أحد السلام، أو أنك دعوت إخوانك إلى وليمة فلم يحضر أحد، أو أصابك ضر – لا قدر الله – فلم يزرك أحد، أو مات لك قريب فلم يحضر جنازته من كنت تتصور أنه أقرب الناس إليه أو إليك بدون عذر.

١ – أخرجه أبو داود (٤-٢٥٢) كتاب الأدب، رقم (٤٧٩٨) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٩٣٢).

٢ – أخرجه مسلم (٤-١٩٨٠) كتاب البر والصلة رقم (٢٥٥٣).

٣ – أخرجه البخاري (٧-٨١، ٨٢) كتاب الأدب، ومسلم (٤-١٨١٠)، كتاب الفضائل، رقم (٢٣٢١).

٤ – أخرجه مسلم (١-٥١٣) كتاب صلاة المسافرين رقم (٧٤٦).

٥ – أخرجه البخاري (٢-٧٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٤-١٧٠٤) كتاب السلام، رقم (٢١٦٢).

٦ – صحيح مسلم (٤-١٧٠٥) كتاب السلام، رقم (٢١٦٢).

٤- نصرة المسلم

ويكفي فيه الحديث الذي رواه البخاري، وهو من الشهرة بمكان، حيث قال،صلى الله عليه وسلم: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" [١].

١ - صحيح البخاري (٨-٥٩) كتاب الإكراه.

٥- التواد والتراحم

قال ـــ سبحانه ـــ: (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)(النساء: من الآية١) وقال: (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) (الأنفال: من الآية٧٥) وقال، ﷺ "من لا يرحم الناس لا يرحمه الله" [(١)].

وقال: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرالجسد بالسهر والحمى" [(٢)].

وقوله: "من لا يرحم لا يرحم" [(٣)].

٦- **السعي لقضاء حوائج المسلمين** وهذا أمر غفل عنه كثير من الناس وتساهلوا فيه، مع أنه من أشد الأمور تأثيرا في النفوس، ولذلك قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد قلب الحر إحسان

ولذلك ورد فيه آيات وأحاديث منها:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا)(النساء: من الآية٨٥) قال،صلى الله عليه وسلم: "اشفعوا فلتؤجروا" [(٤)].

والشفاعة الحسنة من قضاء الحوائج المهمة لأن الإنسان لا يطلب الشفاعة إلا عند الضرورة غالبا.

١ - أخرجه البخاري (٨-١٦٥) كتاب التوحيد، ومسلم (٤-١٨٠٩) كتاب الفضائل، رقم (٢٣١٩).

٢ - أخرجه البخاري (٧-٧٧) كتاب الأدب، ومسلم (٤-١٩٩٩) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٨٦).

٣ - أخرجه البخاري (٧-٧٥) كتاب الأدب، ومسلم (٤-١٨٠٩) كتاب الفضائل، رقم (٢٣١٨).

٤ - أخرجه البخاري (٧-٨٠) كتاب الدب، ومسلم (٤-٢٠٢٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٦٢٧).

ومما ورد في قضاء الحوائج:

قوله، ﷺ "من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته" [1]. وقوله: "لئن أمشي في حاجة أخي حتى أثبتها أحب إلى من أن أعتكف في المسجد شهرا" [2]. وقوله، ﷺ "ذهب المفطرون اليوم بالأجر" [3].

٧- حفظ السر وستر العورة

قال، ﷺ "لا يستر عبد يا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة" [4].

٨- **الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد** قال ــ سبحانه ــ: (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً) (الإسراء: من الآية٣٤) وقال ــ سبحانه: (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)(البقرة: من الآية١٧٧) ولأن النذر نوع من أنواع العهد قال،صلى الله عليه وسلم،للذي نذر: "أوف بنذرك" [5].

٩- أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه:

وقد قدمنا بعض الآثار في ذلك عند بيان مكانة الأخوة، ولكن أذكر قوله، ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" [6].

١٠- إفشاء السلام

وهو أعم من رد السلام، قال ﷺ "لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم" [7].

١١- مراعاة الجوانب النفسية:

---

١ - أخرجه البخاري (٨-٥٩) كتاب الإكراه، ومسلم (٤-١٩٩٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٨٠).

٢ - أخرجه الطبراني في الكبير (٣-٢٠٩-٢) وابن عساكر في التاريخ (١٨-١-٢) وابن أبي الدنيا في الحوائج ص(٨٠) وحسن الألباني إسناد ابن أبي الدنيا، انظر السلسلة الصحيحة رقم (٩٠٦).

٣ - أخرجه البخاري (٣-٢٢٤) كتاب الجهاد، ومسلم (٢-٧٨٨) كتاب الصيام، رقم (١١١٩).

٤ - أخرجه مسلم (٤-٢٠٠٢) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٩٠).

٥ - أخرجه البخاري (٢-٢٥٦) كتاب الاعتكاف، ومسلم (٣-١٢٧٧) كتاب الأيمان رقم (١٦٥٦).

٦ - أخرجه البخاري (١-٩) كتاب الإيمان، ومسلم (١-٦٧) كتاب الإيمان، رقم (٤٥).

٧ - أخرجه مسلم (١-٧٤) كتاب الإيمان، رقم (٥٤).

من أهم ما يوثق العلاقة بين المسلمين، وينمي الأخوة ويقويها، ويبعد أسباب القطيعة والهجران، مراعاة الجوانب النفسية عند المسلم

ولقد برز اهتمام الإسلام بهذا الجانب في أمور عدة، أمرا ونهيا،وهي أمور يسيرة جدا لكن تأثيرها عَظِيمٌ في نفس المرء، سلبا أوإيجابا.

وكل ما ذكرته من أفعال أمر بها الإسلام أو حث عليها، وكل ما سأذكره من مناه لها آثارها النفسية التي لا تخفى، ولكن يبرز التأثر النفسي في بعض الأمور أكثر من غيرها ومن ذلك:

أ- **التبسم**: قال، ﷺ "وتبسمك في وجه أخيك صدقة" [1].

ب- **الهدية**: والهدية تسل السخيمة، ولذلك كان ﷺ يأبى الصدقة ويقبل الهدية [2] لما لها من أثر عَظِيمٌ في نفس المهدي، ونفس المهدى إليه.

ولذلك لما جاء أحد الصحابة وأهدى لرسول الله، ﷺ صيدا وهو محرم،فرده الرسول، ﷺ فتأثر الصحابي لذلك، فلما رأي، ﷺ أثر ذلك عليه قال: "إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم" [3]. وهذا تطييب منه، ﷺ لنفسية هذا الصحابي.

جـ- **رد السلام وإفشاؤه**: ورد السلام واجب وإفشاؤه سنة، وأثر السلام على من يسلم عليه لا ينكر،وأثر رد السلام على من يسلم مشاهد محسوس.

د- **النهي عن التناجي بين اثنين بحضور ثالث**: وقد نهى، ﷺ عن ذلك بقوله: "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس،من أجل أن يحزنه" [4]. ولقد ورد في القرآن بعض الآيات التي تدل على العناية بالجوانب النفسية، ومن أوضح ما ورد في ذلك قصة يوسف عليه السلام ـــ مع أخوته، فإنه مع ما صنعوا به، من الإلقاء في البئر، وحرمانه من أبيه ـــ عليه السلام ـــ وتعريضه

---

١ - أخرجه الترمذي (٤-٢٩٩) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٥٦)، قال الترمذي، حسن غريب، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٢٩٠٨).

٢ - روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي، صلى الله عليه وسلم كان إذا أتي بطعام، سأل عنه، فإن قيل: هدية أكل منها، وإن قيل: صدقة لم يأكل منها. انظر صحيح مسلم (٢-٧٥٦) كتاب الزكاة رقم (١٠٧٧).

٣ - أخرجه البخاري (٣-١٣٠) كتاب الهبة، ومسلم (٢-٨٥٠، ٨٥١) كتاب الحج رقم (١١٩٣).

٤ - أخرجه البخاري (٧-١٤٢) كتاب الاستئذان، ومسلم (٤-١٧١٨) كتاب السلام، رقم (٢١٨٤).

للاستعباد وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ــ كريم سليل كرام ــ عليهم السلام، ثم السجن وسببه، وبعد ذلك نصره الله، وأصبح عزيز مصر وملكها، ويقولون أمامه ــ وهم لا يشعرون ــ (إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) (يوسف: من الآية٧٧) يعرضون بيوسف، مع أنه لم يسرق من قبل على القول الصحيح[1] فماذا كان رد يوسف ؟ هل اعتقلهم ويستطيع ذلك ؟ هل وبخهم وله الحق في هذا ؟ بل راعى مشاعرهم ونفسياتهم فقال ــ سبحانه ــ: (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)(يوسف: من الآية٧٧) أرأيتم هذا الكرم وهذا الخلق، إنها أخلاق الأنبياء.

والسنة حافلة بالعناية بهذا الجانب ومراعاته.

ومما لفت نظري أن من أقوى الأشياء تأثيرا في النفس بعض الأشياء التي لا تكلف كثيرا، سواء أكانت تكلفة مالية أو حسية أو معنوية،وذلك مثل التبسم، فهل يكلف شيئا ؟

والهدية قيمتها المعنوية أضعاف قيمتها المادية،والدليل على ذلك أنك لو أعطيت إنسانا مبلغا من المال فقد لا يقبله منك، بل قد يعده البعض إهانة، وبخاصة أمام الناس وحتى لو قبله لا يؤثر في النفس تأثير هدية قيمتها لا تتعدى ٢٠% من مقدرا هذا المال.

ثم إن الهدية تؤثر في نفوس جميع الناس: غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم، قريبهم وبعيدهم، ولا يردها أحد من الأسوياء،حتى لو لم يكن يعرف حكمها الشرعي.

ولهذا فإني أؤكد على العناية بهذا الجانب ورعايته سلبا وإيجابا لآثاره العظيمة في نفوس الناس أجمعين.

ثانيا: الأمور المنهي عنها:

ورد النهي عن جميع الأمور التي تكون سببا للقطيعة والهجران، وفصم عرى الأخوة والإيمان [2] مما يغلب شره على خيره، إن كان فيه خير، وإن وجد فإنه نــزر يسير. وهذه الأشياء كثيرة جدا لا

---

١ – انظر: تفسير الطبري ١٣-٢٩ وتفسير ابن كثير ٢-٤٨٦ وغيرهما.

٢ – هناك أمور قد يكون لها تأثير في علاقة الأخوة ومع ذلك فهي مشروعة كالطلاق فإنه جائز وإن كان أبغض الحلال إلى الله، ولكن هذه الأمور تختلف عما سأذكره هنا فإنه منهي عنه لذاته أصلا.

أستطيع حصرها وتعدادها، وإنما سأكتفي بما اشتهر منها، وفشا بين الناس، أو كان له من الآثار أعظم مما لسواه، وبخاصة ما يتعلق بموضوع الأخوة، تعلقا سلبيا.

وسأبدأ بما ورد من ذلك في سورة الحجرات، ثم أتبعه بما يناسب المقام، والله الموفق والمعين:

وحيث قد ورد بعض ما سيرد حيث سبق أن ذكرت بعض هذه الأمور في الحديث عن امتحان القلوب، فسأوجز هنا لذكر ما أغنى عنه هناك.

١- **الغيبة**: بدأت بالغيبة لشيوعها وانتشارها،وقليل من يسلم منها، حتى كثير من الطيبين والمعروفين بالورع، بل وبعض طلاب العلم، ولذلك قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ معبرا عن هذا الواقع:

وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول [1].

وقد وردت الآيات والأحاديث في بيان حرمة الغيبة، وعظم جرمها قال الله ــ تعالى ــ: (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ)(الحجرات: من الآية١٢).

وقال ــ سبحانه ــ: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً) (الأحزاب:٥٨) والغيبة من أشد الأذى على المؤمن.

ويقول ــ جل وعلا ــ مشنعا على المنافقين: (فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ) (الأحزاب: من الآية١٩).

أما الأحاديث فهي كثيرة جدا أذكر بعضا منها:

قال، ﷺ "كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله" [2].

وقال في حجة الوداع: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا،في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت" [3].

---

١ – انظر: الجواب الكافي ص ٢٧٧.

٢ – أخرجه مسلم (٤–١٩٨٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٤).

٣ – أخرجه البخاري (١–٢٤، ٢٥) كتاب العلم، ومسلم (٣–١٣٠٥) كتاب القسامة رقم (١٦٧٩).

وقال، ﷺ مبينا الغيبة، ومزيلا لما يتوهمه البعض أن ذكر الإنسان بما فيه ليس غيبة، فقد قال لأصحابه يوما: "أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ فقال، عليه الصلاة والسلام: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه تقول فقد بهته" [1].

ومن الأمثلة الحية على ذلك، تبيانا لهذا القاعدة التي ذكرها، ﷺ في الغيبة، "أن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ ذكرت صفية عند رسول الله، ﷺ وقالت: حسبك من صفية كذا وكذا ـــ تعني قصيرة ـــ فقال النبي، ﷺ لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته" قالت: "وحكيت له إنسانا فقال، ﷺ ما أحب أني حكيت إنسانا وأن لي كذا وكذا" [2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ "لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس،يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم" [3].

ولقد ذكر الإمام ابن كثير ـــ رحمه الله ـــ في تفسير سورة الحجرات عددا من الأحاديث في تحريم الغيبة، والتحذير الشديد منها [4].

وأجد أن من المناسب ونحن نتحدث عن الغيبة أن أختم الحديث عنها بأمر له صلة مباشرة بها، مع أنه يقرن بها كثيرا، وهي النميمة:

٢- **النميمة:** [5] قال النووي:قال العلماء: النميمة نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على وجهة الإفساد بينهم [6].

---

١ – أخرجه مسلم (٢٠٠١) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٨٩).

٢ – أخرجه أبو داود (٤-٢٦٩) كتاب الأدب، رقم (٤٨٧٥)، والترمذي (٤-٥٧٠) كتاب صفة القيامة رقم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣) قال الترمذي، حسن صحيح، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥١٤٠).

٣ – أخرجه أبو داود (٤-٢٦٩، ٢٧٠) كتاب الأدب، رقم (٤٨٧٨)، وأحمد (٣-٢٢٤) وصححه شعيب الأرناؤوط كما في رياض الصالحين ص (٥٧٤).

٤ – انظر: تفسير ابن كثير (٤-٢١٣).

٥ – انظر: آفات اللسان لسعيد القحطاني ص٥٠ وما بعدها.

٦ – انظر: شرح النووي على مسلم ٢-١١٢.

والنميمة محرمة بالكتاب والسنة والإجماع، قال ــ تعالى ــ: (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) (القلم:١١، ١٢).

قال ــ تعالى ــ: (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) (الهمزة:١).

وعن حذيفة قال: سمعت النبي، ﷺ يقول: "لا يدخل الجنة قتات" [١].

وقال حذيفة رضي الله عنه سمعت النبي، ﷺ يقول: "لا يدخل الجنة نمام" [٢].

والقتات هو النمام، وقيل: النمام هو الذي يحضر القصة فينقلها، والقتات الذي يستمع من حيث لا يعلم به ثم ينقل ما سمعه.

قال ابن حجر: قوله: "لا يدخل الجنة" أي في أول وهلة كما في نظائره [٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "إن محمدا، ﷺ قال: ألا أنبئكم ما العضة ؟ هي النميمة القالة بين الناس" [٤].

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: خرج النبي، ﷺ من بعض حيطان المدينة، فسمعه صوت إنسانين يعذبان في قبريهما، فقال: "يعذبان وما يعذبان في كبيرة، وإنه لكبير، كان أحدهما لا يستتر من البول، وكان الآخر يمشي بالنميمة، ثم دعا بجريدة فكسرها بكسرتين ــ أي اثنتين ــ فجعل كسرة في قبر هذا، وكسرة في قبر هذا، فقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا" [٥].

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة [٦].

ومن الأسباب التي تقوي الروابط وتشد الوشائج، وتبني المحبة بين المسلمين وله صلة بموضوع الغيبة والنميمة، وهو: (**الدفاع عن عرض المسلم**).

---

١ – أخرجه البخاري (٧-٨٦) كتاب الأدب، ومسلم (١-١٠١) كتاب الإيمان، رقم (١٠٥).

٢ – أخرجه مسلم (١-١٠١) كتاب الإيمان رقم (١٠٥).

٣ – انظر: فتح الباري (١٠-٤٧٣).

٤ – أخرجه مسلم (٤-٢٠١٢) كتاب البر والصلة، رقم (٢٦٠٦).

٥ – أخرجه البخاري (٧-٨٦) كتاب الأدب، ومسلم (١-٢٤٠)، كتاب الطهارة رقم (٢٩٢).

٦ – انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص٣٢٥.

وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها ما رواه الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله، ﷺ قال: "من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله إليه ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم" [1].

وروى جابر بن عبد الله وأبو طلحة الأنصاري أن رسول الله، ﷺ قال: "ما من امرئ يخذل امرءا مسلما في موضع تنتهك فيه حرمته، وينقص فيه من عرضه، إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته، وما من امرئ ينصر امرءا مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله ﷻ في مواطن يحب فيها نصرته" [2]. ومن الآثار العاجلة لهذا الأمر، أن الإنسان إذا علم أن أحد إخوانه ذب عن عرضه في مجلس من المجالس أحبه حبا لا ينكر، وإذا علم أنه قدح فيه و لم يدافع عنه أخوه وجد في نفسه عليه ولو اعتذر له عن سبب سكوته.

أما بالنسبة للنميمة فقد قال الإمام النووي نقلا عن الغزالي: كل من حملت إليه نميمة، وقيل له: فلان يقول فيك، أو يفعل فيك كذا فعليه ستة أمور:

الأول: ألا يصدق، لأن النمام فاسق.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك، وينصحه، ويقبح له فعله.

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى، فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من أبغضه الله تعالى.

الرابع: ألا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: ألا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث عن ذلك.

السادس: ألا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فلا يحكي نميمته عنه فيقول: فلان حكى كذا، فيصير به نماما، ويكون آتيا ما نهي عنه [3].

والالتزام بما ذكر يقضي على النميمة في مهدها، ولكن: (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (فصلت:٣٥).

٣- سوء الظن:

١ - أخرجه أبو داود (٤-٢٧١) كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٣) وأحمد (٣-٤٤١) وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع رقم (٥٥٦٤).

٢ - أخرجه أبو داود (٤-٢٧١) كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٤) وأحمد (٤-٣٠) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥٦٩٠).

٣ - انظر: شرح النووي على مسلم ٢-١١٣ نقلا عن الغزالي، وآفات اللسان ص٥٥.

وقد ذكرت هذا الأمر في الحديث عن امتحان القلوب، واستشهدت له من الكتاب والسنة، ولكن لخطورته ولتساهل بعض الناس فيه فإني أزيده أيضاحا فأقول:

قال سبحانه ـــ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)(الحجرات: من الآية١٢).

وقال: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (الإسراء:٣٦).

وقال، ﷺ "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث" [١].

وقال ابن القيم ـــ رحمه الله ـــ: مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها [٢].

وقال أبو حامد الغزالي: أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان،فينفر عنه نفورا ما، ويستثقله، ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه، فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه [٣].

قال الشيخ أحمد الصويان: ويبدو أن الخلفية النفسية للظن السيئ تنبي بقلب عامر بألوان عديدة من ألوان الفساد، كالأثرة وحب الذات، والحسد، والرغبة في الوقيعة بأعراض المسلمين.

قال أبو الطيب:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه — وصـــــدق ما يعتـــــاده من تـــوهم

وعادى محبيـــــه بفعـــل عداته — وأصبح في ليل من الجهل مظلم [٤]

وصدق أبو الطيب (وعادى محبَّيه بفعل عداته).

---

١ – أخرجه البخاري (٧–٨٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤–١٩٨٥) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٣).

٢ – انظر: الفوائد ص٣٠٦.

٣ – انظر: إحياء علوم الدين ٣–.

٤ – انظر: نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها ص٣١.

ولذلك نص العلماء على وجوب تجنب الظنون السيئة وحمل الناس على المحامل الحسنة، وطرد ما يلج للخاطر من أوهام وظنون.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا، وأنت تجد لها في الخير محملا [1].

وقال محمد بن سيرين: إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرا، فإن لم تجد فقل: لعل له عذرا [2].

وقال أبو قلابة: إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك،فإن لم تجد له عذرا فقل في نفسك: لعل لأخي عذرا لا أعلمه [3].

وأحيل الأخوة الكرام على رسالة ذكرها الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في الفتاوى السعدية، فهي ثمينة تبتغى ولولا طولها لذكرتها حيث تبين أمثل الأساليب لمواجهة سوء الظن [4].

٤- التجسس:

قال الله ـــ تعالى ـــ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا) (الحجرات: من الآية١٢).

وقال، ﷺ "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا وَلا تَجَسَّسُوا" الحديث.

إن التجسس خصلة قبيحة،ولا يتصف بها إلا من في قلبه مرض وفساد طوية.

ولقد تأملت في آية سورة الحجرات، فبدا لي أن وقوع النهي عن التجسس بين النهي عن سوء الظن وبين النهي عن الغيبة له دلالة مهمة.

وذلك أن التجسس يجمع خصالا متعددة أهمها سوء الظن وتتبع العورات والغيبة.

---

١ - انظر: تفسير ابن كثير ٤-٢١٢.

٢ - انظر: التوبيخ والتنبيه للأصبهاني رقم (٩٧) ورسالة نحو منهج شرعي للصويان ص٣٢.

٣ - انظر: حلية الأولياء ٢-٢٨٥، ورسالة الصويان ص٣٢.

٤ - انظر: الفتاوى السعدية ص٧١.

فإن التجسس أول ما ينشأ عن سوء الظن، ولو لم يحصل سوء ظن لما وقع التجسس، ثم بعد سوء الظن يبدأ التجسس وتتبع العورات، وبعد وذلك يتحدث المتجسس عما رآه أو سمعه، وهذه هي الغيبة، وكفى بخصلة تجمع هذه الأثافي سوءا وقبحا.

وقد روى عبد الله بن عمر ـــ رضي الله عنهما ـــ أن رسول الله، ﷺ قال: "يا معشر من أسلم بلسانه و لم يدخل الإيمان في قلبه: لا تؤذوا المسلمين ولاتعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله" [١].

وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله، ﷺ يقول: "إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدهم، أو كدت أن تفسدهم" [٢].

قال أبو الدرداء رضي الله عنه كلمة سمعها معاوية رضي الله عنه من رسول الله ـــ ﷺ نفعه الله ـــ تعالى ـــ بها.

وروي عنه، ﷺ أنه قال: "إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم" [٣].

وللسلف كلام كثير عن التجسس وأثره، فهو يثير الضغائن والأحقاد.وقد يعفو المرء ويصفح عمن اغتابه أو ظن به سوءا، ولكن يصعب أن يعفو عمن تجسس عليه وتتبع عوراته وفضحه.

وما أحسن ما قوله الإمام أبو حاتم ابن حبان، حيث قال: الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه، فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه و لم يتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وأن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه، وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه، ومن عاب الناس عابوه [٤].

---

١ – أخرجه أبو داود ٤–٢٧٠ كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٠) والترمذي (٤–٣٣١، ٣٣٢) كتاب البر والصلة رقم (٢٠٣٢) قال الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٧٩٨٤، ٧٩٨٥).

٢ – أخرجه أبو داود (٤–٢٧٢) كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٨)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٢٢٩٥).

٣ – أخرجه أبو داود (٤–٢٧٢) كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٩)، وأحمد (٦–٤)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٥٨٥).

٤ – انظر: روضة العقلاء ونـــزهة الفضلاء ص١٢٥.

وأختم الحديث عن التجسس بما قاله راذان المدايني: رأيت أقواما من الناس لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس فستر الله عيوبهم، وزالت عنهم تلك العيوب، ورأيت أقواما لم تكن لهم عيوب اشتغلوا بعيوب الناس فصارت لهم عيوب[1].

٥- السخرية والهمز واللمز والتنابز

قال الله ــ سبحانه ــ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْأِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (الحجرات:١١).

جمع الله بين السخرية واللمز والتنابز في آية واحدة، ومعناها متقارب،وأصلها واحد وإن اختلفت أسلوب التعبير عنها.

فلا تنشأ السخرية ولا اللمز ولا التنابز إلا من مرض الاحتقار، فإذا احتقر المسلم أخاه سخر منه ولمزه ونابزه، ولذلك قال، صلىالله عليه وسلم: "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" [2].

والاحتقار منشؤه إعجاب المرء بنفسه، ولو لم يكن كذلك لما احتقر غيره، وقد ذم رسول الله، ﷺ الكبر فقال: "الكبر بطر الحق وغمط الناس" [3]. فانظر كيف جعلهما رسول الله، ﷺ مقترنين، وقال عبد الله بن المبارك: لا أعلم في المصلين شرا من العجب.

وقد نهى رسول الله، ﷺ عن الاحتقار فقال: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله" [4]. الحديث. وتأمل في هذا الحديث حيث جعل رسول الله، ﷺ من لوازم الأخوة انتفاء الظلم والحقران والخذلان، ثم قال، ﷺ في نهاية الحديث: "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم"

---

١ – انظر: عيوب النفس لأبي عبد الرحمن السلمي ص ١٢، وله ولما قبله رسالة نحو منهج شرعي للصويان ص٤٢.

٢ – أخرجه مسلم (٤-١٩٨٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٤).

٣ – أخرجه مسلم (١-٩٣) كتاب الإيمان، رقم (٩١).

٤ – أخرجه مسلم (٤-١٩٨٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٤).

قال ابن كثير في تفسيره لآية الحجرات: ينهى ـــ تعالى ـــ عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في التصحيح عن رسول الله، ﷺ أنه قال: "الكبر بطر الحق وغمص الناس"[1]. ويروى "وغمط الناس" [2] والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله ـــ تعالى ـــ وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له [3].

والخلاصة أن سخرية الغني من الفقير، والنسيب من المولى، والمتعلم من الأمي، والجميلة من الدميمة، والطويلة من القصيرة، ونحو هؤلاء كل ذلك يسبب الشحناء والبغضاء والتقاطع.

إن القلوب إذا تنافر ودها   مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

ولذلك حرمه الله، وجعل لمز المسلم لأخيه المسلم لمزا لنفسه، بل إن أعظم اللمز والسخرية إذا كان ذلك بسبب خلقة خلق عليها، أو أمر لا حيلة للمرء فيه، كالفقر،والدمامة، والقصر، فهذا من الله، وعيب الإنسان بذلك سوء أدب مع الله واعتراض على خلقه وقدره.

٦- التفاخر

قال ـــ سبحانه ـــ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:١٣) قال المفسرون: جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا،لا لتفاخروا إن هذه الآية قد حسمت هذا الموضوع بتأصيل ثلاث ركائز:

١- **إن أصل خلق الناس جميعا واحد،** آدم وحواء، بل إنني أفهم منها معنى آخر [4] وهو أن كل إنسان خلق من ذكر وأنثى أي من أبيه وأمه، فليس هناك من خلق من ذكرين أو أنثيين، أو ذكر فقط عدا حواء، أو أنثى فقط (سوى عيسى عليه السلام). فأين مجال التفاخر، فأبوك كأبيه، وأمك كأمه، أو كما قال المفسرون: فأبوك أبوه وأمك أمه، فلم التفاخر؟!

---

١ - الذي في الصحيح (وغمط) أما "وغمص" فقد رواها الترمذي بلفظ "ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس" انظر سنن الترمذي (٤-٣١٨) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٩٩) وغمص الناس أي: احتقرهم.

٢ - تقدم أن هذا لفظ الصحيح فكيف يورده الحافظ ابن كثير بصيغة التمريض ؟.

٣ - انظر: تفسير ابن كثير (٤-٢١٢).

٤ - وذلك للتنكير الذي يدل عليه التنوين.

٢- **أما ما يحتج به الناس بانتسابهم إلى شعب كذا أو قبيلة كذا**، فلم يأذن الله بذلك لأجل التفاخر، وإنما لأجل التعارف فحسب، لما يترتب عليه من حقوق وواجبات.

٣-

وهنا يسأل سائل: أليس هناك ميدان للتفاخر والتفاضل؟

فيأتي الجواب: بلى، ولكن ليس هو ما اعتاده الناس ومارسوه، وهو التفاخر بالأنساب والأصول، وإنما يكون التفاضل والتقديم بالتقوى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(الحجرات: من الآية١٣) قد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن التفاخر بالأنساب أذكر بعضها:

"فقد سأل الصحابة رسول الله، ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم.

قالوا: ليس عن هذا نسألك ؟

قال: فأكرم الناس يوسف: نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله.

قالوا: ليس عن هذا نسألك؟

قال: فعن معادن العرب تسألوني؟

قالوا: نعم.

قال: " فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا" [١].

وقد روى حذيفة عنه، ﷺ أنه قال: "كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان" [٢].

وعندما عير أبو ذر رضي الله عنه رجلا من الصحابة بأمه وكانت أعجمية، غضب رسول الله، ﷺ ونهره قائلا: "أعيرته بأمه؟ !إنك امرؤ فيك جاهلية" [٣].

---

١ - على ألا يؤدي إلى الإعجاب أو المنة، أخرجه البخاري (٤-١١١، ١٢٠، ١٢٢) كتاب الأنبياء، ومسلم (٤-١٨٤٦) كتاب الفضائل، رقم (٢٣٧٨).

٢ - أخرجه البزار وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٤٥٦٨).

٣ - أخرجه البخاري (١-١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٣-١٢٨٢، ١٢٨٣)، كتاب الأيمان، رقم (١٦٦١).

وقد روى عطاء عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قوله: ثلاث آيات جحدهن الناس، الإذن كله، وقال: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(الحجرات: من الآية١٣) وقال الناس: أكرمكم أعظمكم بيتا، وقال عطاء: نسيت الثالثة [1].

وما أجمل ما قاله قطب ــ رحمه الله ــ في تفسيره لهذه الآية،ومما قال: وهكذا تتوارى جميع أسباب النـــزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم للألفة والتعاون، ألوهية الله للجميع،وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله.

وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت، وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيا بشتى الأزياء،وتسمى بشتى الأسماء،وكلها جاهلية عارية من الإسلام [2].

إن المسلم ليزداد عجبه من إنسان يفتخر بشيء لا جهد له فيه، ويسخر من إنسان في أمر لا حيلة له فيه.

**كن ابن من شئت واكتسب أدبا		يغنيـــــك محموده عن النسب**

**إن الفتـــــى من يقول ها أنذا		ليس الفتى من يقول كان أبي**

وإذا سقط التفاخر بالأنساب، فسقوط غيره مما يتفاخر فيه الناس من أمور الدنيا من باب أولى، وتبقى التقوى هي ميدان التنافس والعمل.

وبعد أن ذكرت الأمور التي وردت في سورة الحجرات، مما يكون سببا في التباغض والتهاجر، ومن ثم ضعف وثاق الأخوة بين المسلمين، أذكر الآن بعض ما نهى الله عنه أو رسوله، ﷺ مما يناقض أصل (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)(الحجرات: من الآية١٠) وكما أشرت سابقا: سأذكر ذلك بإجمال.

---

١ – انظر: تفسير الطبري (٢٦-١٤٠).

٢ – انظر: في ظلال القرآن (٦-٣٣٤٨).

٧- الغل:

وقد سبق تفصيله والاستدلال له في موضوع الحديث عن القلوب، وقد ورد في ذلك حديث أنس بن مالك في قصة عبد الله بن عمرو والرجل الذي بشره رسول الله، ﷺ بالجنة [١] وأعيد هنا حديث جابر لعلاقته بموضوع الأخوة وتأثير الغل على هذه الرابطة.

فقد روى جابر رضي الله عنه أن رسول الله، ﷺ قال: "إن الشيطان قد آيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم" [٢]

ومن دعاء المؤمنين الذين أثنى الله عليهم (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْأِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (الحشر: ١٠).

٨- الغش والتدليس والمكر والخداع والغدر:

فقد ثبت في الصحيح قوله، ﷺ "من غشنا فليس منا" [٣] وفي رواية أخرى: "من غش فليس مني" [٤] وقال، ﷺ محذرا من الغدر ومبينا خطورته وعقوبته يوم القيامة: "يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان" [٥].

والأحاديث في ذلك كثيرة فإن من صفات المنافق: أنه إذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر.

٩- التباغض، والتحاسد، والتناجش، والتدابر، وإظهار الشماتة:

وقد ثبت عنه، ﷺ قوله: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا" [٦]. وفي رواية أخرى: "ولا تنافسوا ولا تحاسدوا" [٧].

١٠- أن لا يحقره ولا يظلمه ولا يسلمه ولا يخدله ولا يكذبه ولا يخونه:

---

١ - أخرجه أحمد ٣-١٦٦ والنسائي في اليوم والليلة رقم (٨٦٣) وابن السني في اليوم والليلة رقم (٧٥٤) وصححه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣-١٨٧).

٢ - أخرجه مسلم (٤-٢١٦٦) كتاب صفات المنافقين، رقم (٢٨١٢).

٣ - أخرجه مسلم (١-٩٩) كتاب الإيمان، رقم (١٠١).

٤ - أخرجه مسلم (١-٩٩) كتاب الإيمان، رقم (١٠٢).

٥ - أخرجه البخاري (٧-١١٥) كتاب الأدب، ومسلم (٣-١٣٥٩، ١٣٦٠)، كتاب الجهاد، رقم (١٧٣٥، ١٧٣٦).

٦ - أخرجه البخاري (٧-٨٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤-١٩٨٣) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٥٩).

٧ - أخرجه مسلم (٤-١٩٨٥) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٣).

قال، ﷺ "المسلم أخو المسلم لا يظلمه، التقوى ههنا – ويشير إلى صدره – بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" [(١)].

وقال، ﷺ "المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله" [(٢)].

وأنبه إلى خطورة الخذلان وأثر ذلك في تمزيق عرى الأخوة، وقد سبق أن ذكرت بعض الاحاديث الواردة في ذلك بعد الحديث عن الغيبة ووجوب الدفاع عن عرض المسلم.

١١- التناجي:

إن من مكارم الأخلاق نهي الرسول، ﷺ عن التناجي بين اثنين وعندهما ثالث، وذلك في الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال، ﷺ "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن يحزنه" أي من أجل ألا يحزن. وفي رواية: "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر فإن ذلك يحزنه" [(٣)].

هذا مع أن التناجي قد يكون في أمر من أمور الخير، فكيف إذا كان بالشر، فقد حذر الله منه في عدة مواضع حيث قال – سبحانه –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى)(المجادلة: من الآية٩) وقال: (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا)(المجادلة: من الآية١٠).

أرأيتم كيف عني الإسلام بما يحفظ للمسلمين أخوتهم ووحدتهم وتوادهم وتراحمهم، ويعصمهم مما يؤذيهم ويفرقهم.

١٢- **البيع على بيعه والشراء على شرائه، والخطبة على خطبته** ونحو ذلك:

وفي هذا أحاديث معلومة مشهورة صحيحة كقوله، ﷺ "ولا يبع بعضكم على بيع بعض" [(٤)].

١٣- الهجر:

---

١ – أخرجه مسلم (٤–١٩٨٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٤).

٢ – أخرجه الترمذي (٤–٢٨٧) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٢٧) وقال الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٦٧٠٦).

٣ – أخرجه مسلم (٤–١٧١٨)، كتاب السلام، رقم (٢١٨٤).

٤ – أخرجه البخاري (٣–٢٦) كتاب البيوع، ومسلم (٣–١١٥٤)، كتاب البيوع، رقم (١٤١٢).

وقد قال، ﷺ "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، من هجر فوق ثلاث فمات دخل النار" [1]. وباب الهجر باب مهم في العقيدة، وقد خلط الناس فيه فهجروا للدنيا وأضاعوا الهجر في الله، كهجر أهل البدع والأهواء ومن يستحق الهجر شرعا.

بل وجدنا من يهجر إخوانه من الدعاة وطلاب العلم للخلاف في مسائل قابلة للاجتهاد، مع أنه لا يعرف عن هؤلاء هجر أهل البدع والفساق ونحوهم. فلا حول ولا قوة إلا بالله، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وسيطرة الأهواء والانتكاسة بعد الهدى.

وبعد:

فأجد أن من المناسب أن أختم باب الأمور المنهي عنها مما يفرق المسلمين ويخدش أخوة المؤمنين بمسائل غفل عنها كثير من الناس مع شيوعها وانتشارها وسوء آثارها:

١- التعصب لمذهب أو شخص - سوى رسول الله - أو بلد أو لغة.

٢- الحزبية المحرمة، فلم يرد لفظ الحزب في القرآن - بالنسبة للمؤمنين - إلا مفردا (أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(المجادلة: من الآية٢٢) وقوله: (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) (المائدة:٥٦).

أما غير المسلمين فقد ورد بالإفراد والجمع: (أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)(المجادلة: من الآية١٩)، (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ)(مريم: من الآية٣٧)، (جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ) (صّ:١١)، (وَلَمَّا رَأى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) (الأحزاب: من الآية٢٢).

وأنبه إلى الفرق بين التحزب والانتماء لمناهج وجماعات بدعية تخالف منهج أهل السنة والجماعة، وبين تحزب المسلمين ضد الكفار والانتماء لأهل السنة والجماعة، فالأول هو المذموم والمحرم.

---

١ - أخرجه أبو داود (٤-٢٧٩) كتاب الأدب، رقم (٤٩١٤)، وأحمد (٢-٣٩٢) وصححه الألباني على شرط البخاري ومسلم. انظر: الإرواء (٧-٩٤).

أما تحزب المؤمنين ضد الكفر وأهله والانتماء لجماعة أهل السنة والجماعة، والالتزام بمنهج السلف فهذا محمود ومطلوب (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا)(آل عمران: من الآية١٠٣) "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين" الحديث[1] (أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(المجادلة: من الآية٢٢).

٣- جعل الاختلاف في المسائل الاجتهادية والفرعية سببا للفرقة والشحناء والعداوة والبغضاء [2].

٤- وأخيرا تقديم أمور الدنيا على أمور الدين، مما سبب شيوع الخلاف بين المسلمين وضعف هيبتهم وذهاب ريحهم.

وفي ختام هذا المبحث عن الأخوة بين المؤمنين، وبعد أن عشنا وقتا مناسبا مع هذا الموضوع فإني أذكر بما يلي (انسجاما مع ما ورد في سورة الحجرات) فأقول:

١- إن على الدعاة وطلاب العلم مسئولية خاصة في معالجة هذه القضية على مستوى الأمة والأفراد.

٢- لا بد أن يبدأ الدعاة بأنفسهم فيزيلوا ما بينهم، ويوحدوا صفوفهم على منهج الكتاب والسنة منهج السلف الصالح، وإذا فعلوا ذلك نجوا ونجوا جميعا.

٣- إن محاولة الوحدة بين الدعاة مع إغفال الأسباب الحقيقية للخلاف، لا يمكن أن تحقق الهدف، ولو تحقق ظاهرا فسرعان ما يذهب ويتلاشى.

إن بعض الدعاة يتحاشى مناقشة الأسباب الجوهرية في هذا الشأن، وهي الأمور التي تتعلق بالمنهج، أي بالجوهر لا بالشكل.

وأذكر بقوله – تعالى -: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا)(آل عمران: من الآية١٠٣).

وبقوله: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)(المائدة: من الآية٢).

---

١ – أخرجه البخاري (٨-١٨٩) كتاب التوحيد، ومسلم (٣-١٥٢٣) كتاب الإمارة، رقم (١٩٢٠، ١٩٢١).

٢ – أنصح بقراءة الرسالة القيمة التي كتبها د- صالح بن حميد بعنوان: "أدب الخلاف" ففيها غنية وكفاية.

وقوله: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:١-٣).

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾(الحجرات: من الآية١٠).

السابع عشر: الموضوع السادس: الإسلام والإيمان

قال الله – تعالى -: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات:١٤).

قضية الإيمان والإسلام من القضايا التي بحثها العلماء قديما وحديثا، وممن وقف مع هذا الموضوع وقفه مستوعبة وناقش جميع أطرافه وفصوله شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابة: الإيمان [١] وكذلك فعل شارح الطحاوية، حيث ناقش الموضوع مناقشة شاملة [٢] وممن عرض لهذا الموضوع – أيضا – دون تفصيل طويل ابن كثير في تفسيره لسورة الحجرات [٣] وابن حجر في فتح الباري [٤] وغيرهم من المفسرين وشراح الحديث.

ونظرا لطول الموضوع وتشعبه، وتبعا لمنهجي في هذا البحث، فسأتناول بعض القضايا مما لها علاقة بآية سورة الحجرات، معتمدا على المصادر التي أشرت إليها سابقا، دون إغراق في التفاصيل، أو تشعيب للموضوع، والله الموفق والمعين.

أولا: تعريف الإسلام والإيمان

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

الإسلام دين، والدين مصدر دان يدين دينا، إذا خضع وذل، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله، وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه، فمن عبده وعبد معه إلها آخر لم يكن مسلما، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما،

---

١ – انظر: ص٢٢٥ وغيرها.

٢ – انظر: ٢-٤٥٩ وغيرها.

٣ – انظر: ٤-٢١٨.

٤ – انظر: ١-١١٤.

والإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له، والعبودية له، هكذا قال أهل اللغة: أسلم الرجل إذا استسلم، فالإسلام في الأصل من باب العمل، عمل القلب والجوارح.

وأما الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب، والأصل فيه التصديق، والعمل تابع له [1].

وقال في موضع آخر:

الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر، وبلفظ التقوى، وبلفظ الدين كما تقدم، فإن النبي ﷺ بين أن الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الآذى عن الطريق.

فكان كل ما يحبه الله يدخل في اسم الإيمان، وكذلك لفظ البر يدخل فيه جميع ذلك إذا أطلق، وكذلك لفظ التقوى، وكذلك الدين أو دين الإسلام [2].

وقال الطحاوي: الإيمان هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان [3].

قال شارح الطحاوية بعد كلام الطحاوي: اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافا كثيرا.

فذهب مالك، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، وسائر أهل الحديث، وأهل المدينة – رحمهم الله – وأهل الظاهر، وجماعة من المتكلمين إلى أنه – تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

وذهب كثير من أصحابنا [4] إلى ما ذكره الطحاوي أنه: الإقرار باللسان والتصديق بالجنان.

ومنهم من يقول: إن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدي، ويروى عن أبي حنيفة – رحمه الله – [5].

---

١ – انظر: كتاب الإيمان ص٢٤٩.

٢ – انظر: كتاب الإيمان ص١٧٠.

٣ – انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢-٤٥٩.

٤ – أي: الحنفية.

٥ – انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢-٢٥٩.

وذكر أقوال الكرامية والجهمية ثم قال: وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان: إما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح، كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله، أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكره الطحاوي، عن أبي حنيفة وأصحابه - رحمهم الله - أو باللسان وحده - كما تقدم ذكره عن الكرامية - أو بالقلب وحده، وهو إما المعرفة - كما قال الجهم - أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي - رحمه الله -.

وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر.

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة صوري، فإن أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب [1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:

ومما ينبغي أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة هو نـــزاع لفظي، وإلا فالقائلون بأن الإيمان قول [2] من الفقهاء كحماد بن أبي سليمان، وهو أول من قال ذلك، ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد [3].

والخلاصة التي نصل إليها هي أن الإسلام يفسر بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الظاهرة والباطنة.

فالإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك [4].

والإيمان هو: القول باللسان، والتصديق بالجنان، والعمل بالأركان [5].

قال شيخ الإسلام: ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة، من شعائر السنة، وحكى غير واحد الإجماع على ذلك، وقد ذكرنا عن الشافعي ما ذكره من الإجماع على ذلك قوله في

---

١ - انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢-٤٦٢.

٢ - أي قول اللسان، وقول القلب - وهو التصديق - وهذا ما يفرقه عن قول الكرامية الذين يقولون بقول اللسان فقط.

٣ - انظر: كتاب الإيمان ص٢٨١.

٤ - انظر: كتاب الإيمان ص٢٥٦.

٥ - حيث سبق بيان ذلك، وانظر كتاب الإيمان ص٢٧١.

"الأم": وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزي واحد من الثلاثة إلا بالآخر [1].

ثانيا: حقيقة إسلام الأعراب

هذه من المسائل التي اختلف فيها العلماء، وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية وابن أبي العز الحنفي الحديث فيها [2] وسأذكر مجمل القول في هذه المسألة مع بيان الراجح من هذه الأقوال.

اختلف العلماء هل الإسلام الذي ورد في سورة الحجرات (وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)(الحجرات: من الآية١٤) هو إسلام يثابون عليه، أو هو كإسلام المنافقين؟

فقال الحسن، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وأبو جعفر الباقر، وحماد بن زيد، وأحمد بن حنبل، وسهل التستري، وأبو طالب المكي، وكثير من أهل الحديث والسنة:

إنه إسلام يثابون عليه، ويخرجهم من الكفر والنفاق.

وقال البخاري، ومحمد بن نصر المروزي: إن هذا الإسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل، مثل إسلام المنافقين، وذلك لأن هؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فهو كافر.

ومما احتج به أصحاب هذا القول - أيضا -: إن الإسلام هو الإيمان، وكل مسلم مؤمن، وكل مؤمن مسلم، ومن جعل الفساق مسلمين غير مؤمنين لزمه أن لا يجعلهم داخلين في قوله - تعالى -: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ)(المائدة: من الآية٦) وفي قوله - تعالى -: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ)(الجمعة: من الآية٩) وأمثال ذلك، فإنهم دعوا باسم الإيمان، لا باسم الإسلام، فمن لم يكن مؤمنا لم يدخل في ذلك [3].

وقد أجاب بعض أصحاب القول الأول بأجوبة هي في حقيقتها أدلة لهم على قولهم، ومن ذلك:

١- إننا عندما نقول: إنهم خرجوا من الإيمان إلى الإسلام، لم نقل: إنه لم يبق معهم من الإيمان شيء، بل هذا قول الخوارج والمعتزلة، ومذهب أهل السنة أن الفساق يخرجون من النار بالشفاعة، وأن معهم

١ - انظر: كتاب الإيمان ص٢٩٢.

٢ - انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص٢٢٥، وشرح العقيدة الطحاوية ٢-٤٩٠.

٣ - انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٢٥.

إيمانا يخرجون به من النار، لكن لا يطلق عليهم اسم الإيمان، وهم يدخلون في الخطاب بالإيمان، لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل في الإيمان وإن لم يستكمله، فإنه إنما خوطب ليفعل تمام الإيمان.

قال شيخ الإسلام: والتحقيق أن يقال: إنه مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ولا يعطى اسم الإيمان المطلق، فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق، واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله، لأن ذلك إيجاب عليه، وتحريم عليه، وهو لازم له [1].

٢- إن نفي الإيمان المطلق لا يستلزم أن يكونوا منافقين كما في قوله - تعالى -: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً) (الأنفال: ٢-٤) ومعلوم أنه من لم يكن كذلك ليس منافقا من أهل الدرك الأسفل من النار، بل لا يكون أتى بالإيمان الواجب فنفي عنه، كما ينفى سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب فيها، فكذلك الأعراب لم يأتوا بالإيمان الواجب، فنفى عنهم لذلك وإن كانوا مسلمين، معهم من الإيمان ما يثابون عليه.

٣- إن السورة تنهي عن جملة من المعاصي التي فيها تعد على الرسول وعلى المؤمنين، فالأعراب المذكورون فيها من جنس الباقين أهل السباب والفسوق والمنادين من وراء الحجرات وأمثالهم ليسوا من المنافقين [2].

قال شيخ الإسلام معقبا على ما ذكره:

فهذا كله يدل على أن هؤلاء من فساق الملة، فإن الفسق يكون تارة بترك الفرائض وتارة بفعل المحرمات، وهؤلاء لما تركوا ما فرض الله عليهم من الجهاد، وحصل عندهم نوع من الريب الذي أضعف إيمانهم، لم يكونوا من الصَادِقِينَ الذين وصفهم، وإن كانوا صَادِقِينَ في أنهم في الباطن متدينون بدين الإسلام.

---

١ - انظر: كتاب الإيمان ص٢٢٨.

٢ - انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢-٤٩١، والإيمان ص٢٣٧.

وقول المفسرين: لم يكونوا مؤمنين نفي لما نفاه الله عنهم من الإيمان، كما نفاه عن الزاني، والسارق، والشارب، وعمن لا يأمن جاره بوائقه، وعمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأمثال هؤلاء.

وقد يحتج على ذلك بقوله: (بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ)(الحجرات: من الآية١١) كما قال: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" [١] فذم من استبدل اسم الفسوق بعد الإيمان، فدل أن الفاسق لا يسمى مؤمنا، فدل ذلك على أن هؤلاء الأعراب من جنس أهل الكبائر لا من جنس المنافقين [٢].

وأما ما ذكره بعض المفسرين من أنهم أَسْلَمُوا خوف القتل والسبي [٣] فهكذا كان إسلام كثير ممن أسلم سوى المهاجرين والأنصار.

فقد أسلم أناس رغبة أو رهبة كإسلام الطلقاء من قريش بعد أن قهرهم النبي، ﷺ وكإسلام المؤلفة قلوبهم من هؤلاء ومن غيرهم.

وليس كل من أسلم رغبة ورهبة كان من المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار، بل إنهم يدخلون في الإسلام رغبة أو رهبة فيحسن إسلامهم، وليس في قلوبهم تكذيب أو معاداة للرسول، ﷺ.

وقد ذكر بعض المفسرين أنهم أَسْلَمُوا بغير قتال [٤] فهؤلاء كانوا أحسن إسلاما من غيرهم، ولكن الله ذمهم لكونهم منوا بالإسلام، وأنـــزل فيهم: (وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ)(محمد: من الآية٣٣) من جنس أهل الكبائر.

وأما قوله: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)(الحجرات: من الآية١٤) فإن "لما" إنما ينتفي بها ما ينتظر ويكون حصوله مترقبا، كقوله: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) (آل عمران:١٤٢) وأمثالها، فقوله: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)(الحجرات: من الآية١٤) يدل على أن دخول الإيمان منتظر منهم، فإن الذي يدخل في الإسلام ابتداء لا يكون قد حصل في قلبه إيمان، لكنه يحصل فيما بعد، كما في الحديث: "كان الرجل يسلم أول النهار رغبة في الدنيا، فلا يجيء

---

١ – أخرجه البخاري (١-١٧، ١٨) كتاب الإيمان، ومسلم (١-٨١)، كتاب الإيمان، رقم (٦٤).

٢ – انظر: كتاب الإيمان ص٢٣٧ وشرح العقيدة الطحاوية (٢-٤٩١).

٣ – انظر: تفسير الطبري ٢٦-١٤٢.

٤ – انظر: تفسير القرطبي ١٦-٣٤٨.

آخر النهار إلا والإسلام أحب إليه مما طلعت عليه الشمس" ولهذا كان عامة الذين أَسْلَمُوا رغبة أو رهبة دخل الإيمان في قلوبهم بعد ذلك، وقوله: (وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)(الحجرات: من الآية١٤) أمر لهم بأن يقولوا ذلك، والمنافق لا يؤمر بشيء، ثم قال: (وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً)(الحجرات: من الآية١٤) والمنافق لا تنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولا [1].

ومما سبق يتضح أن الراجح هو القول الأول، أي بأنهم مسلمون حقيقة ولكن إيمانهم ضعيف، وليس إسلامهم كإسلام المنافقين الذين لا ينفعهم إسلامهم إلا في الدنيا بعصمة دمائهم وأموالهم، أما في الآخرة فهم في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا.

ولعل المبحث الآتي يزيد الأمر وضوحا وبيانا.

---

١ – انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص٢٣٨.

ثالثا: اجتماع الإسلام والإيمان وافتراقهما

اختلف العلماء في الإسلام والإيمان، فطائفة ترى أن الإسلام والإيمان شيء واحد، وأنه لا فرق بَيْنَهُمَا، قال ابن أبي العز: وطائفة جعلوا الإسلام مرادفا لِلإِيمَانِ، وجعلوا معنى قول الرسول، ﷺ "الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة" [1] شعائر الإسلام [2].

وقال ابن حجر: تقدم أن المؤلف – أي البخاري – يرى أن الإيمان والإسلام عبارة عن معنى واحد [3] قال ابن حجر: وقد نقل أبو عوانة الإسفراييني في صحيحه عن المزني صاحب الشافعي الجزم بأنهما عبارة عن معنى واحد، وأنه سمع ذلك منه [4].

ومما استدل به على ترادف الإسلام والإيمان قوله – تعالى –: (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (الذاريات:٣٥، ٣٦) [5].

وقد استدل البخاري على ترادف الإسلام والإيمان بأدلة ذكرها ابن حجر في الفتح، منها: تفسير الإيمان في حديث وفد عبد قيس حيث فسره بما فسر به الإسلام في حديث جبريل، وكذل خبر أبي سفيان أن الإسلام هو الدين [6].

وجمهور السلف على أن الإسلام غير الإيمان، وأن بَيْنَهُمَا عموما وخصوصا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد صار الناس في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال:

قيل هو الإيمان، وهما اسمان لمسمى واحد.

وقيل: هو الكلمة. ولكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي، ﷺ لما سئل عن الإسلام والإيمان، ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة، فليس لنا إذا جمعنا بين الإسلام والإيمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي، ﷺ.

---

١ – انظر حديث جبريل أخرجه البخاري مختصرا (٦-٢٠) كتاب التفسير، ومسلم مطولا (١-٣٦ – ٣٨) كتاب الإيمان رقم (٨) ففيه معنى الإسلام.

٢ – انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢-٤٨٨.

٣ – انظر: فتح الباري ١-١١٤.

٤ – انظر: فتح الباري ١-١١٤.

٥ – انظر: شرح الطحاوية ٢-٤٩٣.

٦ – انظر بيان ذلك في فتح الباري ١-١١٤.

وأما إذا أفرد اسم الإيمان، فإنه يتضمن الإسلام، وإذا أفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمنا بلا نـــزاع، وهذا هو الواجب [١].

وقال ابن حجر: وعن الإمام أحمد الجزم بتغايرهما.

قال الخطابي: صنف في المسألة إمامان كبيران، وأكثرا من الأدلة للقولين، وتباينا في ذلك، والحق أن بَيْنَهُمَا عموما وخصوصا، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنا [٢].

وقال ابن كثير في تفسير آية الحجرات: وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ويدل عليه حديث جبريل – عليه الصلاة والسلام – حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه [٣].

وقال ابن أبي العز: فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر، فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية، فهما شيئان في الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم، كشيء واحد، كذلك الإسلام والإيمان لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه، ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله، وفي كلام الناس كثيرة، أعني في الإفراد والاقتران.

منها لفظ الكفر والنفاق، والبر والتقوى، ولفظ الإثم والعدوان، ولفظ التوبة والاستغفار، ولفظ الفقير والمسكين، وأمثال ذلك.

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله – تعالى –: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)(الحجرات: من الآية١٤)[٤] وقال: أما الاحتجاج بقوله – تعالى –: (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (الذاريات:٣٥، ٣٦) على ترادف الإسلام والإيمان

١ – انظر: كتاب الإيمان ص٢٤٦.

٢ – انظر: فتح الباري ١–١١٥.

٣ – انظر: تفسير ابن كثير ٤–٢١٨.

٤ – انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢–٤٩٠.

فلا حجة فيه، لأن البيت المخرج كانوا موصوفين بالإسلام والإيمان، ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما [1].

قال شيخ الإسلام في الرد على من احتج بترادف الإسلام والإيمان: وجميع ما ذكره من الحجة عن النبي، ﷺ فإن فيها التفريق بين مسمى الإيمان والإسلام إذا ذكروا جميعا، كما في حديث جبريل وغيره. وفيها – أيضا – أن اسم الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام [2].

قلت: وبهذا يجاب عن حديث وفد عبس قيس [3] حيث ذكر الإيمان وحده فيدخل فيه الإسلام.

وقد ذكر ابن حجر كلاما نفيسا في الجمع بين القولين يحسن ذكره، وأختم به هذه المسألة، حيث قال: والذي يظهر من مجموع الأدلة أن لكل منهما حقيقة شرعية، كما أن لكل منهما حقيقة لغوية، لكن كل منهما مستلزم للآخر بمعنى التكميل له، فكما أن العامل لا يكون مسلما كاملا إلا إذا اعتقد، فكذلك المعتقد لا يكون مؤمنا كاملا إلا إذا عمل، وحيث يطلق الإيمان في موضع الإسلام أو العكس، أو يطلق أحدهما على إرادتهما معا فهو على سبيل المجاز، ويتبين المراد بالسياق، فإن وردا معا في مقام السؤال حملا على الحقيقة، وإن لم يردا معا، أو لم يكن في مقام سؤال أمكن الحمل على الحقيقة أو المجاز بحسب ما يظهر من القرائن.

وقد حكى ذلك الإسماعيلي عن أهل السنة والجماعة قالوا: إنها تختلف دلالتهما بالاقتران، فإن أفرد أحدهما دخل الآخر فيه.

وعلى ذلك يحمل ما حكاه محمد بن نصر وتبعه ابن عبد البر عن الأكثر أنهم سووا بَيْنَهُمَا على ما في حديث وفد عبد قيس، وما حكاه اللالكائي وابن السمعاني عن أهل السنة أنهم فرقوا بَيْنَهُمَا، على ما في حديث جبريل، والله الموفق [4].

---

١ – انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢-٤٩٣.

٢ – انظر: كتاب الإيمان ص٣٥٢.

٣ – حديث وفد عبد القيس أخرجه البخاري (١-١٣٣) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (١-٤٦) كتاب الإيمان، رقم (١٧) ولفظه عن ابن عباس قال: قدم وفد عبد القيس على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله إن هذا الحي من ربيعة وقد حالت بيننا وبينك كفار مضر، فلا نخلص إليك إلا في شهر الحرام، فمرنا بأمر نعمل به، وندعو إليه من وراءنا، قال: آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، الإيمان بالله، ثم فسرها لهم فقال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم. الحديث.

٤ – انظر: فتح الباري ١-١١٥.

وبهذا يتضح أن الراجح هو القول بتغايرهما عند الاجتماع واتفاقهما عند الافتراق، وأن بَيْنَهُمَا عموما وخصوصا، والله الهادي إلى سواء السبيل.

الثامن عشر: الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته وفضله تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين.. **وبعد.**

فبعد عدة سنوات قضيتها مع هذه السورة قارئا ومتأملا ودارسا ومدرسا وباحثا، ها أنا أصل -بحمد الله- إلى نهايتها، وهي أمنية طالما راودتني، واليوم أراها بفضل الله ومنه قد تحققت، وإن كنت أطمح إلى أفضل من ذلك وأكمل، ولكنه جهد البشر يعتريه النقص والتقصير، ويأبى الله الكمال إلا لنفسه – جل وعلا – ولكتابه، والعصمة إلا لرسوله، ﷺ وملائكته.

وها أنت أخي القارئ تجد بين يديك أشمل تفسير لسورة الحجرات خرج حتى الآن – حسب علمي واستقرائي – ولا أقول إنه أفضل تفسير وأجوده، ولأن الفضل أمر نسبي، فقد يكون الشيء فاضلا عن وجه ومفضولا من وجه آخر، وأسأل الله ألا يحرمني أحد أوجه الفضل، التي تقربني إليه. وقد عرفت أخي القارئ ما في هذه السورة من قراءات وأحكام، وكذلك علمت أسباب نـــزول آياتها، وأوجه إعرابها، وتفسير معانيها، كل ذلك جاء بأسلوب ميسر، لم يجنح إلى التطويل الممل، ولم ينـــزع إلى الايجاز المخل، ولكنه كان بين ذلك قواما.

واجتهدت ألا يرد في ذهنك سؤال ذو بال إلا وتجد الإجابة عليه في موضعه، ولا أدعي الإحاطة والكمال.

وفي القسم الثاني: عشنا مع موضوعات هذه السورة، ورأينا فيها تلك الوقفات التي ربما لم تكن وقفات عليها من قبل.

سواء أكانت ما يتعلق بأسماء الله وصفاته، والأثر الذي يجب أن يتركه الإيمان بها في حياتنا، دون الوقوف عند مجرد التصديق الذي هو لازم ولا محيد عنه. أو كانت الوقفة عند المنهج الذي ترسمه هذه السورة للدعاة، في وقت نحن أحوج ما نكون إلى منهج القرآن في دعوتنا، حيث تعددت السبل وتفرقت الكلمة (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)(الأنعام: من الآية١٥٣).

وكانت الوقفة الأخيرة مع اللسان، وكيف جاءت هذه السورة تعالج خطله وتقوم اعوجاجه، وتصحح مساره وهدفه، من أول مقطع فيها إلى آخر موضوع جاءت به.

احفـــظ لســـانك أيها الإنسان لا يلـــدغنك إنـــه ثعبـــــان

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تخاف لقاءه الشجعان

أما موضوعات هذه السورة فقد رأينا فيها ما يصعب إيجازه بكلمات ولكنها إشارات لا تغني عن الذات، فأقول:

١- اتضح لنا خطورة التقدم بين يدي الله ورسوله، وأن صور هذا التقدم ليست محصورة في معنى دون آخر، بل هو شامل لكل ما يمكن أن نطلق عليه تقدما، حسا أو معنى، وأشد أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله، هو الحكم بغير ما أنـــزل الله، وهو كفر قد يخرج صاحبه من الملة إذا توافرت الأسباب وانتفت الموانع.

٢- الأدب مع رسول الله ﷺ دين يجب أن يلتزم به المسلم في حياة رسول الله، ﷺ وبعد وفاته، وقد رسمت لنا هذه السورة شيئا من ذلك.

ومن الأدب معه، ﷺ الأدب مع العلماء وتوقيرهم والاعتراف بفضلهم وسابقتهم، لأنهم هم الذين يحملون ميراث النبوة، لأن العلماء هم ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وقد أفضت بهذا الموضوع بما يكفي ويشفي.

٣- لا يمكن أن تستقيم الحياة وتصفو من أكدارها إلا بالتقوى، ولن يحقق المرء مراد ربه إلا إذا تعاهد قلبه وأخلصه لله، وقد رأينا عناية هذه السورة بالقلوب وتقواها، تصريحا وإيماء، عبارة وإشارة: (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى) (الحجرات: من الآية٣).

٤- الإشاعة داء قاتل، وقالة السوء لا تتوقف عند حد، والكذب قد فشا سوقه وراجت بضاعته، وفي الموضوع الرابع من موضوعات سورة الحجرات وقفنا عند المنهج الشرعي في نقل الأخبار والتثبت منها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)(الحجرات: من الآية٦) وتوصلنا إلى نتائج مهمة، وقواعد شرعية تقطع دابر الكذب وتلغي أثره، وترد أصحابه على أعقابهم خاسرين.

٥- (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)(الحجرات: من الآية١٠) ما أعظمها من آية، إنها البلسم الشافي وسط عالم يموج بالتقاطع والتدابر، ويمسي ويصبح على القتال والتناحر، إن الأخوة الإيمانية منهج رباني متى ما وعاه المسلمون فقد صلحوا وأفلحوا، بينت في ذلك المبحث الأسباب المقربة والمبعدة وفصلت هناك فيما يحقق الأخوة والمحبة، ويدرأ دابر التنابذ والخصام (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)(الحجرات: من الآية١٠).

٦- مبحث الإسلام والإيمان مبحث طويل، تناوله العلماء بالتحقيق والتدقيق، وبينوا متى يجتمعان ومتى يفترقان.

وقد اكتفيت من القلادة بما أحاط بالعنق، منسجما مع منهجي في هذا الكتاب، وأحلت على مواطن التفصيل والتحليل، وكنت كما قال الأول: وعن البحر اجتزاء بالوشل.

وكما بدأت أختم فأقول تيمنا:

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الصافات: ١٨٠-١٨٢).